ستيفن كينغ

STEPHEN KING

مكتبة
462

برج الظلام 1

THE DARK TOWER 1

الرجل المسلّح

THE GUNSLINGER

ترجمت
إلى 33 لغة
وتحولت إلى فيلم
سينمائي مثير

رواية

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

برج الظلام 1

THE DARK TOWER 1

الرجل المسلّح

THE GUNSLINGER

مكتبة 462

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Dark Tower I: The Gunslinger
Copyright © 2016 by Stephen King
All Rights Reserved
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من ستيفن كينغ
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع مع الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Arabic Copyright © 2017 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-01-2384-7

جميع الحقوق محفوظة للناشر

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الانترنت: http://www.asp.com.lb

مكتبة ١٥ ٢٠١٩٦

ستيفن كينغ

STEPHEN KING

برج الظلام 1

THE DARK TOWER 1

الرجل المسلّح

THE GUNSLINGER

ترجمة

اوليغ عوكي

مكتبة 462

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

المحتويات

مقدمة	7
تمهيد	17
الفصل 1: المسلَّح	25
الفصل 2: المحطة الوسطية	107
الفصل 3: العرّافة والجبال	164
الفصل 4: المتحوِّلون البطيئون	201
الفصل 5: المسلَّح والرجل ذو الرداء الأسود	261

مكتبة
جديد الكتب والروايات
تابعنا اضغط اللينك
t.me/ktabpdf
t.me/ktabrwaya
facebook.com/newpdf

مقدمة

حول أن تكون في التاسعة عشرة (وبضعة أشياء أخرى)

مكتبة

I

كان الهوبيت مشهورين جداً عندما كنتُ في التاسعة عشرة من عمري (وهذا رقم مهم قليلاً في القصص التي ستقرأها بعد لحظات).

كان يوجد حوالي ستة أولاد يرتدون زيّ ميري وبيبين يشقّون طريقهم بعناء في وحول مزرعة ماكس يسغور خلال مهرجان وودستوك العظيم للموسيقى، وضعف ذلك العدد من الأولاد الذين يرتدون زيّ فرودو، وعدد لا يُحصى من الهيبّيين الذين يرتدون زيّ غاندالف. كانت أفلام جون ر. تولكين «سيد الخواتم» شعبية إلى حد كبير في تلك الأيام، ورغم أنني لم أذهب إلى وودستوك أبداً (عذراً)، إلا أنني أظن أنني كنتُ هيبّياً قزماً على الأقل. يكفي المرء أن يكون قد قرأ الروايات، بأي عدد من المرات، ووقع في حبّها. وقد وُلدَت كتب سلسلة «برج الظلام»، مثل معظم القصص الخيالية الطويلة التي ألّفها رجال ونساء جيلي («سجلات توماس كوفنانت» تأليف ستيفن دونالدسون و«سيف شانّارا» تأليف تيري بروكس هما مجرد مثالين من أمثلة عديدة)، تأثّراً بروايات تولكين.

لكن رغم أنني قرأتُ الروايات في العامين 1966 و1967، إلا أنني امتنَعتُ عن الكتابة. لقد تفاعلتُ (وبحرص شديد) مع موجة تولكين الخيالية – ومع طموح رواياته – لكنني أردتُ أن أكتب نوعاً خاصاً بي من الروايات، ولو بدأتُ وقتها، لكنتُ قد كتبتُ روايته. وذلك كان سيكون خطأ، مثلما كان يحبّ الرئيس نيكسون أن يقول. بفضل السيد تولكين، كان القرن العشرين يعجّ بكل الأقزام والمشعوذين الذين يحتاج إليهم.

في العام 1967، لم تكن لديّ أي فكرة عما سيكون عليه نوعي الخاص من الروايات، لكن ذلك لم يكن مهماً؛ فقد كنتُ متيقناً أنني سأعرفه عندما يمرّ بجانبي في الشارع. كنتُ في التاسعة عشرة ومتغطرساً. كنتُ بالطبع متغطرساً كفاية لكي أشعر أنه يمكنني أن أتمهّل قليلاً قبل أن أكتب تحفتي الفنية (حسبما كنتُ متأكداً أنها ستكون عليه). أظن أنه يحقّ للمرء أن يكون متغطرساً في التاسعة عشرة؛ فالزمن لن يكون قد بدأ يُلقي بثقله عليه بعد. سيزيل شعره واندفاعته، مثلما تقول إحدى الأغاني الشعبية، لكنه يزيل أكثر من ذلك بكثير في الحقيقة. لم أكن أعرف ذلك في العامين 1966 و1967، ولو كنتُ أعرفه، لما كنتُ اكترثتُ. فبالكاد كنتُ قادراً على تخيّل نفسي في الأربعين، لكن في الخمسين؟ لا. *الستين*؟ أبداً! كانت الستين غير واردة على الإطلاق. وهذه طبيعة الحياة بكل بساطة في التاسعة عشرة. التاسعة عشرة هي العمر الذي تقول فيه للآخرين *احذروا، فدخان الـ TNT يتصاعد مني وأنا أشرب الديناميت، لذا إذا كنتم تدركون صالحكم، ابتعدوا عن طريقي – فها قد أتى ستيفي.*

التاسعة عشرة عمر أناني وتكون اهتمامات المرء مقيَّدة بشكل

محكم. كان لديّ الكثير من المدى، وكان ذلك يهمّني. كان لديّ الكثير من الطموح، وكان ذلك يهمّني. كانت لديّ آلة كاتبة بقيتُ أنقلها معي من شقة قذرة إلى أخرى، وفي جيبي دائماً علب من السجائر، وعلى وجهي ابتسامة. كانت تسويات منتصف العمر لا تزال بعيدة، ومهانات الشيخوخة نائية في الأفق. مثل بطل أغنية بوب سيغر التي يستخدمونها الآن لبيع الشاحنات، شعرتُ بقوة وتفاؤل لا ينضبان؛ كانت جيوبي فارغة، لكن ذهني كان مليئاً بأفكار أردتُ أن أقولها، وقلبي مليئاً بقصص أردتُ أن أرويها. يبدو هذا مبتذلاً الآن؛ لكن الشعور كان رائعاً وقتها. كنتُ مُعتدّاً بنفسي كثيراً. وأكثر شيء كنتُ أريده هو أن أقتحم دفاعات قرّائي، أن أحطّمها وأهشّمها وأغيِّرها إلى الأبد من خلال رواية فقط لا غير. كنتُ أشعر أنني قادر على فعل تلك الأمور. كنتُ أشعر أنني *خُلقتُ* لأفعل تلك الأمور.

كم أبدو مغروراً؟ كثيراً أو قليلاً؟ في الحالتين، لستُ هنا لأعتذر. فقد كنتُ في التاسعة عشرة. لم تكن هناك ولو شعرة رمادية واحدة في لحيتي. كان لديّ حذاء واحد وثلاثة سراويل جينز، وانطباع أن العالم ملعبي، ولا شيء حصل في السنوات العشرين التالية أظهر أنني على خطأ. ثم بدأت متاعبي في حوالي التاسعة والثلاثين: الشراب، المخدرات، حادث سير غيَّر طريقتي في المشي (بالإضافة إلى عدة أشياء أخرى). كتبتُ مطوّلاً عنها، ولا داعي لأكرِّر الحديث عنها هنا. بالإضافة إلى ذلك، الأمر حصل معك أنت أيضاً، أليس كذلك؟ فالحياة ترسل لك في نهاية المطاف شرطي سير يافعاً لكي يُبطئ تقدّمك ويُفهمك مَن بيده القرار. لا شك أنك صادفت شرطي سيرك أيها القارئ (أو ستصادفه)؛ لقد صادفتُ شرطي سيري، وأنا أكيد أنه

سيعود. فقد حصل على عنواني. وهو شاب لئيم، ملازم سيئ، العدو اللدود للمشاغبة، الغرور، الطموح، الموسيقى الصاخبة، وكل سمات سنّ التاسعة عشرة.

لكنني لا أزال أظن أنه سنّ جميل. ربما أفضل سنّ. يمكنك أن تستمع إلى موسيقى صاخبة طوال الليل، وعندما تتوقف الموسيقى وينتهي الشراب، ستبقى قادراً على التفكير. وعلى حلم أحلام كبيرة. يجعلك شرطي السير تلزم حدودك في نهاية المطاف، وإذا بدأتَ صغيراً، لماذا، لن يبقى فيك شيء يُذكر تقريباً عندما ينتهي منك. ثم يصرخ بك، "اغرب عن وجهي!"، ويخطو حاملاً دفتر المخالفات بيده. لذا فإن قليلاً (أو حتى كثيراً) من الغطرسة ليس شيئاً سيئاً، رغم أن أمك بلا شك أخبرتك خلاف ذلك. فأمي فعلت ذلك. "الغرور يسبق السقوط يا ستيفن"، هكذا قالت لي... ثم عرَفتُ – في مرحلة ما بالقرب من السنّ 19×2 – أن لا مفرّ من أن تسقط في نهاية المطاف. أو من أن تُدفَع إلى الخندق. في التاسعة عشرة، يستطيعون رفض إدخالك إلى المقاصف ويصرخون بوجهك لكي تبتعد وتعود من حيث أتيت، لكنهم لا يستطيعون رفضك عندما تجلس لكي ترسم لوحةً أو تكتب قصيدةً أو تروي قصةً، معاذ الله، وإذا صدف وكنتَ يافعاً جداً أيها القارئ، لا تدع الأكبر منك سناً والمفترض أنهم أرشد منك يقولون لك خلاف ذلك. بالطبع أنك لم تسافر إلى باريس أبداً. لا، ولم تركض أبداً مع الثيران في بامبلونا. نعم، أنت شخص عديم الأهمية لم يكن هناك شعر تحت إبطَيه منذ ثلاث سنوات – لكن ما الضرر في ذلك؟ إذا لم تبدأ وثيابك ضيقة عليك، فكيف ستملأها عندما تكبر؟ دعها تتمزق بغض النظر عما يقوله لك أي شخص، هذه فكرتي؛ استرخ

قليلاً وتمعّن بهذا يا عزيزي.

II

أعتقد أن الروائيين من نوعين، وهذا يتضمن نوع الروائي الحديث النشء الذي كنتُ عليه في العام 1970. أحد أولئك الملتزمين بالناحية الأدبية أو "الجدية" أكثر من المسألة والذي يدقّقون في كل موضوع ممكن على ضوء هذا السؤال: *ماذا سيكون معنى كتابة هذا النوع من الروايات بالنسبة لي*؟ أحد أولئك الذين يعتمد مصيرهم (أو كا، إذا أردت) على شمل الروايات الشعبية والذين يميلون إلى طرح سؤال مختلف جداً: *ماذا سيكون معنى كتابة هذا النوع من الروايات بالنسبة للآخرين*؟ يبحث الروائي "الجدي" عن أجوبة ودلالات لنفسه؛ أما الروائي "الشعبي" فيبحث عن جمهور. والنوعان من الكتّاب أنانيان بشكل متساوٍ. لقد تعرّفتُ على عدد لا بأس به من الاثنين، وسأضعهم تحت مراقبتي.

على أي حال، أظن أنه حتى في سنّ التاسعة عشرة، أدركتُ أن قصة فرودو وجهوده ليخلّص نفسه من الخاتم العظيم تنتمي إلى المجموعة الثانية. فقد كانت في الأساس مغامرات مجموعة من الرحّالة البريطانيين على خلفية أساطير اسكندنافية غامضة. أعجبتني فكرة المسعى - *أحببتها* في الواقع - لكن لم يكن لديّ أي اهتمام بشخصيات تولكين الريفية القوية (لا أقصد أن أقول إنها لم تعجبني، لأنها أعجبتني) أو مسرحه الاسكندنافي الكثير الأشجار. فإذا حاوَلتُ الذهاب في ذلك الاتجاه، سأخطئ في كل شيء أقوم به.

لذا انتظَرتُ. بحلول العام 1970، أصبحتُ في الثانية والعشرين، وظهرت أولى الشعرات الرمادية في لحيتي (أظن أن لتدخين علبتين ونصف من السجائر كل يوم علاقة بذلك على الأرجح)، لكن المرء يستطيع أن ينتظر حتى في الثانية والعشرين. فالوقت عندها لا يزال في صالحه، رغم قدوم شرطي السير الشرير إلى الحي لكي يسأل عنه.

ثم في صالة سينما فارغة بالكامل تقريباً (سينما البيجوه في بانغور، ماين، إذا كنت مهتماً أن تعرف)، شاهدتُ فيلماً من إخراج سيرجيو ليوني عنوانه «الطيب والشرس والقبيح». قبل منتصف الفيلم حتى، أدرَكتُ أن ما كنتُ أريد كتابته هو رواية تتضمن روحية مسعى تولكين وعجائبه لكن أحداثها تجري في غرب ليوني المهيب على نحو سخيف تقريباً. لن تفهم قصدي إذا كنت قد شاهدت هذا الفيلم على شاشة التلفزيون فقط – عذراً لكن هذه هي الحقيقة. فعلى شاشة السينما العملاقة، يظهر كلينت إيستوود بطول 6 أمتار تقريباً، وكل شعرة في لحيته تبدو بحجم شجرة يافعة تقريباً. والأخاديد على فم لي فان كليف عميقة كالوديان، ويمكن أن تكون هناك غُمَيمة (راجع «المشعوذ والزجاج») في أسفل كل واحد منها. تظهر الصحراء وكأنها تمتد إلى أقاصي مدار كوكب نبتون. وتبدو فوهة كل مسدس كبيرة مثل نفق هولندا تقريباً.

ما كنتُ أريده حتى أكثر من مسرح الأحداث هو ذلك الشعور بوجود حجم ملحمي مروع. وحقيقة أن ليوني لم يكن يعرف شيئاً على الإطلاق عن الجغرافيا الأميركية (وفقاً لإحدى الشخصيات فإن شيكاغو تقع في مكان ما بجوار فينيكس، أريزونا) أضافت إلى الانطباع العام بانفصال الفيلم عن الواقع. وفي حماستي – من النوع الذي يمكن

أن يتولّد لدى شاب فقط، أعتقد – لم أرغب بكتابة كتاب *طويل* فحسب، بل *أطول رواية شعبية في التاريخ*. لم أنجح في فعل ذلك، لكنني أشعر أنني توصلتُ إلى شيء جميل؛ يتمحور «برج الظلام» بأجزائه السبعة حول حكاية واحدة حقاً، ويفوق طول الأجزاء الأربعة الأولى ألفَي صفحة بقليل. ويصل طول الأجزاء الثلاثة الأخيرة إلى حوالي ألفين وخمسمئة صفحة بخط اليد. لا أحاول أن ألمّح هنا إلى وجود أي علاقة على الإطلاق بين الطول والنوعية؛ لكنني أقول فقط إنني أردتُ كتابة ملحمة، وقد نجَحتُ في ذلك بطريقة من الطرق. إذا سألتني *لماذا* أردتُ فعل ذلك، فلن أستطيع أن أجيبك. ربما هذا جزء من طبيعة الأميركيين: يبنون الأطول، يحفرون الأعمق، يكتبون الأطول. وماذا بشأن الحيرة عندما يُطرَح سؤال الدافع؟ أظن أن ذلك جزء من طبيعة الأميركيين أيضاً. فنحن في النهاية مفطورون على قول *بدت الفكرة جيدة في ذلك الوقت*.

III

شيء آخر عن أن تكون في التاسعة عشرة: أعتقد أنه السنّ الذي يواجه الكثير منا فيه مأزقاً ما (عقلياً وعاطفياً، وربما جسدياً). تمرّ السنوات وتجد نفسك تنظر إلى المرآة بحيرة حقيقية في أحد الأيام. وتتساءل *لماذا كل هذه الخطوط على وجهي؟ من أين جاء هذا الكرش الغبي؟ اللعنة، فأنا لا زلتُ في التاسعة عشرة!* هذا ليس دقيقاً جداً، لكنه لا يلغي أي مقدار بسيط من الدهشة التي يشعر بها المرء.

الزمن يضع الشيب في لحيتك، ويلغي اندفاعتك، وأنت تظن

طوال ذلك الوقت – يا لسذاجتك – أنه لا يزال حليفك. الحسّ المنطقي الذي فيك يعرف أفضل من ذلك، لكن قلبك يرفض أن يصدِّقه. إذا كنت محظوظاً فإن شرطي السير الذي نظَّم محضر مخالفة بحقك بسبب سرعتك الزائدة ونسبة تسليتك الزائدة سيعطيك أيضاً جرعة من أملاح النشادر لتستفيق من حالة الإغماء التي أنت فيها. هذا ما حصل لي تقريباً في نهاية القرن العشرين. وقد جاء على هيئة شاحنة بليموث دفعتني إلى خندق في أحد طرقات مسقط رأسي.

بعد ثلاث سنوات من ذلك الحادث، أقمتُ جلسة توقيع لروايتي «من بويك 8» في أحد فروع متجر بوردرز في ديربورن، ميشيغن. وعندما وصل شابٌ إلى مقدمة صف الانتظار، قال إنه سعيد حقاً بأنني لا أزال حياً (هذا يحصل معي كثيراً، وهو أفضل بأشواط من *بداءة* "لماذا لم تمت أيها اللعين؟").

"كنتُ مع أحد أصدقائي عندما سمعنا بالحادث،" قال. "فبدأنا نهزّ رأسينا يا رجل ونقول 'ها قد بدأ البرج يهتزّ، إنه يميل، إنه يسقط، آه، اللعنة، لن يتمكن من إنهائه *أبداً* الآن'".

حصلت معي نفس الفكرة بشكل مختلف – الفكرة المُقلقة بأنه وبعد بناء «برج الظلام» في الخيال الجماعي لمليون قارئ، أصبحت لديّ مسؤولية بأن أبقى سليماً طالما أراد الناس القراءة عنه. قد يكون ذلك لخمس سنوات فقط؛ حسب اعتقادي، أو لخمسمئة. فيبدو أن لروايات الخيال، السيئة والجيدة على حد سواء حياة مديدة في المبيعات (حتى في هذه اللحظة بالذات، هناك شخص ما على الأرجح يقرأ «فارني مصّاص الدماء» أو «الناسك»). طريقة رولاند لحماية البرج هي بمحاولة إزالة التهديد عن العوارض التي تحمله. أدركتُ بعد حادثي

أنه عليَّ القيام بذلك من خلال إنهاء قصة المسلَّح.

خلال فترات الاستراحة الطويلة بين كتابة الروايات الأربعة الأولى لسلسلة «برج الظلام» ونشرها، تلقَّيتُ مئات رسائل "احزم حقائبك، سنذهب في رحلة ذنوب". في العام 1998 (عندما كنتُ أكدح تحت الانطباع الخاطئ بأنني لا أزال مبدئياً في التاسعة عشرة، بمعنى آخر)، تلقَّيتُ رسالة من "جَدّة في الثانية والثمانين من عمرها، لا أقصد أن أزعجك بمشاكلي لكنني مريضة جداً هذه الأيام". أخبرتني الجَدّة أن أمامها سنة على الأرجح لكي تعيش ("14 شهراً في الخارج، السرطان منتشر في كل جسمي")، ورغم أنها لا تتوقع مني إنهاء قصة رولاند في تلك الفترة من أجلها فقط، فقد أرادت معرفة لو أستطيع رجاءً (*رجاءً*) إخبارها كيف ستكون النهاية. والجملة التي أثّرت بيَّ (لكن ليس بما يكفي لكي أعاود التأليف مرة أخرى) كان وعدها بأنها "لن تُخبر أحداً أبداً". بعد سنة – على الأرجح بعد الحادث الذي أقعدني في المستشفى – تلقّت إحدى مساعداتي، مارشا ديفيليبو، رسالة من زميل ينتظر الموت في تكساس أو فلوريدا، يتشوَّق لمعرفة نفس الشيء في الأساس: كيف ستكون النهاية؟). وقد وعدني بأنه سيأخذ السر معه إلى القبر، وهذا جعل بدني يقشعرّ).

كنتُ لأخبر هذين الشخصين ما أرادا معرفته – تلخيصٌ عن مغامرات رولاند الإضافية – لو كنتُ قادراً على ذلك، لكنني لم أكن قادراً للأسف. فلم تكن لديَّ أي فكرة عما ستؤول عليه الأمور مع المسلَّح وأصدقائه. لمعرفة ذلك، عليَّ أن أؤلِّف. كان لديَّ مخطط عام في وقت من الأوقات، لكنني أضعتُه (الأرجح أنه لم يكن يستحق أي أهمية على أي حال). كل ما كان لديَّ هو بضع ملاحظات (تقول

إحداها موجودة على المكتب بينما أكتب هذا، "*شوسّيت*، *شيسّيت*، *شاسّيت*، *شيء-شيء-السلّة*"). في نهاية المطاف، وبدءاً من يوليو 2001، بدأتُ التأليف مرة أخرى. عرفتُ وقتها أنني لم أعد في التاسعة عشرة، وأنني لستُ مُعفى من كل العلل التي تصيب الجسد. عرفتُ أنني سأصبح في الستين، وربما حتى السبعين. وأردتُ إنهاء قصتي قبل أن يعود شرطي السير الشرير للمرة الأخيرة. لم تكن لديَّ أي رغبة في أن تتم أرشفتي مع «حكايات كانتربيري» و«لغز إدوين درُود».

النتيجة – في مختلف الأحوال والظروف – تقف أمامك، عزيزي القارئ الدائم، سواء كنت ستبدأ بقراءة الجزء الأول أو تستعد للجزء الخامس. سواء أعجبك ذلك أم لا فإن قصة رولاند انتهت الآن. آمل أن تستمتع بها.

أما بالنسبة لي، فقد أمضيتُ أجمل فترة في حياتي.

ستيفن كينغ

25 يناير 2003

تمهيد

معظم ما يكتبه الكتّاب عن عملهم هو كلام فارغ غير مدروس.* لهذا السبب لم تر أبداً كتاباً عنوانه «مئة مقدمة عظيمة عن الحضارة الغربية» أو «أَحبّ التمهيدات على قلب الأميركيين». هذا رأيي الشخصي بالطبع، لكن بعد كتابة خمسين مقدمةً وتمهيداً على الأقل – ناهيك عن كتاب كامل عن حِرفة تأليف الروايات الخرافية – أظن أن هذا من حقي. وأظن أنه يمكنك أن تصدقني عندما أخبرك أن هذه المرة قد تكون إحدى تلك الحالات النادرة التي يكون لديَّ فيها شيء يستحق القول حقاً.

تسبّبتُ منذ بضع سنوات ببعض الغضب لدى قرائي بعد نشري إصداراً منقّحاً وموسَّعاً لروايتي «الموقف». كان توتري بشأن تلك الرواية مبرَّراً لأنها لطالما كانت الرواية المفضَّلة لدى قرائي (بالنسبة لأكثر المتحمّسين لهذه الرواية، كان يمكنني أن أموت في العام 1980 من دون أن أجعل العالم مكاناً أكثر فقراً بشكل ملحوظ).

إذا كانت هناك قصة تنافس «الموقف» في خيال قراء كينغ فهي على الأرجح حكاية رولاند ديشاين وبحثه عن «برج الظلام». والآن – اللعنة! – لقد عدتُ وفعلتُ الشيء نفسه مرة أخرى.

لكنني لم أفعل، ليس حقاً، وأريدك أن تعرف ذلك. أريدك أن تعرف أيضاً ما الذي *فعلتُه*، ولماذا. قد لا يكون ذلك مهماً لك، لكنه مهم *جداً* لي، لذا فإن هذا التمهيد مُعفى (آمل ذلك) من قاعدة كينغ

---

* لمناقشة أشمل عن "عامل الكلام الفارغ"، راجع «حول التأليف»، نشر سكريبنر في العام 2000.

بشأن الكلام الفارغ.

أولاً، تذكّر رجاءً أن مخطوطة «الموقف» خضعت لحذوفات كبيرة ليس لأسباب تحريرية بل لأسباب مالية (لعبت محدوديات التجليد دوراً أيضاً، لكنني لا أريد حتى ذكر هذه المسألة). ما أعدتُ نشره في أواخر الثمانينات كان عبارة عن أقسام منقَّحة من المخطوطة الموجودة مسبقاً. كما أنني نقّحتُ العمل ككل أيضاً، لكي أشير في الأغلب إلى وباء الإيدز، الذي ازدهر (إذا كانت هذه هي الكلمة المناسبة لذلك) بين الطبعة الأولى لـ «الموقف» وبين نشر الطبعة المنقَّحة بعد ثماني أو تسع سنوات. فكانت النتيجة جزءاً أطول بحوالي 100,000 كلمة من الطبعة الأصلية.

في حالة «الرجل المسلَّح»، كان الجزء الأصلي نحيلاً، والمواد المضافة في هذه الطبعة تبلغ خمس وثلاثين صفحة فقط، أو حوالي تسعة آلاف كلمة. إذا كنت قد قرأت «الرجل المسلَّح» من قبل، ستجد فقط مشهدين أو ثلاثة مشاهد جديدة كلياً هنا. سيرغب عشّاق «برج الظلام» (وعددهم كبير إلى حد مدهش – ما عليك سوى مراجعة الويب للتحقّق من هذا) بقراءة الرواية مرة أخرى، بالطبع، ويميل معظمهم إلى فعل ذلك بمزيج من الحشرية والغضب. أتعاطف معهم، لكن يجب أن أقول إنني لستُ قلقاً بشأنهم بقدر قلقي بشأن القراء الذين لم يصادفوا رولاند أبداً وشِلّته*.

بالرغم من متتبّعيها الشديدي الحماسة، حكاية البرج أقل شهرة بكثير بين قرائي من شهرة «الموقف». عندما أقيم جلسات قراءة

---

* أولئك المرتبطون بمصير مشترك.

أحياناً، أطلب من الحاضرين أن يرفعوا أيديهم إذا كانوا قد قرأوا واحدة أو أكثر من رواياتي. وبما أنهم تكبّدوا عناء القدوم – ويرافق ذلك أحياناً الإزعاج الإضافي الناتج عن الاستعانة بحاضنة أطفال وتحمّل الكلفة الإضافية لقيادة السيارة – فليس مفاجئاً أبداً أن يرفع معظمهم يده. ثم أطلب منهم إبقاء أيديهم مرفوعة إذا قرأوا واحدةً أو أكثر من قصص «برج الظلام». عندما أفعل هذا، تنخفض نصف الأيدي في القاعة على الأقل. الاستنتاج واضح كفاية: رغم أنني أمضيتُ فترة زمنية مخيفة في تأليف تلك الكتب في الثلاث والثلاثين سنة بين العامين 1970 و 2003، إلا أن عدداً قليلاً نسبياً من الناس قرأوها. لكن الذين قرأوها شغوفون جداً بها، وأنا شغوف بها نوعاً ما شخصياً – لدرجة أنني لم أقدر أبداً على ترك رولاند يذبل في ذلك المنفى الذي يُعتبر المنزل الحزين للشخصيات غير المُنجَزة (تذكّر مهاجري تشوسر في طريقهم إلى كانتربيري، أو الأشخاص الذين يملأون رواية تشارلز ديكنز الأخيرة غير المُنجَزة «لغز إدوين درُود»).

أعتقد أنني افترضتُ دائماً (في مكان ما في لاوعيي، لأنني لا أستطيع أن أتذكّر التفكير بذلك في وعيي) أنه سيكون هناك متّسع من الوقت لأُنهي فيه هذه السلسلة، أو أن تتفتّح قريحتي الأدبية في يوم من الأيام وتقول لي: "عد إلى العمل يا ستيفن، وأنهِ البرج". شيء كهذا حصل حقاً، بطريقة ما، رغم أن قريحتي الأدبية لم تكن مَن قال لي ذلك بل لقاء قريب مع حافلة بليموث جعلني أعاود نشاطي التأليفي. لو كانت المركبة التي صدمتني في ذلك اليوم أكبر بقليل، أو لو كانت الإصابة مباشرة أكثر بقليل، لكانت أصبحت حالة طلب من المعزّين ألا يُحضروا زهوراً، وعائلة كينغ تشكركم على تعاطفكم. ولبقي مسعى

رولاند غير مُنجَز إلى الأبد، من قبلي أنا على الأقل.

في أي حال، قرّرتُ في العام 2001 - وقد بدأتُ أستعيد وقتها شعوري بنفسي أكثر - أنه حان الوقت لإنهاء قصة رولاند. دفَعتُ كل شيء آخر جانباً وبدأتُ العمل على الكتب الثلاثة الأخيرة. وكالعادة، لم أفعل ذلك من أجل القراء بقدر ما فعلتُه لنفسي.

رغم أن تنقيح الجزءين الأخيرين لا يزال سارياً بينما أكتب هذا في شتاء 2003، إلا أنني أنهيت تأليف الكتب نفسها في الصيف الماضي. وفي الفترة الفاصلة بين تحرير الجزء الخامس («ذئاب الكالا») والجزء السادس («أغنية سوزانا»)، قرّرتُ أن الوقت قد حان للعودة إلى البداية وبدء التنقيح الإجمالي النهائي. لماذا؟ لأن تلك الأجزاء السبعة لم تكن أبداً قصصاً منفصلةً حقاً، بل أقساماً لرواية واحدة طويلة تدعى «برج الظلام»، وكانت البداية غير متزامنة مع النهاية.

لم يتغيَّر أسلوبي في التنقيح كثيراً على مر السنوات. أعرف أن هناك كتّاباً ينقّحون رواياتهم أثناء تأليفهم لها، لكن طريقتي في الهجوم لطالما كانت أن أغوص وأتقدَّم بأسرع ما يمكن، وأُبقي حافة شفرتي الروائية حادة قدر الإمكان عبر الاستخدام المتواصل، وأحاول أن أسبق أخبث عدو للروائي، ألا وهو الارتياب. فالنظر إلى الخلف يدفع إلى طرح أسئلة كثيرة: ما مدى صدق شخصياتي؟ كم تُعتبر قصتي مثيرة للاهتمام؟ ما مدى جودتها حقاً؟ هل سيكترث لها أي شخص؟ هل سأكترث لها بنفسي؟

عندما تنتهي أول مسودة من إحدى رواياتي، أضعُها جانباً لكي تنضج. ثم بعد فترة من الوقت - ستة أشهر، سنة، سنتين، لا يهمّ حقاً

- أستطيع العودة إليها بنظرة هادئة أكثر (لكنها تبقى نظرة مُحبّة)، وأبدأ مهمة تنقيحها. رغم أنه تم تنقيح كل كتاب من سلسلة البرج ككيان منفصل، إلا أنني لم أنظر أبداً إلى العمل ككتلة واحدة حقاً إلى أن انتهيتُ من الجزء السابع، «برج الظلام».

عندما رجعتُ إلى الجزء الأول، الذي تُمسكه بين يديك الآن، ظهرت أمامي ثلاث حقائق واضحة. الأولى هي أن «الرجل المسلَّح» كَتبه شاب يافع، وأنه يعاني من كل أصناف المشاكل التي يعاني منها كتاب شاب يافع. الحقيقة الثانية هي أنه يحتوي على عدد كبير من الأخطاء والبدايات الخاطئة، بالأخص في ضوء الأجزاء التي تلته.* والحقيقة الثالثة هي أنه حتى لا يشبه الأجزاء اللاحقة - كانت قراءته صعبة بصراحة. غالباً ما كنتُ أجد نفسي مضطراً إلى الاعتذار عن كل ذلك، وإبلاغ الآخرين أنهم إذا ثابَروا، سيجدون القصة قد وجدت نفسها حقاً في «الأبواب الثلاثة».

في نقطة ما من «الرجل المسلَّح»، يُوصَف رولاند كأنه من صنف الرجال الذي سيقوِّم الصور في غرف الفنادق الغريبة. أنا من هذا الصنف شخصياً، وهذا هو هدف كل عمليات إعادة الكتابة تلك إلى حد ما: تقويم الصور، تنظيف الأرضيات، فرك المراحيض. أجريتُ عدداً كبيراً من الأعمال المنزلية خلال عملية التنقيح هذه، وتسنّت لي الفرصة أن أفعل ما يريد أن يفعله أي كاتب برواية منتهية لكنها لا تزال بحاجة إلى صقل نهائي: مجرد *تصحيح المسائل*. فحالما تعرف كيف تنتهي

---

* أحد الأمثلة عن هذا سيكون كافياً على الأرجح. في النص السابق لرواية «الرجل المسلَّح»، فارسن هو إسم بلدة. ثم أصبح بطريقة ما إسم رجل في الأجزاء اللاحقة: المتمرّد جون فارسن الذي يهندس سقوط جلعاد، المدينة الدولة التي أمضى فيها رولاند طفولته.

الأمور، سيكون من حق القارئ المحتمل عليك – ومن حقك على نفسك – أن تعود وتضع الأمور في نصابها. هذا ما حاولتُ أن أفعله هنا، مع الانتباه دائماً إلى أن أي إضافة أو تعديل لا يجب أن يُفشي الأسرار المخفية في الأجزاء الثلاثة الأخيرة للسلسلة، الأسرار التي صبرتُ ثلاثين سنة في بعض الحالات لإبقائها طيّ الكتمان.

قبل أن أختم هذا التمهيد، يجب أن أقول كلمة عن الشاب الذي تجرّأ على كتابة هذا الكتاب. لقد خضع ذلك الشاب لعدد كبير من ندوات التأليف، وأصبح معتاداً جداً على الأفكار التي تروِّجها تلك الندوات: أن المرء يكتب للآخرين وليس لنفسه؛ أن اللغة أهم من القصة؛ أن الإلتباس مفضَّل على الوضوح والبساطة اللذين يُعتبران عادة دلالات على ذهن غليظ وحَرفيّ. بالنتيجة، لم أتفاجأ من إيجاد نسبة عالية من الغرور في الظهور الأول لرولاند (ناهيك عما بدا كأنه آلاف ظروف الحال غير الضرورية). فأزلتُ قدر ما أستطيع من تلك الثرثرة الجوفاء، ولستُ نادماً على أي حذف أجريتُه في ذلك الخصوص. في أماكن أخرى – بالأخص الأقسام الخلاّبة من القصة حيث كنتُ أشعر برغبة قوية بنسيان أفكار ندوات التأليف – كنتُ قادراً على ترك النص وشأنه تقريباً كلياً، ما عدا لبعض المراجعات الاعتيادية التي يحتاج كل كاتب إلى القيام بها. فمثلما أشرتُ في سياق آخر، لا أحد يستطيع أن يُصيب الهدف بشكل مثالي من المرة الأولى.

على أية حال، لم أرغب حقاً أن أغيِّر الطريقة التي تُروى بها هذه القصة؛ فرغم كل عيوبها، أعتبر أن لها سمات خاصة تتميَّز بها. وتغييرها بمقدار كبير سيكون بمثابة إنكار لجهود أول شخص كَتَب عن الرجل المسلَّح في أواخر ربيع وأوائل صيف العام 1970، ولم أكن أريد أن أفعل

ذلك.

ما كنتُ *أريد* فعله – وقبل صدور الأجزاء الأخيرة للسلسلة، إذا أمكن – كان إعطاء القادمين الجدد إلى حكاية البرج (والقراء القدامى الذين يريدون إنعاش ذاكرتهم) بدايةً أوضح ودخولاً أسهل قليلاً إلى عالم رولاند. كما كنتُ أريد إعطاءهم جزءاً يحضّر الأرضية للأحداث القادمة بفعالية أكبر. آمل أن أكون قد نجحتُ في ذلك. وإذا كنتَ أحد الذين لم يزوروا أبداً العالم الغريب الذي يجول فيه رولاند وأصدقاؤه، آمل أن تستمتع بالأعاجيب التي ستجدها هناك. أكثر من أي شيء آخر، أردتُ أن أروي حكاية غرائب. فإذا وجدتَ نفسك تقع في حبّ «برج الظلام»، حتى ولو قليلاً، سأعتبر أنني أنجزت مهمتي، التي بدأت في العام 1970 وانتهت إلى حد كبير في العام 2003. لكن رولاند سيكون أول مَن يشير لك أن هكذا فترة زمنية طويلة لا تعني الكثير أبداً. في الواقع، عندما يسعى المرء وراء «برج الظلام»، سيصبح الوقت بلا أهمية على الإطلاق.

– 6 فبراير 2003

الفصل 1

المسلَّح

I

فرّ الرجل ذو الرداء الأسود عبر الصحراء، ولحقه المسلَّح.

كانت الصحراء أضخم من كل الصحاري الأخرى، وتمتد إلى ما لا نهاية في كل الاتجاهات. كانت بيضاء ومسبِّبة للعمى وقاحلة وخالية من أي ملامح، ما عدا من الخيال الباهت والغائم للجبال التي تتراءى في الأفق والعشب الشيطاني الذي يسبِّب أحلاماً جميلةً، وكوابيس، والموت. تظهر لافتة بين الحين والآخر تشير إلى الاتجاه الصحيح، لأن المسار المنجرِف الذي يشقّ طريقه عبر الطبقة السميكة من الرمال كان طريقاً عاماً فيما مضى. وقد سارت عليه الحافلات والعربات. العالم مضى قدماً منذ ذلك الوقت. أصبح العالم فارغاً.

كان المسلَّح قد أُصيب بدوخة بسيطة جداً، بنوع من الإحساس بالانجراف الذي يجعل العالم بأسره يبدو سريع الزوال، كأنه شيء يمكن النظر من خلاله. زال ذلك الشعور ومضى المسلَّح قدماً، مثل هذا العالم الذي يسير فيه. قطع الأميال بأحاسيس متبلِّدة، بلا تسرّع، بلا تسكّع، وقد علَّق كيس ماء جلديّ حول خصره كأنه نقانق منتفخة. كان ممتلئاً تقريباً. كان قد أحرز تقدماً في الخَفْ (khef) على مدى سنوات عديدة، ووصل إلى المستوى الخامس على الأرجح. لو كان

رجلاً مانياً (manni) مبجّلاً، لما كان قد أحسّ بالعطش حتى؛ ولكان استطاع أن يراقب جسده يعاني من الجفاف بانتباه غير متحيّز، ويروي الشقوق والتجاويف الداخلية الداكنة فقط عندما يُخبره منطقه أن ذلك يجب أن يتم. لكنه لم يكن مانياً، ولا مؤمناً كسائر البشر. كان مجرد زائر عادي، بمعنى آخر، وكل ما يمكنه قوله بيقين حقيقي هو أنه كان عطشاناً. وحتى ذلك، لم تكن لديه رغبة محدَّدة لكي يشرب. كان كل ذلك يُشعره بالسرور بطريقة غامضة. كان ما يتطلّبه البلد، كان بلداً عطشاناً، وما كان يميِّزه في حياته الطويلة أكثر من أي شيء آخر هو أنه قابل للتكيّف.

كان مسدساه موضوعين تحت كيس الماء، وتم تعديل وزنهما بعناية ليناسبا يديه؛ حيث أُضيفت صفيحة إلى كل واحد منهما عندما وصلا إليه من أبيه الذي كان أنحف منه وليس طويلاً إلى هذا الحد. يتقاطع الحزامان فوق منفرج ساقيه. والقِرابان مدهونان بكثير من الزيت لكي لا تتمكن حتى هذه الشمس الحارقة من جعلهما يتشقَّقان. وعَقِبا المسدسين من خشب الصندل، صفراوان ومصقولان. الحزامان مصنوعان من جلد غير مدبوغ يُبقيان القِرابين رخوين عند فخذيه، ويتمايلان قليلاً مع خطواته؛ وقد أزالا بفعل الاحتكاك أزرق سرواله الجينز (ورقَّقا القماش) على هيئة قوسين يبدوان كابتسامتين تقريباً. الأغطية النحاسية للخراطيش الموضوعة في الأحزمة تلمع تحت ضوء الشمس. والجلد يُصدِر صريراً خفيفاً.

كان قميصه، الذي بلا لون بفعل المطر أو الغبار، مفتوحاً عند الرقبة، مع سَيْر من الجلد غير المدبوغ متدلٍّ بشكل غير مُحكم في ثقوب مثقوبة باليد. كانت قبعته قد اختفت. وكذلك البوق الذي كان يحمله

فيما مضى؛ اختفى ذلك البوق منذ سنوات، انسكب من يد صديق مُحتضَر، وهو يفتقد الاثنين معاً.

صعد كثيباً خفيفاً (رغم أنه لا توجد أي رمال هنا؛ كانت الصحراء عبارة عن طبقة صلصالية صلدة، وحتى الرياح القاسية التي تهبّ عندما يحلّ المساء لا ترفع سوى طبقة من الغبار الجاف يبدو كمسحوق كاشط) ورأى البقايا المرفوسة لنار مخيَّم صغيرة جداً عند الجهة المحجوبة عن الرياح، الجهة التي تغيب عنها الشمس أولاً. العلامات الصغيرة مثل هذه التي تؤكِّد مرة أخرى الإنسانية المحتملة للرجل ذي الرداء الأسود تُسعده دائماً. تمدَّدت شفتاه في حنايا وجهه المتجعِّد. كانت الابتسامة شنيعة ومؤلمة. ثم قرفص.

كان الطريد قد حرق العشب الشيطاني، بالطبع. فقد كان الشيء الوحيد هنا الذي يمكن حرقه. وقد احترَق بنور دهني مسطَّح، وببطء. أخبره سكان الحدود أن الشياطين تعيش حتى في اللهب. لذا كانوا يحرقوها لكنهم لا ينظرون إلى النور. قالوا إن الشياطين تنوِّم مغنطيسياً كل شخص ينظر إلى النيران، وتغريه، وتسحبه في نهاية المطاف. وقد يراك الشخص التالي الذي يكون أحمق كفاية لكي ينظر إلى النيران.

كان العشب المحروق متقاطعاً في النمط الذي أصبح مألوفاً الآن، وتفتَّت إلى فراغ رمادي تحت يد المسلَّح. لم يكن هناك شيء في البقايا سوى قطعة متفحِّمة من اللحم المقدَّد، وقد أكَلها بعناية. لطالما جرت الأمور على هذا المنوال. حيث أن المسلَّح بدأ يلاحق الرجل ذا الرداء الأسود في الصحراء منذ شهرين الآن، عبر هذه البقاع المُقفرة اللانهائية والرتيبة إلى حد بعيد، ولم يعثر سوى على الآثار الصحية العقيمة لنيران مخيَّمات الرجل ذي الرداء الأسود. لم يعثر على أي علبة أو زجاجة أو

كيس ماء (ترك المسلَّح أربعة من هذه خلفه، كما لو أنها جلود أفاعي ميتة). لم يعثر على أي براز. لذا افترَض أن الرجل ذا الرداء الأسود كان يطمرها.

ربما كانت نيران المخيَّمات رسالةً مكتوبةً حرفاً واحداً كل مرة. قد تقول *ابق بعيداً يا عزيزي*. أو *النهاية قريبة*. أو ربما حتى، *تعال وأمسك بي*. لا يهمّ ما الذي قالته أو لم تقله. فلم يكن لديه أي اهتمام بالرسائل، لو كانت رسائل. ما يهمّه هو أن تلك البقايا كانت باردة ككل البقايا الأخرى. لكنه كسبَ. فقد عرِف أنه أصبح أقرب، لكنه لم يعرف كيف عرِف. ربما من الرائحة. هذا ليس مهماً أيضاً. سيستمر إلى أن يتغيَّر شيء، وإذا لم يتغيَّر شيء، سيستمر على أي حال. سيكون هناك ماء إن شاء الله ذلك، يقول المحنَّكون. ماء حتى في الصحراء، إذا شاء الله. وَقَف المسلَّح وراح يفرك يديه.

لا يوجد أي أثر آخر؛ فالرياح، القارسة جداً، أزالت بالطبع حتى الآثار الخفيفة التي ربما كانت الطبقة الصلدة تُظهرها في السابق. لا يوجد براز بشري، ولا نفايات مرمية، ولا أي دلالة على مكان طمر تلك الأشياء. لا شيء. فقط تلك النيران الباردة على طول الطريق العام القديم المتوجِّه إلى الجنوب الشرقي ومُقدِّرة المدى الحثيثة في رأسه. رغم أن المسألة كانت أكثر من ذلك بالطبع؛ فالجذب إلى الجنوب الشرقي كان أكثر من مجرد إحساس بالاتجاه، كان حتى أكثر من مغنطيس.

جلَس وسمح لنفسه بأخذ رشفة صغيرة من كيس الماء. تذكَّر تلك الدوخة البسيطة جداً التي شعر بها سابقاً، ذلك الإحساس بأنه غير مربوط بالعالم، وتساءل ما قد يكون معنى ذلك. لماذا يجب أن تجعله تلك الدوخة يفكِّر ببوقه وبآخر أصدقائه القدامى، اللذين فقدهما منذ

زمن طويل على تلة أريحا؟ لا يزال يملك المسدسين - مسدسَي والده - وهما بالتأكيد أهمّ من الأبواق... أو حتى الأصدقاء.

أليسا كذلك؟

كان السؤال مُقلقاً بشكل غريب، لكن بما أنه لا يبدو أن هناك جواباً ما عدا الجواب الواضح، تغاضى عنه، ربما ليدرسه لاحقاً. تفحّص الصحراء ثم رفع نظره إلى الشمس، التي كانت تنزلق الآن إلى رُبع دائرة بعيد في السماء لم يكن، بشكل مزعج، الغرب الحقيقي فعلاً. نهض، ونزع قفازاته الرثّة من حزامه، وبدأ يُخرج عشباً شيطانياً لكي يُشعل ناراً خاصة به، فوضعه فوق الرماد الذي تركه الرجل ذو الرداء الأسود. وجَد السخرية، مثل عطشه، جذّابة بمرارة.

لم يُخرج حجر الصوّان والفولاذ من حقيبته إلى أن أصبحت بقايا اليوم عبارة عن حرارة هاربة من الأرض تحته وخط برتقالي تهكمي في الأفق الأحادي الألوان. جلَس شاهراً مسدسه في حُضنه ومراقباً الجنوب الشرقي بصبر، ناظراً نحو الجبال، دون أن يأمل برؤية الخط المستقيم الرفيع لدخان نار مخيَّم جديد، ودون أن يتوقع رؤية شرارة لهب برتقالية، لكنه راح يراقب على أي حال لأن المراقبة كانت جزءاً منه، وتُشعره ببعض الرضى. *لن ترى ما لا تبحث عنه، أيها التافه*، كان كورت سيقول.

لكن لم يكن هناك شيء. كان قريباً، لكن نسبياً فقط. لم يكن قريباً كفاية ليرى الدخان عند الغسق، أو الأثر البرتقالي لنار مخيَّم.

وضع حجر الصوّان على القضيب الفولاذي وضرب شرارته على العشب الجاف الممزَّق، متمتماً الكلمات الهراء القديمة والفعّالة أثناء

فعله ذلك: "أشعِل الظلمة، أين مَولاي؟ هل سأضعني؟ هل سأمكثني؟ بارِك هذا المخيَّم بالنار". كان غريباً كيف أن بعض كلمات وأساليب الطفولة تسقط على جانب الطريق وتُنسى، بينما البعض الآخر تثبُت وتبقى حيّة لمدى الحياة، ويزداد ثقلها مع مرور الوقت.

استلقى عكس اتجاه الرياح قرب شعار نبالته الصغير، تاركاً دخان الحلم يتطاير نحو القفر. كانت الرياح، ما عدا الغبار الشيطاني العَرَضيّ اللولبي، ثابتة.

في الأعلى، كانت النجوم غير وامضة، ثابتة أيضاً. شموس وعوالم بالملايين. كوكبات مذهلة، نيران باردة في كل تدرّج ألوان رئيسي. بينما كان يراقب، انتقلت السماء من البنفسجي إلى الأسود. وحفَرَ نيزكٌ قوساً قصيراً مذهلاً تحت "الأم العجوز" واختفى. ألقت النار ظلالاً غريبةً بينما كان العشب الشيطاني يحترق ببطء في أنماط جديدة – ليس رسوماً فكريةً بل تقاطع بسيط ومخيف قليلاً في يقينه المباشر. كان قد وضع وقوده في نمط لم يكن ماكراً بل عملياً فقط. نمط يتكلَّم عن السود والبِيض. نمط يتكلَّم عن رجل قد يقوِّم الصور المائلة في غرف الفنادق الغريبة. كانت النار تحرق لهبها الهادئ والبطيء، والأشباح ترقص في جوهرها المتوهج. لم ير المسلَّح. كان النمطان، الفن والحِرفة، ملتحمَين معاً بينما نام. كانت الريح تئنّ، وبين الحين والآخر يتسبَّب تيار هوائي هابط بجعل الدخان يدور في دوّامة ويتّجه نحوه ويتنفَس بعضه. كان يُراكم أحلاماً بنفس الطريقة التي قد يُراكم بها إزعاجٌ صغيرٌ لؤلؤةً في محارةٍ. راح المسلَّح يئنّ مع الرياح من وقت لآخر. كانت النجوم غير مكترثة بهذا بقدر ما كانت غير مكترثة بالحروب والقتل والدمار. هذا أيضاً كان سيُسعده.

II

نزل عن آخر التلال السفحيّة وهو يقود البغل، الذي كانت عيناه ميتتين من قبل وقد انتفخ من الحرارة. كان قد مرّ بآخر بلدة منذ ثلاثة أسابيع، ولم يلتق منذ ذلك الوقت سوى بآثار الحافلة المهجورة وبالحَشد العَرَضيّ لمنازل سكان الحدود المبنية من المَدَرة. وقد انحلّت الحشود إلى منازل فردية، معظمها يسكنه مُصابون بالجُذام أو أشخاص مجانين. وجَد أن صحبة المجانين أفضل. فقد أعطاه أحدهم بوصلة سيلفا من الفولاذ الذي لا يصدأ وأمره أن يعطيها إلى الجنيّ. وقد تعامل المسلَّح مع المسألة بكل جدّية. فإذا رآه، سيسلِّمه البوصلة. لم يتوقع أن يراه، لكن كل شيء ممكن. رأى تاهياً في إحدى المرات – كان ذلك التاهين عبارة عن رجل برأس غُداف – لكن ذلك الشيء المريب فرّ، ناعقاً ما قد يكون كلمات. وحتى ما قد يكون لعنات.

مرّت خمسة أيام منذ الكوخ الأخير، وقد بدأ يشتبه بعدم وجود المزيد منها عندما اعتلى آخر تلة متآكلة ورأى السقف المنخفض المألوف المبني من المَدَرة.

كان الساكن، وهو شاب يافع إلى حد مدهش ذو شعر أحمر داكن يصل إلى خصره تقريباً، يشحِّل مجموعة هزيلة من نبتات الذرة بلا حماسة. أصدر البغل حشرجةً فرفع الساكن عينيه الزرقاوين الساطعتين نحو المسلَّح في لحظة. كان الساكن أعزل، من دون حتى أي سهم يستطيع المسلَّح رؤيته. رفع يديه في تحية مقتضبة للغريب ثم انحنى على الذرة مرة أخرى، وحمل الصف الذي بجانب كوخه بظهر متقوِّس، وقذف العشب الشيطاني ونبتة ذرة واهنة عَرَضيّة فوق كتفه. تخبَّط شعره

وطار في الرياح التي هبّت من الصحراء مباشرة، مع عدم وجود أي شيء يخفّف سرعتها.

نزل المسلَّح التلة ببطء، وهو يقود الحمار الذي تتلاطم عليه قِرَب الماء. توقف عند حافة حوض الذرة الذي يبدو بلا حياة، وأخذ رشفة من إحدى قِرَبه ليحفّز اللعاب في فمه، وبصَق في التربة القاحلة.

"الحياة لمحصولك".

"الحياة لك"، ردَّ الساكن ووَقَف. فأصدر ظهره صوت طقطقة واضحاً. تفحّص المسلَّح من دون خوف. بدا الجزء الصغير من وجهه المرئي بين اللحية والشعر غير مُصاب بالعفن، وبدت عيناه عاقلتين رغم أنهما متوحشتان قليلاً. "أيام طويلة وليالي لطيفة، أيها الغريب".

"وأتمنى لك ضعف عددها".

"غير محتمل"، ردَّ الساكن، وضحك ضحكة مقتضبة. "ليس لديَّ سوى ذرة وحبوب"، قال. "الذرة مجانية، لكن عليك أن تساهم بشيء لأجل الحبوب. فهناك رجل يُحضِرها بين الحين والآخر. وهو لا يبقى طويلاً". وضحكَ الساكن لفترة قصيرة. "يخاف من الأرواح. ويخاف من رجل الطيور أيضاً".

"لقد رأيتُه. أقصد رجل الطيور. وقد فرّ مني".

"صح، لقد ضلّ طريقه. ويدّعي أنه يبحث عن مكان يدعى ألغول سيانتو، ويسمّيه أحياناً فقط الملاذ الأزرق أو السماوات، لا يمكنني أن أحدِّد أيهما. هل سمعت به؟".

هزّ المسلَّح رأسه.

"حسناً... هو غير نافع لشيء، لذا اللعنة عليه. هل هو حيّ أم ميت؟".

"حيّ"، قال المسلَّح. "تتكلَّم مثل المانيين".

"كنتُ معهم لفترة قصيرة، لكن لم تعجبني تلك الحياة؛ ودودون جداً، ويبحثون دائماً عن فجوات في العالم".

كان هذا صحيحاً، فكَّر المسلَّح. فقد كان المانيون مسافرين عظيمين.

بقيا ينظران إلى بعضهما البعض بصمت للحظات، ثم مدَّ الساكن يده. "إسمي براون".

صافحه المسلَّح وأعطاه إسمه. أثناء فعله ذلك، نعقَ غُداف هزيل عن القمة المنخفضة للسقف المبني من المَدَرة. فأومأ الساكن نحوه وقال: "هذا زولتان".

عند سماعه إسمه، نعق الغُداف مرة أخرى وطار إلى براون. حطَّ على رأس الساكن وجثَم عليه، ولفّ مخالبه بإحكام في شعره.

"تباً لك"، نعق زولتان بصوتٍ عالٍ. "تباً لك وللحصان الذي امتطيته".

أومأ المسلَّح برأسه بلطف.

"الحبوب، الحبوب، الفاكهة الموسيقية"، قال الغُداف مُلهَماً. "كلما أكلت أكثر، كلما صفَّرت أكثر".

"هل تعلِّمه هذا؟".

"أظن أن هذا كل ما يريد أن يتعلّمه"، قال براون. "حاوَلت

تعليمه الصلاة مرةً". سافرت عيناه إلى خارج الكوخ للحظات، نحو الطبقة الصلدة الرملية الرتيبة. "أظن أن هذا البلد ليس بلد صلاة. أنت مسلَّح. أليس كذلك؟".

"نعم". ثم قرفص وأخرَجَ ورق سجائره. انطلق زولتان عن رأس براون وحطَّ على كتف المسلَّح.

"اعتقدتُ أن صنفك اختفى".

"إذاً فأنت ترى بشكل مختلف، أليس كذلك؟".

"هل أتيت من العالم الداخلي؟".

"منذ زمن طويل"، أجاب المسلَّح موافقاً.

"هل بقي أي شيء هناك؟".

لم يردّ المسلَّح على هذا السؤال، لكن وجهه اقترح أنه من الأفضل عدم الخوض في هذا الموضوع.

"أظن أنك تلاحق الآخر".

"نعم". وتبعه السؤال المحتوم: "منذ متى مرَّ؟".

هزّ براون كتفيه. "لا أعرف. الوقت مضحك هنا. المسافة والاتجاه، أيضاً. أكثر من أسبوعين. أقل من شهرين. جاء رجل الحبوب مرتين منذ أن مرَّ. أظن ستة أسابيع. هذا خطأ على الأرجح".

"كلما أكلت أكثر، كلما صفَّرت أكثر"، قال زولتان.

"هل مكث؟"، سأل المسلَّح.

أومأ براون برأسه. "بقي على العشاء، مثلك أنت، أظن. ومضى الوقت".

وَقَف المسلَّح وطار الطير عائداً إلى السقف، وهو يزعق. شعَر بلهفة مرتعشة غريبة. "عما تكلَّم؟".

رفع براون حاجب عينه وهو ينظر إليه. "ليس الكثير. هل أمطرت ومتى جئتُ إلى هنا وهل دفنتُ زوجتي. سألني إن كانت من شعب الماني وقلتُ صح، لأنه بدا لي أنه يعرف مسبقاً. أنا مَن تكلَّم معظم الوقت، وهذا ليس اعتيادياً". ثم صمت لبرهة، وكان الصوت الوحيد هو صوت الرياح الشديدة. "إنه مشعوذ، أليس كذلك؟".

"من بين أشياء أخرى".

أومأ براون برأسه ببطء. "عرفتُ ذلك. لقد أسقط أرنباً من كُمّه، منزوعة أحشاؤه وجاهزاً للطبخ. هل أنت؟".

"مشعوذ؟"، وضحك. "أنا مجرد رجل".

"لن تقبض عليه أبداً".

"سأقبض عليه".

نظرا إلى بعضهما البعض، وساد شعور عميق مفاجئ بينهما، الساكن على أرضه المغبّرة الجافة، والمسلَّح على الطبقة الصلدة التي انحدر منها إلى الصحراء. مدَّ يده إلى حجره الصوّان.

"خذ". أعطاه براون عود ثقاب على رأسه بعض الكبريت وضربه بظفر وسخ. دفعَ المسلَّح طرف سيجارته في اللهب وأخذ مجّة.

"شكراً".

"ستريد أن تملأ قِرَبك"، قال الساكن وهو يستدير. "النبع تحت المزراب في الخلف. سأبدأ بإعداد العشاء".

خطا المسلَّح فوق صفوف الذرة بحذر شديد والتفّ حول الجهة الخلفية. كان النبع في أسفل بئر محفور يدوياً ومرصوف بأحجار لمنع التربة الهشّة من الانهيار. عند نزوله السُلَّم المتخلِّع، فكَّر المسلَّح أن الأحجار لا بدّ وأن تكون قد تطلّبت عمل سنتين بسهولة – الجرّ، السحب، الرصف. كانت المياه نقية لكن بطيئة، وتعبئة القِرَب تأخذ وقتاً طويلاً. بينما كان يملأ القِربة الثانية، جثم زولتان على حافة البئر.

"تباً لك وللحصان الذي امتطيته"، قال ناصحاً.

رفع المسلَّح نظره جافلاً. كان عمق البئر حوالي خمسة أمتار: وهذا سهل كفاية لكي يرمي براون صخرة عليه، ويهشِّم رأسه، ويسرق كل شيء معه. أي شخص مجنون أو حقير لن يفعل ذلك؛ لم يكن براون أياً من هذين الصنفين. ومع ذلك كان براون يروق له، لذا طرد الفكرة من ذهنه وواصل تعبئة قِرَبه.

عندما عَبَر باب الكوخ ونزَل الدَرَجات (كانت أرضية التخشيبة تحت مستوى الأرض، مصمَّمة لالتقاط برودة الليالي والحفاظ عليها)، كان براون يحشر أكواز ذرة في جمرات نار صغيرة جداً بواسطة مِلوَق خشبي بدائي. وكان قد وضع طبقين متعرّجين عند الطرفين المتقابلين لبطانية قاتمة. كان ماء الحبوب قد بدأ يغلي في وعاء معلَّق فوق النار.

"سأدفع ثمن الماء أيضاً".

لم يرفع براون نظره. "الماء هدية من الله، حسبما أظن أنك تعرف. والبابا دوك يُحضِر الحبوب".

نخَر المسلَّح ضحكةً وجلس مديراً ظهره لجدار خشن، وشبكَ ذراعيه، وأغمض عينيه. بعد لحظات، عبقت رائحة الذرة المشوية في

أنفه. وسمع خشخشة حصى عندما ألقى براون بعض الحبوب الجافة في الوعاء. كما سمع صوت نقر بين الحين والآخر بينما كان زولتان يسير بلا هوادة على السقف. كان مُتعَباً؛ فقد كان يسير لست عشرة ساعة وأحياناً لثماني عشرة ساعة في اليوم بين هنا وبين الرعب الذي حدث في القرية الأخيرة تَلّ. وبقي يسير على قدميه طوال الأيام الاثني عشر الأخيرة؛ كان البغل قد وصل إلى رمقه الأخير، وبقي حياً فقط لأنها مجرد عادة. كان قد تعرَّف في أحد الأيام على فتى يدعى شيمي يملك بغلاً. توفي شيمي الآن؛ الجميع توفّوا الآن، ولم يبق سوى كلاهما فقط: هو والرجل ذو الرداء الأسود. سمع إشاعات عن أراضٍ أخرى ما بعد هنا، أراضٍ خضراء في مكان يدعى العالم الوسطي، لكن كان من الصعب تصديقها. هنا، بدت الأراضي الخضراء مثل خيال طفل خصب.

صوت نقر.

أسبوعان، قال براون، أو حتى ستة. لا يهمّ. كانت هناك تقاويم في تَلّ، وقد تذكّروا الرجل ذا الرداء الأسود بسبب العجوز الذي داواه على طريقه. كان مجرد عجوز يُحتضَر من التبغ. عجوز في الخامسة والثلاثين من عمره. وإذا كان براون على حق، فقد اقترب مسافة كبيرة من الرجل ذي الرداء الأسود منذ ذلك الوقت. لكن الصحراء كانت المحطة التالية. والصحراء ستكون جحيماً.

صوت نقر...

أعرني جناحيك أيها الطير. وسأبسطهما وأطير على تيارات الهواء الدافئ الصاعد.

ونام.

III

أيقظه براون بعد ساعة. كان قد حلّ الظلام. وكان الضوء الوحيد هو الوهج الكرزيّ المملّ للجمرات.

"لقد نفق بغلك"، قال براون. "يؤسفني هذا. العشاء جاهز".

"كيف؟".

هزّ براون كتفيه. "مشوي ومسلوق، وإلا كيف؟ هل أنت شخص صعب الإرضاء؟".

"لا، البغل".

"استلقى بكل بساطة. بدا بغلاً هرِماً". ثم قال بنبرة اعتذار: "زولتان والعينين".

"آه". ربما كان قد توقَّع ذلك. "حسناً".

فاجأه براون مرة أخرى عندما جلسا إلى البطانية التي كانت تخدم كطاولة بطلبه بعض النِعم: المطر، الصحة، توسّع الروح.

"هل هذا كل شيء؟"، سأله المسلَّح بينما كان براون يضع ثلاثة أكواز ذرة ساخنة في طبقه.

أومأ براون برأسه. "أعتقد ذلك".

IV

كانت الحبوب مثل الرصاص، والذرة قاسية. في الخارج، كانت الرياح السائدة تعصف وتنتحب حول المزراب الذي عند مستوى

الأرض. أكل المسلَّح بسرعة، بشراهة، وشرب أربعة أكواب ماء مع الطعام. في منتصف تناول الطعام، سُمع طَرْق رشاش على الباب. نهض براون وسمح لزولتان بالدخول. طار الطير في الغرفة وحدَّب ظهره باكتئاب في الزاوية.

"فاكهة موسيقية"، تمتم.

"هل فكّرت في أكله يوماً؟"، سأله المسلَّح.

ضحكَ الساكن. "الحيوانات التي تتكلَّم تكون صعبة"، قال.

"الطيور، المتلعثمات، البشر. سيكون من الصعب أكلهم".

بعد العشاء، عرض المسلَّح بعض التبغ، وقبِلها براون بتلهّف.

الآن، فكّر المسلَّح في سرّه. *الآن ستأتي الأسئلة*.

لكن براون لم يطرح أي أسئلة. بل راح يدخِّن التبغ الذي زُرع في غارلان قبل سنوات وينظر إلى جمرات النار المُحتضَرة. كان الجو في التخشيبة أبرد بشكل ملحوظ من السابق.

"لا تقودنا إلى الرغبة"، قال زولتان فجأة، بنبرة رؤيوية.

بدا المسلَّح كما لو أنه أُطلق النار عليه. أصبح متأكداً فجأة أن كل هذا وهمٌ، أن الرجل ذا الرداء الأسود ألقى تعويذة عليه وكان يحاول إبلاغه شيئاً بطريقة رمزية بلهاء إلى حد الجنون.

"هل تعرف تَلّ؟"، سأله فجأة.

أومأ براون برأسه. "عبرتُها للوصول إلى هنا، وعدتُ إليها مرةً لأبيع الذرة وأشرب كوب شراب. أمطرت تلك السنة. واستمرّ ذلك لحوالي خمس عشرة دقيقة. بدا كما لو أن الأرض انشقّت وامتصّته. فقد

عادت بعد ساعة بيضاء وجافة كالسابق بالضبط. لكن الذرة - يا إلهي، الذرة. يمكنك رؤيتها تنمو. لم يكن ذلك سيئاً للغاية. لكن يمكنك *سماعها*، كما لو أن المطر أعطاها فماً. لم يكن صوتاً سعيداً. بدت أنها تتنهَّد وتتأوه في طريق خروجها من الأرض". ثم صمت لبرهة. "كان لديَّ بعض الفائض، لذا أخذتُه وبعته. قال البابا دوك إنه سيفعل ذلك، لكنه كان ليغشّني. لذا ذهَبتُ بنفسي".

"لا تحبّ البلدة؟".

"لا".

"كدتُ أُقتل هناك"، قال المسلَّح.

"هل تقول ذلك؟".

"أنا أؤكّد وأضمن ذلك. وقتَلتُ رجلاً لمسته روحٌ"، قال المسلَّح. "لكنها لم تكن روحاً. كان الرجل الذي أخرج أرنباً من كُمّه. الرجل ذو الرداء الأسود".

"نصب لك فخاً".

"أنت تقول الحق، وأنا أقول لك شكراً".

نظرا إلى بعضهما البعض في الظلال، ووصلت اللحظة إلى بعض درجات النهائية.

الآن *ستأتي الأسئلة*.

لكن براون كان لا يزال لا يملك أسئلة لكي يطرحها. كانت سيجارته قد أصبحت مجرد عقبٍ يُصدر دخاناً، لكن عندما خبط المسلَّح كيس تبغه، هزّ براون رأسه.

تحرّك زولتان باضطراب، وبدا على وشك أن يتكلّم، ثم هَمَد.

"هل سأخبرك عنه؟"، سأل المسلَّح. "لستُ ثرثاراً عادة، لكن...".

"التكلم يفيد أحياناً. سأستمع إليك".

بحث المسلَّح عن كلمات ليبدأ بها لكنه لم يعثر على أي كلمة. "عليَّ أن أبوِّل"، قال.

أومأ براون برأسه. "بوِّل على الذرة، رجاءً".

"بالتأكيد".

صعد الدرجات وخرج إلى الظلمة. كانت النجوم تتلألأ فوقه. والرياح تهبّ. تساقط بوله على حقل الذرة الهشّ في دفق متمايل. لقد جذبه الرجل ذو الرداء الأسود إلى هنا. لم يكن مستبعداً أن يكون براون هو الرجل ذو الرداء الأسود. قد يكون...

طرد المسلَّح تلك الأفكار المزعجة والعديمة الجدوى من ذهنه. الطارئ المحتمل الوحيد الذي لم يتعلَّم كيف يتحمّله كان احتمال جنونه. عاد إلى الداخل.

"هل قرَّرت إن كنتُ عنصر بهجة بعد؟"، سأله براون، مستمتعاً.

توقف المسلَّح على السلالم الصغيرة جداً، جافلاً. ثم واصل نزوله ببطء وجلس. "خطرت الفكرة على بالي. هل أنت؟".

"إذا كنتُ، فأنا لا أعرف ذلك".

لم يكن هذا جواباً مفيداً جداً، لكن المسلَّح قرّر عدم التوقف عنده. "كنتُ قد بدأتُ إخبارك عن تَلّ".

"هل تنمو وتزدهر؟".

"إنها ميتة"، قال المسلَّح. "لقد قتَلتُها". وفكّر أن يضيف: *والآن سأقتلك، حتى ولو لم يكن هناك أي سبب آخر سوى عدم رغبتي بالنوم مع إبقاء إحدى عينيّ مفتوحتين.* لكن هل أصبح سلوكه بهذا الشكل؟ إذا كان الأمر كذلك، لماذا يزعج نفسه بمواصلة الطريق؟ لماذا، إذا أصبح ما كان يلاحقه؟

قال براون، "لا أريد أي شيء منك أيها المسلَّح سوى أن أكون لا أزال هنا عندما ترحل. لن أتوسّل للحفاظ على حياتي، لكن هذا لا يعني أنني لا أريدها أن تدوم لبرهة أطول".

أغمض المسلَّح عينيه. وراح ذهنه يدور.

"أخبرني ما أنت"، قال بصوت أجشّ.

"مجرد رجل. واحد لا يضمر لك أي شر. ولا زلتُ مستعداً أن أستمع إليك إذا كنت مستعداً أن تتكلَّم".

لم يردّ المسلَّح على هذا التعليق.

"أظن أنك لن تشعر بالرغبة بالكلام إلا إذا دعوتك إلى ذلك"، قال براون، "ولذا سأفعل ذلك. هلاّ تخبرني عن تَلّ".

تفاجأ المسلَّح أن الكلمات كانت حاضرة في ذهنه هذه المرة. بدأ يتكلم على دفعات تحوّلت ببطء إلى سرد هادئ ومحايد قليلاً. وجَد نفسه متحمِّساً بشكل غريب. تكلَّم عميقاً في الليل. لم يقاطعه براون أبداً. وكذلك الطير.

V

كان قد اشترى البغل في برايستاون، وكان لا يزال نشيطاً عندما وَصَل إلى تَلّ. كانت الشمس قد غابت منذ ساعة، لكن المسلَّح تابَع سفره مسترشداً بتوهّج البلدة في السماء، ثم مسترشداً بالأنغام الواضحة لبيانو هونكي تونك يعزف "مهلاً جُود". أصبحت الطريق أعرض مع انضمام بعض الروافد إليها. كانت توجد مصابيح عليا هنا وهناك، كلها منطفئة منذ زمن طويل.

كانت الغابات قد اختفت الآن، وحلت محلها البراري المسطَّحة الرتيبة: حقول مُقفرة لا تنتهي بدل أعشاب التيموثي والشجيرات المنخفضة؛ مناطق مهجورة مُوحِشة تحرسها قصور مظلّلة مكتئبة تسير فيها عفاريت؛ أكواخ فارغة إما انتقَل منها الناس أو نُقلوا منها؛ وتخشيبة عَرَضيّة يكشفها اهتزاز ضوءٍ في الليل، أو أفراد عشائر داخلية الاستيلاد يكدحون بصمت وتجهّم في الحقول خلال النهار. كانت الذرة هي المحصول الرئيسي، لكن كانت هناك حبوب وبعض نبتات الفتلاق أيضاً. وكانت تحدِّق فيه بين الحين والآخر بقرة هزيلة ببلادة بين أشجار نغت مقشَّرة. كانت تمرّ به الحافلات أربع مرات في اليوم، مرتين ذهاباً ومرتين إياباً، فارغة تقريباً وهي تقترب منه من الخلف وتتخطاه وبغله، وممتلئة أكثر عند عودتها نحو غابات الشمال. ويمرّ به مُزارع بين الحين والآخر رافعاً قدميه على مصدّ الوحول في حنطوره، ومنتبهاً إلى عدم النظر إلى الرجل ذي المسدسات.

كان بلداً بشعاً. وقد أمطرت مرتين منذ أن غادر برايستاون، على مضض في المرتين. حتى أعشاب التيموثي بدت صفراء وكئيبة. بلد

تتخطّاه ولا تقيم فيه. لم ير أي دلالة للرجل ذي الرداء الأسود. ربما استقلّ حافلةً.

ظهر منعطف في الطريق، فنَهَر المسلَّح البغل ليتوقف ونظر إلى تَلّ في الأسفل. كانت عند قعر تجويف دائري على شكل وعاء، جوهرة رديئة الصنع في حلية رخيصة. كان هناك عدد من الأضواء، معظمها محصور حول منطقة الموسيقى. وبدا أن هناك أربعة شوارع، ثلاثة تمتدّ عند زوايا قائمة مع طريق الحافلات، الذي كان الممر الرئيسي للبلدة. ربما سيكون هناك مقهى. شكَّ بذلك، لكن ربما. نَهَر البغل.

ازداد عدد المنازل المشتّتة على الطريق، ومعظمها لا يزال مهجوراً. مرَّ بمقبرة صغيرة فيها ألواح خشبية مائلة ومتعفنة خنقها العشب الشيطاني. بعد حوالي مئة وخمسين متراً مرَّ بلافتة مهترئة تقول: تَلّ.

كان الطلاء متقشّراً إلى حدّ عدم إمكانية قراءة اللافتة تقريباً. مرَّ بلافتة أخرى لاحقاً، لكنه لم يكن قادراً على قراءتها أيضاً.

كانت جوقة أصوات ثملة ترتفع بالكلمات المطوَّلة الأخيرة لأغنية "مهلاً جُود" - "نـا-نـا-نـا نا-نا-نا-نا... مهلاً، جُود..." - بينما كان يدخل البلدة. كانت أصواتاً ميتةً، مثل الرياح في تجويف شجرة متعفِّنة. فقط الدويّ الركيك لبيانو الهونكي تونك أراحه من التساؤل جدياً إن كان الرجل ذو الرداء الأسود قد ربّى أشباحاً لكي تقطن بلدة مهجورة. ابتسم قليلاً من هذه الفكرة.

كان هناك أشخاص في الشوارع، لكنهم قلّة. مرَّت ثلاث سيدات يرتدين سراويل فضفاضة سوداء وبلوزات متماثلة عالية الياقة على الممشى الخشبي المقابل، دون أن ينظرن إليه بحشرية واضحة. بدت

وجوههن عائمةً فوق أجسادهن غير المرئية تماماً مثل كُرات شاحبة لها عيون. وراح عجوز وقور يرتدي قبعة قش يراقبه من سلالم متجر تجاري مكسوة نوافذه بألواح خشبية. وتوقف خيّاط هزيل عن عمله مع زبون متأخر ليراقبه يمرّ؛ ورفَع المصباح في نافذته ليلقي نظرة أفضل. فأومأ المسلَّح برأسه. لكن لا الخيّاط ولا زبونه أومأا برأسيهما له. كان يمكنه الشعور بعينيهما تركّزان بقوة على القِرابين المعلّقين على علو منخفض عند وركَيه. وعَبَرَ فتى صغير، ربما في الثالثة عشرة من عمره، وفتاة ربما كانت أخته أو حبيبته، الشارع على مسافة أمامه، وتوقفا بشكل غير ملحوظ. تسبَّب وقع قدميهما بتطاير سُحُب صغيرة من الغبار. معظم مصابيح الشارع هنا في البلدة تعمل، لكنها ليست كهربائية؛ بل كانت جوانبها غائمة بزيوت متخثِّرة. بعضها كان محطماً. وكان هناك حصان محبوس على وجهه نظرة انتظار يائسة، على الأرجح أنه يعتمد على خط الحافلات لكي يبقى على قيد الحياة. كان ثلاثة فتيان يربضون بصمت حول حلقة بِلْيات مرسومة في التراب عند أحد أطراف الحظيرة يدخّنون سجائر من قشور الذرة. كانوا يلقون ظلالاً طويلةً في الفناء. وقد علَّق أحدهم ذيل عقرب بشريط قبعته. وكانت العين اليسرى لآخر منتفخةً ومنغلقةً بالكامل.

قاد المسلَّح بغله متخطياً مكان جلوسهم ونظر إلى الداخل المظلم للحظيرة. كان هناك مصباح واحد يتوهَّج بشكل غائر. وراح ظلّ يقفز ويترجرج بينما كان عجوز فارع الطول يرتدي مئزراً يدفع قش عشبة التيموثي إلى مخزن التبن بواسطة شوكة كبيرة.

مكتبة

"مرحباً!"، نادى المسلَّح.

ترنّحت الشوكة ونظر السائس حوله بعينين صفراوين. "مرحباً

لك!".

"لديَّ بغل هنا".

"مبروك".

نقفَ المسلَّح قطعة ذهبية ثقيلة مسكوكة بشكل غير متساوٍ في شبه الظلام. رنَّت على الألواح القديمة المغطاة بالقشور ولمعت.

اقترب السائس، وانحنى، ورفعها، ونظر إلى المسلَّح شزراً. ونزلت عيناه إلى حزام المسدسات وأومأ برأسه بحدّة. "لكم من الوقت تريد تركه هنا؟".

"ليلة أو ليلتان. ربما أطول".

"ليست لديَّ أي فكّة للذهب".

"لم أطلب أي فكّة".

"مال مبارزة"، تمتم السائس.

"ماذا قلت؟".

"لا شيء". أمسك السائس لجام البغل وقاده إلى الداخل.

"دلِّكه!"، نادى المسلَّح. "أتوقع أن أشمّها عليه عندما أعود، مفهوم!".

لم يستدر العجوز. وخرج المسلَّح إلى الفتيان الرابضين حول حلقة البِلْيات. كانوا يراقبون كل الحديث بازدراء.

"أيام طويلة وليالي لطيفة"، قال المسلَّح محاولاً بدء حديث معهم.

لا جواب.

"هل تعيشون في البلدة؟".

لا جواب، إلا إذا كان صاحب ذيل العقرب قد أعطى واحداً: فقد بدا أنه أومأ برأسه.

أخرَج أحد الفتيان قشرة ذرة مفتولة بجنون من فمه، وأمسك بِلْية عين قطة خضراء، وقذفها نحو الدائرة الترابية. فأصابت بِلية أخرى ودفعتها خارجاً. التقط عين القطة واستعدّ ليقذفها من جديد.

"هل هناك مقهى في هذه البلدة؟"، سأل المسلَّح.

رفع أحدهم نظره، الأصغر سناً. كانت هناك حبّة متقرّحة ضخمة عند زاوية فمه، لكن عينيه كانتا بالحجم نفسه، ومليئتين ببراءة لن تدوم طويلاً في هذا المكان القذر. نَظَر إلى المسلَّح بتعجّب كبير كان مؤثراً ومخيفاً في آن.

"يمكنك تناول همبرغر في مطعم شِب".

"حيث يوجد الهونكي تونك؟".

أومأ الفتى برأسه. "صح". أصبحت عيون رفاقه عدائية. سيدفع على الأرجح ثمن تكلّمه بلطف.

لمس المسلَّح حافة قبعته. "ممنون. من الجيد معرفة أن شخصاً في هذه البلدة ذكي كفاية لكي يتكلَّم".

تخطّاهم، وصعِد الممشى الخشبي، وتوجَّه نحو مطعم شِب، سامعاً الصوت الواضح والمزدرٍ لأحد الأشخاص، بالكاد كان أكثر من صوت طفولي: "آكل التبغ! منذ كم من الوقت لا تزال تؤذي أختك، تشارلي؟ آكل التبغ!". ثم صوت انفجار وبكاء.

كانت هناك ثلاثة مصابيح كاز مشتعلة أمام مطعم شِب، واحد على كل جهة وواحد معلّق فوق باب شبيه بجناحَي الوطواط. كانت جوقة "مهلاً جُود" قد تلاشت، والبيانو يدندن أغنية شعبية قديمة أخرى، والأصوات تهمس مثل خيوط مقطوعة. توقف المسلَّح في الخارج للحظات، ونظر إلى الداخل. الأرضية مليئة بنشارة الخشب، وهناك مباصق بجانب طاولات ذات أرجل مترنّحة، ومشرب خشبي على أحصنة نشر. هناك مرآة دبقة خلفه، تعكس صورة عازف البيانو، الذي تحدَّب على كرسي البيانو الذي ليس له ظهر أو ذراعان. كانت واجهة البيانو قد أُزيلت لكي يمكن رؤية المفاتيح الخشبية وهي ترتفع وتنخفض أثناء العزف. كان الساقي عبارة عن امرأة شعرها بلون القش وترتدي فستاناً أزرق وسخاً أحد رباطيه معقود بدبوس أمان. كان هناك حوالي ستة من أبناء البلدة في الجهة الخلفية للغرفة يشربون ويلعبون "راقبني" بلا مبالاة، وكذلك ستة آخرون تجمَّعوا حول البيانو. وأربعة أو خمسة عند المشرب. وعجوز ذو شعر رمادي مُغمى عليه عند طاولة بجانب الباب. دخَل المسلَّح.

استدارت الرؤوس لتنظر إليه وإلى مسدسيه. مرّت لحظات من الصمت المُطبق، ما عدا لعازف البيانو الغافل عما يجري حوله، والذي تابَع يعزف. ثم مسحت المرأة المشرب، وعاد الوضع إلى طبيعته.

"راقبني"، قال أحد اللاعبين الجالسين في الزاوية وطابَق ثلاثة أوراق كوبة بأربعة أوراق بستوني، مفرِّغاً يده. بدأ الشخص الحامل أوراق الكوبة يشتم، ورمى نقوده، وتم توزيع الجولة التالية من أوراق اللعب.

اقترب المسلَّح من المرأة عند المشرب. "هل لديك بعض اللحم؟"، سألها.

"بالتأكيد". نظرت إلى عينيه مباشرة، وربما كانت جميلة في شبابها، لكن الحياة استمرّت منذ ذلك الوقت. كان وجهها كثير الكتل الآن وهناك ندبة شاحبة للغاية على جبهتها. كانت قد وضعت الكثير من الماكياج عليها، لكن ذلك لفت الانتباه أكثر إلى ما كان عليه أن يُخفيه. "لحم بقر نظيف. ماشية طبيعية. لكنه غالي الثمن".

ماشية طبيعية، كما لو أنني سأصدّق هذا، فكّر المسلَّح في سرّه. *ما لديك في البرّاد جاء من شيء لديه ثلاث عيون أو ست أرجل، أو الاثنين معاً – هذا ما أعتقده يا سيدتي.*

"أريد ثلاثة همبرغر وكوب شراب شعير، من فضلك".

مرة أخرى ذلك التبدّل الطفيف في النبرة. ثلاثة همبرغر. سال اللعاب في الأفواه بشهية بطيئة. ثلاثة همبرغر. هل أكل أي شخص هنا في يوم من الأيام ثلاثة همبرغر دفعة واحدة؟

"هذا سيكون خمسة دوبارات. هل لديك دوبارات؟".

"دولارات؟".

أومأت برأسها، لذا كانت تقول دولارات على الأرجح. هذا كان تخمينه، على أي حال.

"هل هذا يشمل شراب الشعير؟"، سألها مبتسماً قليلاً. "أم أن شراب الشعير على انفراد؟".

لم تبتسم له بدورها. "سأقدِّم الرغوة. بعدما أرى لون مالك".

وضع المسلَّح قطعة ذهبية على المشرب، ولحقته كل العيون.

كان هناك فرن فحم يحترق من غير لهب خلف المشرب وعلى

يسار المرآة. اختفت المرأة في غرفة صغيرة خلفها وعادت حاملةً بعض اللحم على ورقة. اقتطعت ثلاثة أقراص صغيرة ووضعتها على المُصبَّعة. كانت الرائحة التي فاحت مجنِّنة. وَقَف المسلَّح بلا مبالاة متبلِّد الحِس، مُدركاً فقط البيانو المتلعثم، وبطء لعبة الورق، والنظرات الجانبية لروّاد المقصف الدائمين.

كان الرجل قد أصبح عند منتصف المسافة خلفه عندما رآه المسلَّح في المرآة. كان أصلع بالكامل تقريباً، وقد لفّ يده حول مقبض سكين صيد ضخم موضوع في حزامه مثل قِراب.

"عد إلى مكانك"، قال المسلَّح. "اصنع معروفاً مع نفسك يا صديقي".

توقف الرجل، رافعاً شفته العليا مثل كلب عن غير إدراك، ومرّت لحظات صمت. ثم عاد إلى طاولته، وعادت الأمور إلى طبيعتها مرة أخرى.

أتى شراب الشعير في كوب كبير مكسور. "ليست لديَّ فكّة للذهب"، قالت المرأة بنبرة مشاكسة.

"لا أتوقع أي فكّة".

أومأت برأسها بغضب، كما لو أن مظاهر الثروة هذه، حتى ولو كانت لمصلحتها، أغاظتها. لكنها أخذت قطعته الذهبية، وجاءت قطع الهمبرغر بعد لحظات على طبق مبقَّع، لا يزال أحمر عند حافاته.

"هل لديك بعض الملح؟".

أعطته الملح في جرّة صغيرة أخذتها من تحت المشرب، عليها كتل بيضاء عليه أن يفتِّتها بأصابعه. "بعض الخبز؟".

"ليس لدينا خبز". كان يعرف أنها تكذب، لكنه كان يعرف السبب أيضاً ولم يلحّ. كان الرجل الأصلع يحدِّق فيه بعينين مصابتين بالزُّراق، ويشدّ ويُرخي قبضتيه على سطح طاولته المشظّى والمقوَّر. راح أنفه يتّسِع وينقبض تدريجياً وهو يستنشق رائحة اللحم. فالرائحة، على الأقل، مجانية.

بدأ المسلَّح يأكل بشكل مطرد، دون أن يبدو عليه أنه يتذوّق اللحم، فقط يقطّعه ويضعه في فمه، محاولاً عدم التفكير بشكل البقرة الذي جاء منها. ماشية طبيعية، قالت. نعم، هذا مرجّح جداً! والخِراف سترقص الكومالا تحت ضوء قمر بائع متجوِّل.

كان قد أوشك على إنهاء طعامه، جاهزاً ليطلب كوب شراب شعير آخر ويلفّ سيجارة، عندما سقطت اليد على كتفه.

أدرك فجأة أن الصمت ساد في الغرفة مرة أخرى، وشعر بتوتّر في الأجواء. استدار وحدَّق في وجه الرجل الذي كان نائماً عند الباب عندما دخل. كان وجهه فظيعاً. ورائحة العشب الشيطاني خانقة. وعيناه ملعونتان؛ كانتا عينين ساطعتين تحدّقان لكنهما لا تريا شيئاً، عينين استدارتا إلى الداخل نحو جحيم الأحلام العقيمة والخارجة عن السيطرة، الأحلام الجامحة والناهضة من مستنقعات اللاوعي النتِنة.

أصدرت المرأة الواقفة خلف المشرب صوت أنين خفيف.

تلوَّت الشفتان المتشقّقتان، وارتفعتا، وأظهرتا أسناناً خضراء مكسوة بما يشبه الطحالب، وفكَّر المسلَّح في سرّه: *لم يعد يدخّنه حتى. بل أصبح يمضغه. يمضغه حقاً.*

وفي أعقاب ذلك فوراً: *إنه في عداد الأموات. كان يجب أن*

يكون ميتاً منذ سنة.

وفي أعقاب ذلك فوراً: *الرجل ذو الرداء الأسود فعل هذا.*

راحا يحدِّقان في بعضهما البعض، المسلَّح والرجل الذي تخطّى حافة الجنون.

تكلَّم، وسمع المسلَّح، مصعوقاً، شخصاً يستخدم اللغة الراقية لجلعاد.

"الذهب لقاء معروف، أيها السيد المسلَّح. قطعة واحدة فقط؟ رجاءً".

اللغة الراقية. للحظة رفض ذهنه تعقّبها. لقد مرّت سنوات – يا إلهي! – قرون، ألفيات؛ لم تعد اللغة الراقية متداولة؛ كان الأخير، المسلَّح الأخير. وكل الآخرين...

خَدِراً، مدَّ يده إلى جيب صدره وأخرَج قطعة ذهبية. فامتدّت إليها اليد المشقّقة، الجرباء، المصابة بالغنغرينا، وداعبتها، ورفعتها في الهواء لتبيان الوهج الدهني لمصابيح الكاز. فأطلقت توهّجها المتحضِّر المتفاخر؛ ذهبية، ضاربة إلى الحُمرة، دموية.

"آهههههه...". صوت استمتاع غير واضح. استدار العجوز وبدأ يسير عائداً إلى طاولته، رافعاً القطعة المعدنية عند مستوى عينيه، وراح يقلّبها وهي تومض بين أصابعه.

كانت الغرفة تفرغ بسرعة، والباب الشبيه بجناحَي الوطواط يتحرّك بجنون ذهاباً وإياباً. أغلق عازف البيانو غطاء آلته الموسيقية بدويّ وخرَج بعد الآخرين في خطى أوبرالية هزلية طويلة.

"شِب!"، صَرَخت له المرأة، وكان صوتها مزيجاً غريباً من الخوف وسلاطة اللسان، "شِب، عد إلى هنا! اللعنة!". هل كان هذا إسماً سمعه المسلَّح من قبل؟ ظنَّ ذلك، لكن لم يكن هناك وقت ليفكّر بالمسألة الآن، أو ليعود بذاكرته إلى الماضي.

في غضون ذلك، كان العجوز قد عاد إلى طاولته. دوَّر القطعة الذهبية على الخشب المقوَّر، وراحت العيون الميتة–الحيّة تراقبه بافتتان فارغ. دوَّرها مرة ثانية، ثالثة، وتهدَّل جفناه. في المرة الرابعة، استقرّ رأسه على الخشب قبل أن تتوقف القطعة المعدنية.

"انظر"، قالت بلطف، بشراسة. "لقد قضيت على تجارتي. هل أنت مسرور الآن؟".

"سيعودون"، قال المسلَّح.

"ليس هذه الليلة".

"مَن هو؟"، أومأ برأسه نحو آكل التبغ.

"اللعنة عليك. *يا سيد*".

"يجب أن أعرف"، قال المسلَّح بصبر. "لقد–"

"تكلَّم معك بطريقة مضحكة"، قالت. "نورت لم يتكلَّم هكذا أبداً في حياته".

"إنني أبحث عن رجل. ستعرفينه".

حدَّقت فيه، وقد بدأ غضبها يهدأ. وحلّ محله التخمين، ثم بريق مرتفع رطب كان قد رآه من قبل. وانطوى المبنى المخلَّع على نفسه. ونبَح كلبٌ بشكل مزعج، من بعيد. انتظَر المسلَّح. رأت معرفته وزال

البريق وحل محله يأسٌ، حاجةٌ مغفّلةٌ ليس لها فم.

"أظن أنك ربما تعرف سعري"، قالت. "لديَّ شهوة كنتُ قادرة على السيطرة عليها في الماضي، لكنني لم أعد أستطيع ذلك".

نَظَر إليها بثبات. لن تظهر الندبة في الظلام. كان جسدها هزيلاً كفاية لذا لم تكن الصحراء والرمال والأعمال الشاقة قادرة على إرخاء كل شيء. كانت جميلة في يوم من الأيام، وربما حتى جذّابة. ليس أن ذلك يهمّ. لم يكن ليهمّ حتى ولو كانت خنافس القبور قد عشَّشت في الظلمة القاحلة لرحمها. كان كل شيء مكتوباً. ففي مكان ما، دوَّنته يدٌ في كتاب المصير.

رفعت يديها إلى وجهها وكانت لا تزال هناك بعض الروح فيها – ما يكفي لكي تبكي.

"لا *تنظر*! لست مضطراً إلى أن تنظر إليَّ بهذه الدناءة!".

"آسف"، قال المسلَّح. "لم أقصد أن أكون دنيئاً".

"لا أحد منكم يقصد ذلك!" صاحت به.

"أغلقي المكان وأطفئي الأضواء".

بكت، وهي تضع يديها على وجهها. كان مسروراً أنها تضع يديها على وجهها. ليس بسبب الندبة بل لأن ذلك أعاد لها بَكارتها. لمع الدبوس الذي يُمسك بحزام فستانها في الضوء الدهني.

"هل سيسرق أي شيء؟ سأقتله إذا فعل ذلك".

"لا"، هَمَست. "نورت لا يسرق".

"إذاً أطفئي الأضواء".

لم ترفع يديها إلى أن أصبحت خلفه وراحت تُطفئ المصابيح الواحد تلو الآخر، بأن تُخفِض الفتائل وتنفث على اللهب. ثم أمسكت يده في الظلام وكانت دافئة. وقادته إلى الطابق العلوي. لم يكن هناك أي ضوء قادر على إخفاء ما سيقومان به.

VI

لفّ سيجارتين في الظلام، ثم أشعلهما وأعطاها واحدة. كانت الغرفة تعبق برائحتها، اللَيلَك النَضِر، المثيرة للشفقة. وقد طغت عليها رائحة الصحراء. أدرَك أنه خائف من الصحراء التي تنتظره.

"يدعى نورت"، قالت. لم تخفّ أي قسوة في صوتها. "فقط نورت. وقد مات".

انتظَر المسلَّح.

"لمسته الروح".

قال المسلَّح، "لم أره أبداً".

"كان هنا منذ أن أستطيع أن أتذكّر - أقصد نورت، وليس الروح". ضحكت بخشونة في الظلام. "كانت لديه شاحنة لتفريغ البراز والبول. بدأ يشرب. ثم بدأ يشمّ الحشيش. ثم يدخّنه. وبدأ الأولاد يلاحقونه ويُفلتون كلابهم عليه. كان يرتدي سروالاً أخضر قديماً رائحته كريهة. هل تفهم؟".

"نعم".

"بدأ يمضغه. وفي النهاية، أصبح يجلس هناك ولا يأكل شيئاً. ربما

كان يشعر أنه ملك، في ذهنه. وربما كان الأولاد مجرد مهرّجين لديه، والكلاب أمراءه".

"نعم".

"مات أمام هذا المكان بالضبط"، قالت. "أتى يمشي بتثاقل على الممشى الخشبي – لم تكن جزمته تبلى، فقد كانت جزمة جلدية عثر عليها في ساحة القطارات القديمة – مع الأولاد والكلاب خلفه. بدا كأنه شمّاعات ملابس سلكية ملفوفة ببعضها. يمكنك رؤية كل أضواء الجحيم في عينيه، لكنه كان يبتسم، تماماً مثل الابتسامات التي ينقشها الأولاد على الأشجار واليقطين. ويمكنك أن تشمّ رائحة الأوساخ والعفن والتبغ عليه. فقد كانت تفوح من زوايا فمه مثل دم أخضر. أعتقد أنه تقصَّد أن يأتي ويستمع إلى شِب وهو يعزف على البيانو. توقّف عند الباب مباشرة ورفع رأسه. كان يمكنني رؤيته، واعتقَدتُ أنه سمِع صوت حافلة، رغم أنه لم يكن توقيت وصول أي حافلة. ثم تقيأ، وكان أسود ومليئاً بالدم. مرّ مباشرة عبر تلك الابتسامة مثل مياه الصرف الصحي عبر شبكة القضبان الحديدية. كانت الرائحة كريهة كفاية لجعلك تريد أن تركض كالمجنون. رفع ذراعيه وسقط بكل بساطة. مات في تقيؤه مع تلك الابتسامة على وجهه".

"قصة لطيفة".

"آه نعم، شكراً يا سيد. هذا المكان لطيف".

كانت ترتعش بجانبه. في الخارج، حافظت الرياح على نحيبها الهادئ، وفي مكان بعيد كان هناك باب يطرق مُحدثاً ضجةً عاليةً، مثل الصوت الذي تسمعه في الحلم. وفئران تركض في الجدران. فكّر المسلَّح

في خبايا ذهنه أنه ربما كان المكان الوحيد في البلدة المزدهر كفاية ليمكّن الفئران من العيش. وَضَع يده على بطنها وانطلقت بعنف، ثم استرخت.

"الرجل ذو الرداء الأسود"، قال.

"أنت مصرّ على أن تعرف، أليس كذلك؟ لم يكن بإمكانك أن تقيم معي علاقة حميمة وحسب ثم تصمت وتنام".

"أنا مصرّ".

"حسناً. سأخبرك". أمسكت يده بيديها الاثنتين وأخبرته.

VII

أتى في ساعة متأخرة من بعد ظهر اليوم الذي مات فيه نورت، وكانت الرياح عاتية، تجعل التربة السطحية الفضفاضة وطبقات الرمال وسيقان الذرة المقتلَعة تتطاير في الهواء. كان جوبال كينيرلي قد أقفَل الإسطبل، وأغلَق التجّار القلّة الآخرون نوافذهم ووضعوا ألواحاً عليها. كانت السماء باللون الأصفر للجبن القديم والسُحُب تطير فيها، كما لو أنها رأت شيئاً مروِّعاً في مخلّفات الصحراء حيث كانت مؤخراً.

أتى طريد المسلَّح في عربة مهلهلة ذات غطاء متموِّج واقٍ للماء مربوط بسريره. كانت هناك ابتسامة كبيرة مزعجة على وجهه. راقبوه يقترب، وقرَّر كينيرلي العجوز، الجالس عند النافذة مع زجاجة في يد واللحم الفضفاض الساخن للثدي الأيسر لإبنته الكبرى الثانية في اليد الأخرى، أنه لن يكون هناك في حال قرع الباب.

لكن الرجل ذا الرداء الأسود مرَّ من دون أن يُبطئ حصانه الذي كان يجرّ العربة، وأثارت العجلات بعض الغبار الذي نفختها الرياح بتلهّف. كان يمكن أنه يكون رجل دين؛ فقد كان يرتدي رداءً أسود مليئاً بالغبار، وقبعة فضفاضة تغطي رأسه وتحجب ملامحه، لكن ليس تلك الابتسامة البغيضة. راح رداؤه يتموَّج ويرفرف في الهواء. من تحت حاشية ثوبه، ظهر حذاؤه الثقيل ذو المشبك المعدني والمقدمة المربعة.

توقف أمام شِب وربط الحصان، الذي أخفض رأسه ونخَر في الأرض. حلَّ أحد أربطة الجهة الخلفية للعربة، وأخرَج جِراباً بالياً، ورماه فوق كتفه، ودخَل عبر الباب الشبيه بجناحَي الوطواط.

راقَبته أليس بفضول، لكن لا أحد غيرها لاحظ وصوله. كان الزبائن الدائمون ثملين جداً، وشِب يعزف كالمعتاد، والمتبطِّلون الذين يأتون باكراً لتجنّب العاصفة وحضور استيقاظ نورت قد غنّوا حتى بُحَّت أصواتهم. كان شِب، الثمل تقريباً إلى حدود الحماقة، يعزف بصخب وسرعة كبيرة، وأصابعه تطير مثل النَول.

كانت الأصوات تزعَق وتصيح، ولم تتغلّب أبداً على الرياح لكنها بدت أنها تتحدّاها أحياناً. في الزاوية، كان زكريا قد رمى تنورة آيمي فيلدون فوق رأسها وراح يرسم تمائم حصاد على رُكبتيها. وبضع نساء أخريات يتمشّين ذهاباً وإياباً. بدا كما لو أنهن كلهن مصابات بالحمى. لكن بدا أن وهج العاصفة الممل الذي تسلّل عبر الباب الشبيه بجناحَي الوطواط يسخر منهن.

كان نورت مستلقٍ على طاولتين في وسط الغرفة. وجزمته الجلدية تصنع شكل حرف V عجيب. فمه مفتوح في ابتسامة استرخاء، رغم

أن شخصاً أغمض له عينيه ووضع رصاصتين عليهما. تم شبك يديه ببعضهما على صدره بواسطة غصن عشب شيطاني. كانت رائحة تشبه رائحة السم تفوح منه.

دفعَ الرجل ذو الرداء الأسود قبعته إلى الخلف واقترب من المشرب. راقَبته أليس، وهي تشعر بخليط من الذعر والرغبة المألوفة. لم يكن هناك أي رمز ديني عليه، رغم أن ذلك لا يعني أي شيء لوحده.

"كوب شراب"، قال. كان صوته ناعماً ولطيفاً. "أريد النوعية الجيدة يا عزيزتي".

مدَّت يدها إلى تحت المنضدة وأخرجت زجاجة شراب فاخر. كان يمكنها أن تغشّه وتبيعه الشراب المحلي الرديء على أنه أفخر الأصناف لديها، لكنها لم تفعل ذلك. بل صَبَّت له كوباً، وكان يراقبها. كانت عيناه كبيرتين وتلمعان. كانت الظلال سميكة جداً لكي تتمكن من تحديد لونهما بالضبط. اشتدّت رغبتها. تواصلت الصيحات والهتافات خلفه بلا هوادة. كان شِب، المخصي العديم القيمة، يعزف عن جنود الحروب وأحدهم أقنع العمّة ميل أن تغني. اخترق صوتها، الملتوي والمشوَّه، ضجيج الثرثرة مثل اختراق فأس كليل لدماغ عجل.

"يا آليْ!".

ذهَبت لتخدمهم، ممتعِضةً من صمت الغريب، وممتعِضةً من عينيه العديمَي اللون وفخذَيها المضطربَين. كانت خائفة من رغباتها. فقد كانت متقلِّبة وخارجة عن سيطرتها. قد تكون إشارة بضرورة التغيير، وهذا بدوره إشارة لبداية شيخوختها – وهي حالة كانت في تَلّ قصيرة ومرّة عادة مثل غروب الشتاء.

صبّت شراب الشعير إلى أن فرُغ البرميل الصغير، ثم فتَحت واحداً آخر. كانت تعرف أنه من الأفضل عدم طلب ذلك من شِب؛ كان سيأتي طوعياً بالتأكيد، مثل الكلب الذي هو عليه، وإما سيقطع أصابعه أو سيجعل شراب الشعير ينسكب فوق كل شيء. كانت عينا الغريب تراقبها وهي تعمل؛ كان يمكنها الشعور بذلك.

"المكان مزدحم"، قال عندما عادت. لم يلمس شرابه، فقط دحرَجه بين راحتي يديه لكي يدفّئه.

"استيقظ"، قالت.

"لاحَظتُ الراحلين".

"إنهم متشرِّدون"، قالت ببغض مفاجئ. "كلهم متشرِّدون".

"هذا يثيرهم. فهو ميت. أما هم فلا".

"كان أضحوكتهم عندما كان حيّاً. لا ينبغي أن يكون أضحوكتهم الآن. إنه...". وانخفت صوتها، فلم تكن قادرة على التعبير عن طبيعة الوضع، أو عن مدى قذارته.

"آكل التبغ؟".

"نعم! ماذا كان لديه سوى ذلك؟".

كانت نبرتها اتّهامية، لكنه لم يُخفض عينيه، وشعَرت بالدم يفور في وجهها. "آسفة. هل أنت رجل دين؟ لا شك أن هذا يُشعرك بالاشمئزاز".

"لستُ رجل دين وهذا لا يُشعرني بالاشمئزاز". شرب كوبه بأكمله دفعة واحدة ولم يبتسم. "واحد آخر، من فضلك. واحد آخر

بإحساس، مثلما يقولون في العالم المجاور".

لم تكن لديها أي فكرة عن معنى هذا، وكانت خائفة أن تسأل. "عليَّ رؤية لون عملتك المعدنية أولاً. آسفة".

"لا داعي للاعتذار".

وَضَع عملة معدنية فضية خام على المنضدة، وكانت سميكة عند أحد طرفيها، ورفيعة عند الطرف الآخر، وقالت مثلما كانت ستقول لاحقاً: "ليست لديَّ فكّة لهذه".

هزَّ رأسه بلا اكتراث، وراقبها بذهول وهي تصبّ له مرة أخرى.

"هل أنت مارّ فقط من هنا؟"، سألته.

لم يردّ لفترة طويلة، وكادت تكرِّر السؤال عندما هزَّ رأسه كدلالة على نفاد صبره. "لا تتكلّمي عن تفاهات. فأنتِ في حضرة الموت".

ارتَدت إلى الوراء، مجروحة ومندهشة، وكانت أفكارها الأولى هي أنه كذَب عن صفته الروحية لكي يختبرها.

"كنت تهتمين لأمره"، قال بشكل قاطع. "أليس هذا صحيحاً؟".

"مَن؟ نورت؟". ضحكت، متظاهرةً بالانزعاج لكي تغطي إرباكها. "أعتقد أنه من الأفضل لك-".

"أنت حنونة وخائفة قليلاً"، تابع يقول، "وكان يتعاطى التبغ، وينظر إلى الباب الخلفي للجحيم. وها هو، حتى إنهم أغلقوا الباب الآن، ولا تظنين أنهم سيفتحونه إلى أن يكون قد حان الوقت لكي تعبريه، أليس كذلك؟".

"هل أنت ثمل؟".

"ميستوه نورتون، لقد *مات*"، قالها الرجل ذو الرداء الأسود مع بعض الترنيم، مُعطياً الكلمات بعض التهكّم. "مات مثل أي شخص. مات مثلك أو مثل أي شخص آخر".

"أخرج من متحري". شعَرت باشمئزاز يملؤها كلياً، لكن الدفء كان لا يزال يشعّ من بطنها.

"كل شيء على ما يرام"، قال بلطف. "كل شيء على ما يرام. انتظري. فقط انتظري".

كانت عيناه زرقاوين. شعَرت بهدوء فجأة في ذهنها، كما لو أنها تناولت مخدراً.

"مات مثل أي شخص"، قال. "هل ترين؟".

أومأت برأسها بصمت وضحك بصوتٍ عالٍ – ضحكة نقية قوية جعلت الرؤوس تستدير. استدار وواجَههم، فقد أصبح محطّ انتباههم فجأة. ترنّحت العمّة ميل وهَمَدت، تاركةً نغمة عالية مكسورة تنزف في الهواء. عزف شِب نغمة نافرة وتوقّف. نظروا إلى الغريب بانزعاج. خشخَشت الرمال عند جوانب المبنى.

استمرّ الصمت، وطالت مدته. علقت أنفاسها في حنجرتها وأخفَضت نظرها ورأت يديها تضغطان على بطنها تحت المشرب. كان الجميع ينظرون إليه وهو ينظر إلى الجميع. ثم انفجرت الضحكة مرة أخرى، قوية وغنية بشكل لا ريب فيه. لكن لم يكن هناك دافع للضحك معه.

"سأُريكم شيئاً عجيباً!"، صاح بهم. لكنهم اكتفوا بمراقبته، مثل أولاد مُطيعين أُخذوا لرؤية شخص خبير بألعاب الخفّة رغم أنهم

أصبحوا ناضجين كفاية لكي لا يصدّقوه.

اندفَع الرجل ذو الرداء الأسود، وابتعدت عنه العمّة ميل. كشَّر بشراسة وصفَع بطنها العريض. فأصدرت قوقأة قصيرة غير مقصودة، ورمى الرجل ذو الرداء الأسود رأسه إلى الخلف.

"هذا أفضل، أليس كذلك؟".

قوقأت العمّة ميل مرة أخرى، وبدأت تشهق فجأة، وفرَّت مسرعةً عبر الباب. راقبها الآخرون بصمت. كانت العاصفة في بدايتها؛ وتبِعت الظلال بعضها البعض وهي تصعد وتهبط في السماء البيضاء. تأوّه رجلٌ يقف بالقرب من البيانو نسي كوب شراب شعير في يده.

وَقَف الرجل ذو الرداء الأسود فوق نورت، وهو يبتسم له. كانت الرياح تعصف وتزعق. شيء ضخم ارتطم بالمبنى بقوة كافية لجعله يهتزّ ثم ارتدّ عنه. وقف أحد الرجال الجالسين عند المشرب وتوجَّه إلى مكان أهدأ، بخطوات كبيرة متنافرة. أحدَث الرعد ضوضاءً في السماء كما لو أن الغيوم تسعل.

"*حسناً!*"، قال الرجل ذو الرداء الأسود مبتسماً. "حسناً، هيا نفعل ذلك!".

بدأ يبصق على وجه نورت، مصيباً إياه بدقة. لمَع البُصاق على جبهة الجثة مثل اللؤلؤ وسال على أنفه.

كانت يداها تعملان بشكل أسرع تحت المشرب.

ضحكَ شِب، وانحنى فوق الجثة. بدأ يبصق بلغماً، بمقادير كبيرة لزجة، وتركها تتطاير. زأر الرجل ذو الرداء الأسود موافقاً وربّت له على ظهره. ابتسم شِب، ولمع سنٌ ذهبيٌ.

فرّ البعض. وتجمّع البعض الآخر في حلقة فضفاضة حول نورت. لمَع وجهه واللحم المجعَّد المتدلٍ على عنقه والقسم العلوي من صدره من السائل - سائل نفيس جداً في هذا البلد الجاف. وفجأة توقف مطر البُصاق، كما لو أن ذلك تم بناءً على إشارة. كان هناك تنفّس متقطّع ثقيل.

اندفع الرجل ذو الرداء الأسود فجأة نحو الجثة، وانحنى فوقها في قوس ناعم مثل مُدية جيب. كان المنظر جميلاً، مثل دفق ماء. اتكأ على يديه، ثم قفز واقفاً على قدميه في حركة واحدة، مبتسماً، وكرَّر ذلك مرة أخرى. نسي أحد المشاهدين نفسه، وبدأ يصفِّق، ثم تراجَع فجأة، وعيناه غائمتان من الرعب. وضع يداً فوق فمه الذي سال منه اللعاب وتوجَّه نحو الباب.

ارتعَش نورت في المرة الثالثة التي خطا فيها الرجل ذو الرداء الأسود فوقه.

انتشر صوت بين المشاهدين - نخيرٌ - ثم لزموا الصمت. رمى الرجل ذو الرداء الأسود رأسه إلى الخلف وأطلق عواءً. تحرّك صدره في إيقاع سريع وهو يشهق الهواء. بدأ يتحرّك ذهاباً وإياباً بوتيرة أسرع، ويتنقّل فوق جثة نورت مثل الماء المصبوب من كوب إلى آخر، مراراً وتكراراً. الصوت الوحيد في الغرفة كان الصرير الحاد لتنفسه والنبض المتصاعد للعاصفة.

ثم جاءت اللحظة التي أخذ فيها نورت نَفَساً عميقاً جافاً. اهتزّت يداه بلا هدف على الطاولة. فزعَق شِب وخرَج. تبِعته إحدى النساء، وكانت عيناها واسعتين وخِمارها منتفخاً.

خطا الرجل ذو الرداء الأسود فوقه مرة أخرى، مرتين، ثلاث مرات. كانت الجثة على الطاولة ترتعش مثل دمية كبيرة بلا حياة لكن مخفية في داخلها آلية ساعة شنيعة. كانت رائحة العفن والغائط والتحلّل تنتشر في موجات خانقة. وجاءت لحظة فتح فيها عينيه.

شَعَرت آليْ بالخَدِر في قدميها يدفعها إلى الوراء. ارتطمت بالمرآة، وجعلتها تتشظّى، ودبَّ فيها ذعر عارم. فحفلت مثل عجل صغير.

"هذا هو الشيء العجيب الذي وعدتُك به"، صاح بها الرجل ذو الرداء الأسود وهو يلهث. "لقد أعطيتك إياه. يمكنك الآن أن تنامي قريرة العين. حتى *هذا* ليس غير قابل للعكس. رغم أنه... اللعنة... *مضحك* إلى حد كبير!". وبدأ يضحك مرة أخرى. خفُت الصوت وهي تُسرع في صعود الدرجات، ولم تتوقف إلى أن أغلقت الباب إلى الغرف الثلاثة فوق المشرب بإحكام.

بدأت تقهقه عندها، وتتأرجح ذهاباً وإياباً على وركَيها بجانب الباب. ارتفع الصوت إلى عويل مخلوط بالرياح. وبقيت تسمع الصوت الذي أصدره نورت عندما عاد إلى الحياة - صوت القبضتين تقرعان على غطاء التابوت. تساءلت عن الأفكار التي يمكن أن تكون باقية في دماغه المنعَش. ماذا رأى بينما كان ميتاً؟ كم يتذكّر؟ هل سيُخبرهم؟ هل تنتظرهم أسرار القبر في الأسفل؟ أدركت أن أفظع شيء في هكذا أسئلة هو أن جزءاً منك يريد طرحها حقاً.

تحتها، كان نورت يتحوَّل بذهول في العاصفة ليقلع بعض التبغ. وربما راقبه الرجل ذو الرداء الأسود، الذي أصبح الآن الزبون الوحيد في المقصف، يخرج، وربما لا يزال يبتسم.

عندما أجبَرت نفسها على النزول في ذلك المساء، حاملةً مصباحاً بيد وخشبة ثقيلة من خشب الموقد باليد الأخرى، كان الرجل ذو الرداء الأسود قد ذهب، مع عربته وكل حاجياته. لكن نورت كان هناك، جالساً إلى الطاولة قرب الباب كما لو أنه لم يمت أبداً. كانت رائحة التبغ تفوح منه، لكن ليس بالشدّة التي كانت تتوقعها.

رفع نظره نحوها وابتسم ابتسامة خفيفة. "مرحبا، آليْ".

"مرحبا، نورت". وَضَعت خشبة الموقد من يدها وبدأت تُشعل المصابيح، دون أن تُدير له ظهرها.

"لقد لمستني الروح"، قال حالاً. "لن أموت بعد اليوم. قال لي ذلك. كان وعداً".

"كم هذا لطيف بالنسبة لك يا نورت". وقعت اللفافة الورقية التي كانت تُمسكها بأصابعها المرتعشة فرفعتها عن الأرض.

"أود أن أتوقف عن مضغ التبغ"، قال. "لم أعد أستمتع بذلك. فلا يبدو مناسباً لرجل لمسته الروح أن يمضغ التبغ".

"لماذا لا تُقلع عن ذلك إذاً؟".

أجفلها سُخطها وجعلها تنظر إليه كرجل من جديد، وليس كأعجوبة لعينة. ما رأته كان عيّنة حزينة المظهر لكن ثملة، وتبدو ذليلة وخجِلة. لم تعد تخاف منه بعد الآن.

"أنا أرتعش"، قال. "وأريده. لا يمكنني التوقف. آليْ، كنتِ دائماً طيبة معي...". وبدأ يبكي. "حتى إنني لا أستطيع التوقف عن التبويل على نفسي. ما أنا؟ *ما أنا؟*".

سارت إلى الطاولة وتردَّدت هناك، غير أكيدة.

"كان بإمكانها جعلي لا أريده"، قال والدموع في عينيه. "كان بإمكانها فعل ذلك لو كان بإمكانها جعلي أكون حيّاً. أنا لا أتذمّر... لا أريد أن أتذمّر...". حدَّق حوله بقلق وهمَس، "قد توجِّه لي ضربة قاتلة إذا تذمّرتُ".

"ربما هذه مزحة. بدت أنها تتمتّع بحسّ فكاهة كبير".

أخذ نورت كيس تبغه حيث كان يتدلّى داخل قميصه وأخرَج بعض التبغ. ضربته بعيداً عنها بدون تفكير، ثم أرجعت يدها إلى الخلف مذعورةً.

"لا أستطيع إيقاف نفسي، آليْ، لا أستطيع"، وانقضّ على كيس التبغ. كان يمكنها أن توقفه، لكنها لم تبذل جهداً. عادت إلى إشعال المصابيح، مُتعَبةً رغم أن المساء بالكاد بدأ. لكن لم يأت أحد في تلك الليلة ما عدا العجوز كينيرلي، الذي فاته كل شيء. لم يبدُ متفاجئاً من رؤية نورت. ربما أخبره شخصٌ بما حصل. طلب كوب شراب شعير، وسأل عن شِب، وتحرَّش بها بيده.

لاحقاً، جاء إليها نورت وأعطاها قطعة ورق مطوية بيد متزعزعة لا يحق لها أن تكون حيّة. "ترَك لك هذا"، قال. "كدتُ أنسى. لو نسيتُ، كان عاد وقتلني بالتأكيد".

كان الورق أمراً قيّماً، سلعةً ثمينةً، لكنها لم تحبّذ التعامل مع هذا. فقد بدت الورقة ثقيلة وبغيضة، ومكتوبة عليها كلمة واحدة:

آليْ

"كيف عرف إسمي؟"، سألت نورت، فاكتفى بهزّ رأسه.

فتَحت الورقة وقرأت التالي:

تريدين أن تعرفي عن الموت. تركتُ له كلمةً. تلك الكلمة هي تسعة عشر. إذا قلتها له، سيُفتح ذهنه. سيُخبرك ماذا يكمن في الوراء. سيُخبرك ماذا رأى.

الكلمة هي تسعة عشر.
المعرفة ستدفعك إلى الجنون.
لكنك ستسألين عاجلاً أم آجلاً.
لن تكوني قادرة على منع نفسك.
أتمنى لك يوماً سعيداً! ☺

والتر أوديم

ملاحظة. الكلمة هي تسعة عشر.
ستحاولين نسيانها لكنها ستخرج من فمك مثل القيء عاجلاً أم آجلاً.
تسعة عشر.

ويا إلهي كم كانت تعرف أنها ستطرح السؤال. فقد كان على طرف لسانها مسبقاً. *تسعة عشر*، ستقول - *إسمع يا نورت: تسعة عشر*. وستنكشف أمامها أسرار الموت والماورائيات.

ستسألين عاجلاً أم آجلاً.

كانت الأمور عادية تقريباً في اليوم التالي، رغم أن لا أحد من الأولاد تبع نورت. وفي اليوم الذي تلاه، عادت صيحات الاستهجان. عادت الحياة إلى طبيعتها. جمَّع الأولاد أكواز الذرة المقتلعَة، وبعد أسبوع من إنعاش نورت، حرقوها في وسط الشارع. كانت النيران ساطعة للحظات وخرج معظم روّاد المقصف الدائمين لمشاهدتها. بدوا

بدائيين. بدت وجوههم عائمة بين اللهب والتألّق الجليدي للسماء. راقبتهم آليْ وشَعَرت ببعض اليأس من الأوقات الحزينة في هذا العالم. الخسارة. ابتعدت الأشياء عن بعضها. لم يعد هناك غراء في الوسط. في مكان ما كان هناك شيء يترنَّح، وعندما يقع، سينتهي كل شيء. لم تر المحيط أبداً، ولن تراه أبداً.

"لو كانت لديّ *الجرأة*"، همست. "لو كانت لديّ الجرأة، الجرأة، الجرأة ...".

رفع نورت رأسه عند سماعه صوتها وابتسم لها ابتسامة من الجحيم خالية من أي تعبير. لا تملك الجرأة. فقط مقصفاً وندبةً. وكلمةً. كانت تكافح خلف شفتيها المُغلقتين. لنفترض أنها نادته الآن وقرّبته منها رغم رائحته الكريهة؟ لنفترض أنها قالت الكلمة في قطعة اللحم الشمعية تلك التي يسمّيها أذناً؟ ستتغيَّر عيناه. ستتحوَّلان إلى عينَي *ذلك الرجل* ذي الرداء. ثم سيُخبرها نورت بما رآه في أرض الموت، بما يكمن ما وراء الأرض والديدان.

لن أقول له تلك الكلمة أبداً.

لكن الرجل الذي أعاد نورت إلى الحياة وترك لها ملاحظة – ترك لها كلمة بمثابة مسدس ستضعه على صدغها يوماً ما – كان يعرف أفضل من ذلك.

تسعة عشر ستفتح السر.

تسعة عشر هي السر.

وجدت نفسها تكتبها في بركة صغيرة على المشرب – *تسعة عشر* – وأزالتها عندما رأت نورت يراقبها.

انطفأت النيران بسرعة وعاد زبائنها إلى الداخل. بدأت تجترع الشراب الفاخر، وأصبحت ثملة بالكامل عند منتصف الليل.

VIII

توقَّفت عن سرد روايتها، وعندما لم يعلّق أي تعليق مباشر، ظنّت في البدء أن القصة جعلته ينام. فبدأت تغفو عندما سألها: "هل هذا كل شيء؟".

"نعم. هذا كل شيء. تأخر الوقت كثيراً".

"ممم". كان يلفّ سيجارة أخرى.

"لا توسِّخ سريري بتُفف تبغك"، قالت له بحدّة أكثر مما كانت تقصد.

"لا".

الصمت مرة أخرى. راح طرف سيجارته يُضيء وينطفئ.

"ستغادر في الصباح"، قالت برتابة.

"عليَّ ذلك. أعتقد أنه ترك لي فخاً هنا. تماماً مثلما ترَك فخاً لك".

"هل تظنّ حقاً أن الرقم سوف-".

"إذا كانت سلامة عقلك تروق لك، فلن تريدي أبداً أن تقولي تلك الكلمة لنورت"، قال المسلَّح. "انسيها كلياً. وإذا كنت تستطيعين، درّبي نفسك على أن الرقم الذي يلي ثمانية عشر هو عشرين. وأن نصف الثمانية والثلاثين هو سبعة عشر. الرجل الذي وقَّع رسالته بإسم

والتر أوديم يتمتّع بصفات كثيرة، لكن الكذب ليس إحداها".

"لكن-".

"عندما تشعرين بإلحاح ويكون قوياً، اصعدي إلى هنا واختبئي تحت اللحاف وقوليها مرات عديدة - اصرخيها، إذا لزم الأمر - إلى أن يزول الإلحاح".

"سيأتي وقت لن يزول فيه".

لم يردّ عليها المسلَّح، لأنه كان يعرف أن هذا صحيح. فالفخ مُتقَن إتقاناً شنيعاً. إذا قال لك أحدهم إنك ستذهب إلى الجحيم إذا تخيّلت أمك عارية (في أحد الأيام عندما كان المسلَّح يافعاً جداً، قيل له هذا الشيء تحديداً)، ستفعل ذلك في نهاية المطاف. ولماذا؟ لأنك *لم ترغب* أن تتخيَّل أمك عارية. لأنك *لم ترغب* أن تذهب إلى الجحيم. لأنك إذا أُعطيتَ سكيناً ويداً لتحملها بها، فإن الذهن سيأكل نفسه في نهاية المطاف. ليس لأنه رغب بذلك؛ بل لأنه *لم يرغب* به.

عاجلاً أم آجلاً، ستنادي آليْ نورت وتقول له الكلمة.

"لا تذهب"، قالت.

"سنرى".

استدار على جنبه بعيداً عنها، لكنها كانت تشعر بالراحة. سيبقى، على الأقل لبعض الوقت. ثم غفت.

عند حافة النوم، تذكّرت مرة أخرى الطريقة الغريبة التي كلّمه بها نورت. كانت المرة الوحيدة التي ترى فيها حبيبها الجديد الغريب يعبِّر عن أحاسيسه. حتى العلاقة الحميمة يُقيمها بصمت، وفقط في النهاية

يشتدّ تنفّسه ثم يتوقف لثانية أو ثانيتين. كان مثل شيء مأخوذ من قصة خرافية، مخلوق رائع وخطير. هل يستطيع تحقيق الأمنيات؟ اعتقَدت أن الجواب كان نعم، وأن أمنيتها ستتحقق. سيبقى لبعض الوقت. وغداً ستفكّر بأمنية ثانية، أو ثالثة. نامت.

IX

أعدّت له البرغل في الصباح، وأكَله من دون تعليق. كان يأكل من دون التفكير بها، وبالكاد يراها. كان يعرف أن عليه الرحيل. وكل دقيقة يمكثها هنا كانت تسمح للرجل ذي الرداء الأسود أن يبتعد عنه أكثر – على الأرجح أنه تجاوز الطبقة الصلدة والغدير الجاف ووصل الصحراء الآن. كان مساره مستقيماً إلى الجنوب الشرقي، والمسلَّح يعرف السبب.

"هل لديك خريطة؟"، سألها وهو يبحث بنظره.

"للبلدة؟"، ضحكت. "لا يوجد فيها ما يكفي لتشكيل خريطة".

"لا. لمنطقة الجنوب الشرقي من هنا".

خفتت ابتسامتها. "الصحراء. فقط الصحراء. ظننتُ أنك ستبقى لبعض الوقت".

"ماذا يوجد على الطرف الآخر للصحراء؟".

"كيف سأعرف؟ لا أحد يجتازها. ولم يحاول أحدٌ منذ مجيئي إلى هنا". مسَحت يديها بمئزرها، وارتدت قفازات الفرن، وسكبت إبريق الماء الذي كانت تسخّنه في المغسلة، حيث أحدثَ جلبةً وتبخّر. "كل

السُحُب تسير في ذلك الاتجاه. كما لو أن شيئاً يجذبها-".

نهض.

"إلى أين تذهب؟"، سمِعت الخوف الحاد في صوتها وكرهت ذلك.

"إلى الإسطبل. إذا كان هناك أي شخص يعرف، فهو السائس". وَضَع يديه على كتفيها. كانت يدان قاسيتين، لكنهما كانتا دافئتين أيضاً. "ولترتيب الأمور لبغلي. إذا كنتُ سأبقى هنا، يجب الاعتناء به جيداً. للوقت الذي سأغادر فيه".

لكن ليس الآن. نظرت إليه. "لكن احذر من كينيرلي. فإذا كان لا يعرف أحد الأشياء، سيخترعه".

"شكراً، آليْ".

عندما خرَج، استدارت إلى المغسلة، وهي تشعر بالدفق الدافئ لدموع فرحها. منذ متى شكرها أي شخص؟ شخص يهمّها أمره؟

X

كان كينيرلي عجوزاً بغيضاً شَبِقاً بلا أسنان دفن زوجتين ومُبتلياً ببنات. راحت اثنتان منهن وكانتا نصف ناضجتين تختلسان النظر إلى المسلَّح من الظلال المليئة بالغبار للحظيرة. وكانت هناك طفلة يسيل لعابها بسعادة على التراب، وفتاة شقراء كاملة النضج ووسخة وشهوانية تراقبه بحشرية تخمينيّة بينما تسحب الماء من المضخّة المتأوهة بجانب المبنى. التقَت عيناها بعينَي المسلَّح، فقرصت حلمتيها بين أصابعها، وغمزته، ثم عادت إلى ضخّ الماء.

لاقاه السائس عند منتصف المسافة بين باب مؤسسته والشارع. تأرجَح أسلوبه بين عداء حاقد وتزلُّف جبان.

"نعتني به جيداً، لا تقلق أبداً"، قال، وقبل أن يتمكّن المسلَّح من الرد، أدار كينيرلي إبنته برفع قبضتيه، وهذه حركة يائسة هزيلة متعجرفة. "أدخلي يا سُوبي! أدخلي فوراً!".

بدأت سُوبي تجرّ دلوها بتجهّم نحو الكوخ المُلحَق بالحظيرة.

"تقصد بغلي"، قال المسلَّح.

"نعم، سيدي. لم أر بغلاً منذ مدة طويلة، بالأخص واحداً يبدو مترابطاً مثل بغلك – عينين، أربع قوائم...". وقطبَ وجهه بشكل مخيف في تعبير قصدَ به إظهار إما ألم شديد أو أنه قال نكتة للتو. افترض المسلَّح الحالة الثانية، رغم أنه يملك بنفسه حسّ فكاهة خفيفاً أو لا حسّ فكاهة أبداً.

"كانوا في الماضي يكبرون في البراري"، تابَع كينيرلي، "لكن الزمان يتغيَّر. ولم أعد أرى سوى بضعة ثيران متحوِّلة وأحصنة الحافلات و– سُوبي، سأضربك بعنف أيتها اللعينة!".

"أنا لا أعضّ"، قال المسلَّح بلطف.

تذلّل كينيرلي وابتسم. رأى المسلَّح القتل واضحاً جداً في عينيه، ورغم أنه لا يخافه، إلا أنه صنّفه كرجلٍ قد يترك أثراً على صفحة في كتاب يحتوي على تعليمات قد تكون قيّمة. *لستَ السبب. لا سمح الله، لستَ السبب*". وابتسم ابتسامة متصنّعة. "إنها فقط بلهاء بالفطرة. إنها شيطانة. متوحشة". وأظلمت عيناه. "اقترب الزمان الأخير يا سيد. أنت تعرف ماذا يقول الكتاب. لن يطيع الأولاد أهاليهم،

وسيصيب طاعونٌ الجموع. ما عليك سوى الاستماع إلى المرأة الواعظة لكي تعرف ذلك".

أومأ المسلَّح برأسه، ثم أشار إلى الجنوب الشرقي. "ماذا يوجد هناك؟".

ابتسم كينيرلي مرة أخرى، مُظهراً لثة وبضعة أسنان صفراء. "السكان. التبغ. الصحراء. وماذا أيضاً؟"، قوقأ، وتفحّصت عيناه المسلَّح ببرودة.

"كم كبيرة الصحراء؟".

"كبيرة". حاول كينيرلي أن يبدو جدّياً، كما لو أنه يُجيب على سؤال خطير. "ربما ألف عجلة. ربما ألفان. لا يمكنني أن أجزم يا سيد. لا يوجد شيء هناك سوى عشب شيطاني وربما عفاريت. سمعت أن هناك دوائر على الطرف البعيد، لكن هذه كذبة على الأرجح. هكذا يقول الرجل الآخر. الذي داوى نورتي عندما كان مريضاً".

"عندما كان مريضاً؟ سمِعتُ أنه كان ميتاً".

استمر كينيرلي يبتسم. "حسناً، حسناً. ربما. لكننا رجال بالغون، أليس كذلك؟".

"لكنك تصدِّق وجود العفاريت".

بدا كينيرلي وقد شعر بالإهانة. "هذا أمر مختلف جداً. تقول المرأة الواعظة...".

وراح يثرثر ويلغو. فخلع المسلَّح قبعته ومسَح جبهته. كانت الشمس حارة جداً. وبدا أن كينيرلي لم يلاحظ ذلك. كانت لديه

أشياء كثيرة ليقولها، وكل كلامه غير معقول. في الظلال الرفيعة بجانب الإسطبل، كانت الطفلة تلطّخ وجهها بالتراب بكل جدّية.

نفد صبر المسلَّح أخيراً وقاطع الرجل في منتصف ثرثرته. "ألا تعرف ماذا يوجد بعد الصحراء؟".

هزّ كينيرلي كتفيه. "قد يعرف البعض. كانت الحافلات تمرّ في جزء منها منذ خمسين سنة. هكذا قال والدي. كان يقول إن هناك بعض الجبال. والبعض الآخر يقولون إن هناك محيطاً... محيط أخضر فيه وحوش. والبعض يقولون إن العالم ينتهي هناك، وإنه لا يوجد شيء سوى أضواء ستسبّب العمى للبشر وفجوة كبيرة تشبه الفم تأكلهم".

"هراء"، قال المسلَّح بعد قليل.

"بالتأكيد"، صاح كينيرلي بسعادة. تذلّل مرة أخرى، وهو يشعر بالكره والخوف والرغبة بالإرضاء.

"تأكد من الاعتناء جيداً ببغلي". ونَقَف قطعة معدنية أخرى نحو كينيرلي، الذي التقَطها في الجو. تخيَّل المسلَّح الطريقة التي يلتقط بها الكلب الكُرة.

"طبعاً. هل ستبقى هنا لبعض الوقت؟".

"أظن ذلك. سيكون هناك ماء-".

"-إن شاء الله ذلك! بالتأكيد، بالتأكيد!". ضحكَ كينيرلي بحزن، وقالت عيناه إنه يتمنى رؤية المسلَّح ميتاً عند قدميه. "آليْ لطيفة جداً عندما تريد، أليس كذلك؟"، ثم رسم السائس دائرة في الهواء بقبضته اليسرى وبدأ يُدخل إصبعه الأيمن فيها ويُخرجه منها بسرعة.

"هل قلت شيئاً؟"، سأله المسلَّح عن بُعد.

ظهر رعب مفاجئ في عينَي كينيرلي، مثل قمرين توأمين يسبحان في الأفق. وَضَع يديه خلف ظهره مثل طفل شقي قُبض عليه ويده في وعاء المربى. "لا، سيدي، ولا كلمة. وآسف إذا كنتُ قد قلتُ شيئاً". لمحَ سُوبي متكئة على النافذة وصاح بها، "سأضربك بعنف الآن، أيتها الحقيرة الوقحة! اللعنة عليك! سوف –".

ابتعَد المسلَّح مُدركاً أن كينيرلي استدار ليراقبه، ومُدركاً حقيقة أنه يستطيع أن يستدير ويقبض على السائس وعلى وجهه إحساسٌ حقيقيٌ. لكن لماذا سيكترث بذلك؟ كان الجو حاراً، ويعرف ما سيكون ذلك الإحساس: مجرد كره. كره للدخيل. وقد حصل على كل شيء يستطيع الرجل أن يقدِّمه. الشيء المؤكَّد الوحيد عن الصحراء كان حجمها. الشيء المؤكَّد الوحيد عن البلدة كان أنها غير مستنزَفة بالكامل. ليس بعد.

XI

كان في السرير مع آليْ عندما ركل شِب الباب ودخل حاملاً سكيناً.

كان ذلك في اليوم الرابع، وقد مرَّت الأيام بلمح البصر. كان يأكل. ينام. يقيم علاقة حميمة مع آليْ. وجَد أنها تعزف على الكمان وجَعَلها تعزف له. فكانت تجلس قرب النافذة في الضوء الخفيف للفجر، وتبدو كخيال فقط، وتعزف شيئاً كان سيكون جيداً لو أنها حصلت على بعض التدريب. شعَر بمَوَدّة متزايدة نحوها (لكن بشرود

ذهن غريب) وفكّر أن هذا قد يكون الفخ الذي تركه له الرجل ذو الرداء الأسود. فكان يخرج أحياناً. ولا يعير كل شيء اهتماماً كبيراً.

لم يسمع عازف البيانو يصعد السلالم – فقد تدهورت ردود فعله اللاإرادية. لم يبدُ ذلك مهماً، رغم أنه كان ليقلق جداً لو كان ذلك في زمان أو مكان آخر.

كانت آليْ عارية، وغطاء السرير تحت صدرها، وكانا يستعدان لإقامة علاقة حميمة.

"رجاءً"، كانت تقول. "مثل السابق، أريد ذلك، أريد–".

فُتح الباب عنوةً ودخل عازف البيانو بطريقته المتعثّرة المضحكة. لم تصرخ آليْ، رغم أن شِب كان يحمل سكيناً طولها عشرين سم بيده. كان يُحدث ضجةً، ثرثرة غير مفهومة. بدا مثل رجل يغرق في دلو وحول. والبُصاق يطير في كل مكان. أسقط السكين بيديه، وأمسك المسلَّح معصميه وأدارهما. فطارت السكين في الهواء. وزعق شِب زعقةً عاليةً، مثل باب صدئ. رفرفت يداه في حركات تشبه دمية متحرّكة وقد انكسر معصماه. كانت الرياح تُحدث صريراً على النافذة. وعكست مرآة آليْ على الجدار صورة الغرفة بشكل باهت ومشوَّه.

"كانت لي!"، قال وهو يبكي. "كانت لي قبلك! لي!".

نَظَرت إليه آليْ وقامت من السرير. ارتدت رداءً، وتعاطف المسلَّح للحظات مع رجل لا شك أنه يرى نفسه يخرج من الطرف البعيد لما كان عليه فيما مضى. كان مجرد رجل صغير. وتذكّر المسلَّح فجأة أين رآه من قبل. أين عرَفه من قبل.

"كان لكِ"، قال شِب وهو يشهق. "كان لكِ فقط يا آليْ.

كنتِ أنتِ أولاً وكل شيء لكِ. أنا – آه، يا إلهي، يا إلهي...". تلاشت الكلمات في غموض تام، وتحوَّلت إلى دموع أخيراً. راح يترنّح يميناً ويساراً ضاغطاً معصميه المكسورين على بطنه.

"مهلك. مهلك. دعني أرى". وركَعت بجانبه. "مكسوران. شِب، أيها الأحمق. كيف ستكسب رزقك الآن؟ ألا تعرف أنك لم تكن قوياً أبداً؟". ساعَدته ليقف على قدميه. حاوَل رفع يديه إلى وجهه، لكنهما لم تطيعانه، وبكى بشكل سافر. "اجلس إلى الطاولة ودعني أرى ماذا يمكنني أن أفعل".

قادته إلى الطاولة وثبّتت معصميه بألواح خشبية من صندوق أخشاب الموقد. بكى بضعف ولاإرادياً.

"ميجيس"، قال المسلَّح، ونظر عازف البيانو الصغير حوله بعينين مندهشتين. أومأ المسلَّح برأسه، بلطف كفاية الآن لدرجة أن شِب لم يعد يحاول أن يغرز سكيناً في أحشائه. "ميجيس"، قال مرة أخرى. "على البحر النظيف".

"ماذا بشأنه؟".

"كنت هناك، أليس كذلك؟ منذ سنوات عديدة".

"وماذا لو كنتُ هناك؟ لا أتذكّرك".

"لكنك تتذكر الفتاة، أليس كذلك؟ الفتاة التي تدعى سوزان؟ وليلة الحصاد؟"، احتدّ صوته. "هل كنت هناك للنار المُضرَمة في الهواء الطلق؟".

ارتعَشت شفتا الرجل الصغيرتان. كانتا مغطيتان بالبُصاق. وقالت عيناه إنه يعرف الحقيقة: كان أقرب إلى الموت الآن مما كان عليه عندما

دخل صارخاً والسكين في يده.

"اخرج من هنا"، قال المسلَّح.

لمع الفهم في عينَي شِب. "لكنك كنت مجرد *فتى*! أحد *الفتيان* الثلاثة! كنتَ تعدّ الماشية، وكان إلدريد جوناس هناك، صيّاد التوابيت، و-".

"اخرج بينما لا تزال قادراً على الخروج"، قال المسلَّح، وذهَب شِب حاملاً معصميه المكسورين أمامه.

عادت إلى السرير. "عما كنتما تتحدثان؟".

"لا تهتمّي"، قال.

"حسناً - أين كنا إذاً؟".

"ليس في أي مكان". واستدار على جنبه، بعيداً عنها.

قالت بصبر، "كنت تعرف عنه وعني. لقد فعل ما باستطاعته، والذي لم يكن الكثير، وأخذتُ ما أستطيع، لأنني كنتُ مضطرة. لا مجال لفعل أي شيء. ماذا يوجد هناك أيضاً؟"، لمست كتفه. "ما عدا أنني مسرورة أنك قوي جداً".

"ليس الآن"، قال.

"مَن كانت؟". ثم أجابت على سؤالها بنفسها: "فتاة أحبَبتها".

"انسي الموضوع يا آليْ".

"يمكنني أن أجعلك قوياً-".

"لا"، قال. "لا يمكنك فعل ذلك".

XII

كان المقصف مغلقاً في الليلة التالية. كان ذلك يوم العطلة في تَلّ. ذهَب المسلَّح إلى المعبد المائل الصغير جداً قرب المقبرة بينما كانت آليْ تنظّف الطاولات بمطهِّر قوي وتشطف مصابيح الكاز بالماء والصابون.

حلّ غسق أرجواني غريب، وبدا المعبد، المُضاء من الداخل، من الطريق كما لو أنه فرن لصهر المعادن.

"أنا لا أذهب"، قالت آليْ بعد قليل. "المرأة التي تعظ هناك تقول أفكاراً مسمِّمة. فليذهب المحترَمون".

وَقَف في الردهة، مخفياً في الظل، وراح ينظر إلى الداخل. كانت المقاعد الخشبية الطويلة قد أُزيلت والمتعبّدون يقفون (رأى كينيرلي وفراخه؛ كاستنر، مالك متجر الملابس الجاهزة الهزيل في البلدة وزوجته النحيلة؛ بضعة روّاد دائمين في المقصف؛ وبضع نساء "من أبناء البلدة" لم يرهن أبداً من قبل؛ وشِب، وقد تفاجأ من رؤيته). كانوا يغنّون ترنيمة بشكل غير مُتقَن. نظر بفضول إلى المرأة الجبلية الواقفة عند منبر الوعظ. لقد قالت آليْ: "إنها تعيش لوحدها، وبالكاد ترى أي شخص. تخرج فقط يوم الأحد لتغذّي نار الجحيم. تدعى سيلفيا بيتستون. وهي مجنونة، لكنها تسيطر عليهم. وهم راضون عن هذه الطريقة. تناسبهم".

لا يستطيع أي وصفٍ إيفاء قياسات المرأة حقّها. صدرها مثل الأشغال الترابية. عنقها دعامة ضخمة يعلوها وجه أشبه بقمر أبيض شاحب، وفيه عينان كبيرتان جداً وغامقتين جداً لدرجة أنهما تبدوان كأنهما بحيرتان جبليتان لا قعر لهما. كان شعرها بنياً كثيفاً جميلاً

ومجمَّعاً في أعلى رأسها بشكل عشوائي، وممسوك بدبوس شعر كبير كفاية ليكون سيخ لحم. كانت ترتدي فستاناً بدا مصنوعاً من الخيش. وكانت الذراعان اللتان تُمسكان كتاب الترانيم كبيرة كالألواح. كانت بشرتها كالكريما وصافية وجميلة. قدَّر أن وزنها مئة وخمسين كيلوغراماً. وشعَر بشهوة كبيرة مفاجئة تجاهها جعلت كيانه يتزعزع، وأدار رأسه ونظر بعيداً.

"سوف نتجمَّع عند النهر،
النهـــــــر،
الجميل، الجميل،
سوف نتجمَّع عند النهر،
الذي يتدفَّق في السماوات".

خبَت النغمة الأخيرة للجملة الأخيرة، ومرّت لحظات من الهمهمة والسعال.

انتظَرت. عندما هدأ الجميع، بسطَت يديها فوقهم، كما لو أنها تباركهم. كان إيماءة مثيرة للذكريات.

"إخوتي وأخواتي الصغار الأعزاء في الإيمان".

كانت جملة لا تُنسى بسهولة. شَعَر المسلَّح للحظة بمشاعر مختلطة من الحنين إلى الوطن والخوف، يجمعها شعور مُوحِش *لشيء مألوف سبقت رؤيته*، وفكّر في سرّه: *لقد حلمتُ بهذا. أو كنتُ هنا من قبل. إذا كان الأمر كذلك، متى؟ ليس ميجيس.* لا، ليس هناك. هزّ رأسه ليطرد الشعور من ذهنه. أصبح الجمهور - ربما خمسة

وعشرون شخصاً بالإجمال – صامتاً بالكامل. وكل العيون تنظر إلى المرأة الواعظة.

"موضوع تأمُّلنا هذه الليلة هو المتطفِّل". كان صوتها عذباً شجياً، صوتاً غنائياً مدرَّباً جيداً.

سادت خشخشة بسيطة بين الجمهور.

"أشعر"، قالت سيلفيا بيتستون بشكل تأمليّ، "أنني أعرف تقريباً جميع المذكورين في *الكتاب العظيم* شخصياً. وقد جعلت ثلاث نُسخ من الكتاب تصبح رثّة في السنوات الخمسة الأخيرة. هذا الكتاب النفيس في هذا العالم المريض، وأعداداً لا تُحصى قبل ذلك. أحبّ القصة، وأحبّ اللاعبين فيها. لقد دخلت وكر الأسد مفردة. وكنتُ في أتون النار. وذبحتُ ألفَي شخص عندما رحت أضرب عظمة الفكّ، وأصبحتُ عمياء على الطريق إلى دمشق. وبكيت عند نهر الجبل".

ساد تنهّد ناعم هادئ بين الجمهور.

"لقد عرفتهم وأحببتهم. هناك *واحد* فقط" – ورفعت إصبعاً – "لاعب واحد فقط لا أعرفه في كل الأحداث".

"*واحد* فقط يقف خارجاً ووجهه في الظل".

"*واحد* فقط يجعل جسمي يرتعش وروحي ترتجف".

"أنا أخافه".

"لا أعرف ذهنه وأنا أخافه".

"أخاف المتطفِّل".

تنهيدة أخرى. وضعت إحدى النساء يداً فوق فمها كما لو أنها

تحاول منع صوت وكانت تتأرجح، تتأرجح.

"المتطفِّل الذي أتى متنكراً على شكل أفعى على بطنه في التراب، مبتسماً ومتلوّياً. المتطفِّل الذي سار بين المهاجرين بينما كانوا يصعدون الجبل، وهمَس لهم بأن يصنعوا تمثالاً ذهبياً، عجلاً ذهبياً، ويبجّلوه وهذه قمّة البذاءة والفحشاء".

أنين، إيماءات بالرؤوس.

"المتطفِّل!".

"وَقَف على الشرفة مع إيزابل وراقَبتُ الملك يسقط صارِخاً إلى موته، وابتسما هما الاثنين بينما تجمَّعت الكلاب وراحت تلعق دمه. آه يا إخوتي وأخواتي الصغار، احذروا المتطفِّل".

"نعم، يا إلهي-". هذا كان أول رجل لاحظه المسلَّح عند قدومه إلى البلدة، الرجل الذي يرتدي قبعة قش.

"كان هناك دائماً يا إخوتي وأخواتي. لكنني لا أعرف ذهنه. ولا تعرفون ذهنه *أنتم* أيضاً. مَن يستطيع أن يفهم العتمة المريعة التي تدور هناك، الغرور والتحديف الهائل، الانشراح الفاسق؟ والجنون! الجنون الذي يسير ويزحف ويتلوّى بين أفظع رغبات الرجال؟".

"يا إلهي-".

"كان هو مَن أصعد الرجل الذبيحة إلى الجبل-".

"نعم-".

"كان هو مَن أغراه وعرض عليه كل مُتع العالم-".

"نعمممم-".

"إنه هو الذي سيعود في النهاية... وها هم قادمون، يا إخوتي وأخواتي، ألا تستطيعون أن تشعروا بهم؟".

"نعمممم-".

راحت تتأرجح وتشهق، وأصبح المتعبّدون بحراً؛ وبدت المرأة تشير إليهم كلهم ولا تشير إلى أي واحد منهم في آن.

"إنه هو الذي سيأتي على هيئة دجّال، رجل قرمزي بعينين دمويتين، ليقود الرجال إلى الهلاك، إلى النهاية الدموية للشر، عندما تلتهب النجوم في السماء، عندما تقضم السفاهة الأعضاء الحيوية للأولاد، عندما تلد أرحام النساء مسوخاً، عندما تتحوَّل مصنوعات الرجال إلى دموية-".

"آههههه-".

"يا إلهي-".

سقطت امرأة على الأرض، وارتفعت رجلاها في الهواء وارتطمتا بالخشب، وطارت إحدى فردتَي حذائها.

"إنه هو الذي يقف خلف كل متعة جسدية... هو الذي جَعَل الآلات مع لاميرك تدوس عليهم، *هو!* المتطفِّل!".

لاميرك، فكّر المسلَّح في سرّه. *أو ربما قالت لومارك*. للكلمة بعض الرنين الغامض بالنسبة له، لكنه لم يتمكن من تذكّر ذلك بالضبط. ومع ذلك، خزّنها في ذاكرته، التي كان فسيحة.

"نعم، يا إلهي!"، كانوا يصرخون.

سقط رجل على رُكبتيه، وأمسك رأسه وراح ينهَق.

"عندما تأخذ شراباً، مَن يُمسك الزجاجة؟".

"المتطفّل!".

"عندما تجلس لتشارك في لعبة فارو أو "راقبني"، مَن يقلب أوراق اللعب؟".

"المتطفّل!".

"عندما تشاغب في لحم جسد آخر، عندما تلوّث نفسك بيديك، إلى مَن تبيع نفسك؟".

"ال-".

"مت-".

"آه، يا إلهي... آه-".

"-طّفل-".

"آو...آو...آو...".

"ومَن هو؟"، صاحت. لكنها كانت هادئة داخلياً، كان يمكنه أن يشعر بالهدوء، بالتفوّق، بالسيطرة والهيمنة. فكّر فجأة، برعب ويقين مُطلق، أن الرجل الذي سمّى نفسه والتر قد ترك عفريتاً فيها. كانت مسكونة. شعَر بالهدير الحار للرغبة تجاهها مرة أخرى من خلال خوفه، وفكّر أن هذه كانت بطريقة أو بأخرى مثل الكلمة التي تركها الرجل ذو الرداء الأسود في ذهن آليْ كفخ جاهز للانفجار.

إنهار الرجل الذي كان يُمسك رأسه وتخبّط إلى الأمام.

"أنا في الجحيم!"، صَرَخ بصوتٍ عالٍ في وجهها. وراح وجهه يتلوّى كما لو أن هناك أفاعٍ تزحف تحت جلده. "لقد ارتكبتُ

الفحشاء! لعبتُ بالميسر! تناولتُ التبغ! ارتكبتُ *خطايا!* أنا-". لكن صوته ارتفع نحو السماء في عويل هستيري رهيب. أمسك رأسه كما لو أنه سينفجر في أي لحظة مثل شمامة مُفرطة النُضج.

هدأ الجمهور كما لو أنه أُعطي إشارة بذلك، وتجمَّد الجميع في وضعيات النشوة نصف الإغرائية.

مدَّت سيلفيا بيتستون يديها وأمسكت رأسه. توقَّف بكاء الرجل عندما راحت تمرّر أصابعها، القوية والبيضاء، اللطيفة والتي لا تشوبها شائبة، في شعره. رفع نظره نحوها بصمت.

"مَن كان معك في الخطيئة؟"، سألته. نظرت إلى عينيه مباشرة بشكل عميق كفاية، لطيف كفاية، بارد كفاية لكي تغرق فيهما.

"الـ ... المتطفِّل".

"ومَن هو؟".

"إنه الشر بعينه". وسادت همسات قوية.

"هل ستنكره؟".

بتلهّف: "نعم! نعم! آه، يا إلهي!".

هزّت له رأسه؛ وحدَّق فيها بعينين فارغتين لامعتين متعصّبتين. "إذا مَرّ عبر ذلك الباب" - ووجّهت إصبعاً نحو ظلال الردهة حيث كان المسلَّح يقف - "هل ستنكره في وجهه؟".

"أُقسم بإسم أمي!".

"هل ستتوب إلى الأبد؟".

بدأ يبكي. "أنتِ لعينة - أجل-".

"يسامحك على هذا يا جونسون".

"شكراً"، قال جونسون، وهو لا يزال يبكي.

"أعرف أنه يسامحك تماماً مثلما أعرف أنه سيطرد غير التائبين إلى الظلمات".

"شكراً". قالها المتعبّدون المستنزَفون بوقار.

"تماماً مثلما أعرف أن هذا المتطفِّل، هذا الشرير، رفيق الذباب والثعابين، سيُطرَد إلى الظلمات ويُسحَق... هل ستسحقه إذا رأيته يا جونسون؟".

"نعم، نعم"، قالها جونسون وهو يبكي. "بقدمَي الاثنتين!".

"هل ستسحقونه إذا رأيتموه يا إخوتي وأخواتي؟".

"نعممم...".

"إذا رأيتموه يترنّح في الشارع الرئيسي غداً؟".

"بالتأكيد...".

تراجع المسلَّح عن الباب وتوجَّه إلى البلدة. كانت رائحة الصحراء نقية في الهواء. حان وقت متابعة الرحلة تقريباً.

تقريباً.

XIII

في السرير مرة أخرى.

"لن تراك"، قالت آليْ. بدت خائفة. "فهي لا ترى أي شخص.

بل تخرج فقط مساء كل أحد لتخيف كل شخص".

"منذ متى وهي هنا؟".

"اثنتا عشرة سنة. أو ربما سنتان فقط. الوقت مضحك، مثلما تعرف. دعنا لا نتكلم عنها".

"من أين جاءت؟ من أي اتجاه؟".

"لا أعرف". كذبت.

"آلي؟".

"لا أعرف!".

"آلي؟".

"حسناً! حسناً! أتت من السكان! من الصحراء!".

"هذا ما ظننتُه". استرخى قليلاً. الجنوب الشرقي، بمعنى آخر. على المسار الذي سلكه. المسار الذي كان يستطيع حتى رؤيته من السماء، أحياناً. وخمَّن أن المرأة الواعظة أتت من مسافة أبعد كثيراً من السكان أو حتى الصحراء. كيف سافَرت كل هذه المسافة؟ عبر آلة قديمة لا تزال تعمل؟ قطار ربما؟ "أين تعيش؟".

انخفض صوتها قليلاً. "إذا أخبرتك، هل ستقيم علاقة حميمة معي؟".

"سأقيم علاقة حميمة معك على أي حال. لكنني أريد أن أعرف".

تنهَّدت آلي. كان صوتها أصفر قديماً، مثل صوت الصفحات أثناء قلبها. "لديها منزل فوق الرابية التي خلف المعبد. كوخ صغير. إنه حيث... كان رجل الدين الحقيقي يعيش قبل أن يغادر. هل هذا

يكفي؟ مسرور؟".

"لا. ليس بعد". وتدحرَج فوقها.

XIV

كان اليوم الأخير، وكان يعلم ذلك.

كانت السماء أرجوانية بشعة، مُضاءة من فوق بشكل غريب بأصابع الفجر الأولى. راحت آليْ تتنقّل مثل شبح، فتُضيئ المصابيح، وتهتمّ بفطائر الذرة التي كانت تفرقع في المقلاة. أحبّها كثيراً بعدما أخبرته بما كان يريد أن يعرفه، وأحسّت بقدوم النهاية وأعطت أكثر مما أعطت في كل حياتها، وقد أعطته بيأس عند قدوم الفجر، أعطته بالطاقة الدؤوبة للستة عشر. لكنها كانت شاحبة هذا الصباح، على شفير سن اليأس مرة أخرى.

قدَّمت له الطعام من دون كلمة. أكَل بسرعة، فراح يمضغ ويبلع، ويطارد كل لقمة بالقهوة الساخنة. ذهَبت آليْ إلى الباب الشبيه بجناحَي الوطواط ووَقَفت تحدِّق بالصباح في الخارج، بالكتائب الصامتة للسُحُب البطيئة الحركة.

"سيكون الغبار كثيفاً اليوم".

"لستُ متفاجئاً".

"وهل تتفاجأ من الأصل؟"، سألته بسخرية واستدارت لكي تراقبه يرتدي قبعته. ثبّتها برأسه وسار متخطياً لها.

"أحياناً"، قال لها. رآها حيّة مرة أخرى فقط.

XV

عندما وَصَل إلى كوخ سيلفيا بيتستون، كانت الرياح قد هدأت كلياً وبدا العالم كله في حالة انتظار. لقد أقام في بلد صحراوي مدة طويلة كفاية ليعرف أنه كلما طال الركود، كلما اشتدّت قوة العاصفة عندما تهبّ أخيراً. كان هناك نور مسطَّح غريب يغطي كل شيء.

كانت هناك شارة خشبية كبيرة معلَّقة على باب المكان، الذي كان مائلاً ومُتعَباً. طَرَقه وانتظَر. لا جواب. طَرَق مرة أخرى. لا جواب. خطا خطوة إلى الوراء وركل الباب ركلةً قويةً برجله اليمنى. فوقع مسمار ملولب صغير على الجهة الداخلية. وارتطم الباب بجدار مكسو بألواح خشبية بطريقة عشوائية وأخاف الجرذان وجعلها تفرّ بسرعة. كانت سيلفيا بيتستون تجلس في القاعة، على كرسي هزّاز عملاق مصنوع من الخشب الحديدي، وتنظر إليه بهدوء بتلك العينين الرائعتين والداكنتين. كان نور العاصفة ينعكس على خدّيها والشال الذي ترتديه بتدرّجات مجنونة. كان الكرسي الهزّاز يُصدر صريراً خافتاً جداً.

نظرا إلى بعضهما البعض للحظة طويلة.

"لن تقبض عليه أبداً"، قالت. "أنت تسير في طريق الشر".

"لقد أتى إليك"، قال المسلَّح.

"وإلى سريري. تكلَّم معي باللغة الراقية. لقد-".

"لقد أذاكِ. بكل ما للكلمة من معنى".

لم تجفل. "أنت تسير في طريق الشر أيها المسلَّح. تقف في الظلال. لقد وَقَفت في ظلال المكان المبجَّل ليلة البارحة. هل ظننتَ

أنني لم أكن قادرة على رؤيتك؟".

"لماذا داوى آكل التبغ؟".

"إنها نِعمة من الله. هكذا قال".

"آمل أن يكون قد ابتسم عندما قال ذلك".

رفعت شفتيها عن أسنانها بإيماءة متوحشة. "لقد أخبرني أنك ستلاحقه. وأخبرني ماذا عليَّ أن أفعل. قال إنك الدجّال".

هزّ المسلَّح رأسه. "لم يقل هذا".

ابتسمت له بكسل. "قال إنك ستريد إقامة علاقة حميمة معي. هل هذا صحيح؟".

"هل التقيتِ يوماً رجلاً لم يرغب أن يقيم علاقة حميمة معك؟".

"سعر لحمي سيكون حياتك أيها المسلَّح. لقد جعلني حاملاً. ليس طفله، بل طفل ملك عظيم. إذا غزوتني...". وتركت الابتسامة الكسولة تُكمل فكرتها، وأومأت في الوقت نفسه بفخذيها الضخمين. كانا يمتدّان تحت ثوبها كألواح رخامية نقية. كان التأثير مذهلاً.

أنزل المسلَّح يديه إلى عقبَي مسدسيه. "أنت حامل بعفريت يا امرأة، وليس بملك. لكن لا تخافي. يمكنني إزالته".

كان التأثير فورياً. فانقبضت في الكرسي، ولمعت نظرة ابن عرس على وجهها. "لا تلمسني! لا تقترب مني! لن تجرؤ على لمس عروس مبجَّلة!".

"هل تريدين أن تتحدّيني حول ذلك؟"، قال المسلَّح. ومشى نحوها. "مثلما قال اللاعب عندما أوشك على النهاية، فقط راقبيني".

ارتعد جسمها بأكمله. وارتسمت نظرة رعب كبير على وجهها، ورسمت علامة العين نحوه بأصابع مدبَّبة.

"الصحراء"، قال المسلَّح. "ماذا يوجد بعد الصحراء؟".

"لن تقبض عليه أبداً! أبداً! أبداً! ستحترق! لقد أخبرني ذلك!".

"سأقبض عليه"، قال المسلَّح. "كلانا يعرف ذلك. ماذا يوجد بعد الصحراء؟".

"لا!".

"أجيبيني!".

"لا!".

اقترب منها أكثر، وجثا على رُكبتيه، وأمسَك فخذيها. أغلقت رجليها مثل مِلزمة. وأصدرت أصواتاً شهوانيةً غريبةً.

"العفريت، إذاً"، قال. "ها هو يخرج".

"لا-".

أبعَدَ لها رجليها وأخرج أحد مسدساته من قِرابه.

"لا! لا! لا!". وراحت أنفاسها تتقطّع.

"أجيبيني".

ترنّحت على الكرسي وارتعَشت الأرضية. وبدأت تتمتم صلوات وبعض النصوص المبجَّلة.

ضغط فوهة المسدس بقوة إلى الأمام. كان يمكنه الشعور بتنفّسها المرتعب أكثر مما يمكنه سماعه. راحت تضرب رأسه بيديها، وتخبط

رجليها على الأرض. وفي الوقت نفسه حاوَل جسدها الضخم امتصاص الغازي. لا شيء في الخارج كان يراقبهما سوى السماء المليئة بالغبار.

صَرَخت شيئاً بصوتٍ عالٍ وغير واضح.

"ماذا؟".

"الجبال!".

"ماذا بشأنها؟".

"سيتوقف... عند الجهة الأخرى... يا إلهي!... لكي يستعيد قوته. التأ-أ-التأمُّل، هل تفهم؟ آه... أنا... أنا...".

اهتزّ جبل اللحم الضخم بأكمله صعوداً ونزولاً فجأة، لكنه كان حذراً من عدم ترك لحمها الغامض يلمسه.

ثم بدت وكأنها تذبل وتصبح أصغر حجماً، وبكت واضعةً يديها في حُضنها.

"إذاً"، قال وهو ينهض. "لقد تمت خدمة العفريت، إيه؟".

"اخرج. لقد قتلت إبن الملك القرمزي. لكنك ستُجازى. أنا أؤكّد وأضمن لك ذلك. الآن اخرج. اخرج".

وقَف عند الباب ونظر إلى الخلف. "لا طفل"، قال بإيجاز. "لا نِعمة، لا أمير، لا عفريت".

"اتركني وشأني".

ففعل.

XVI

عندما وَصَل إلى بيت كينيرلي، كان غموض غريب قد ملأ الأفق الشمالي وعرِف أنه بسبب الغبار. كان الهواء فوق تَلّ لا يزال هادئاً جداً.

كان كينيرلي ينتظره على المنصة المليئة بالقش التي كانت أرضية حظيرته. "مغادرٌ؟". وابتسم بشكل خسيس للمسلَّح.

"أجل".

"ليس قبل العاصفة؟".

"أمامها".

"الرياح أسرع من أي رجل يمتطي بغلاً. يمكنها قتلك في العراء".

"أريد البغل الآن"، قال المسلَّح ببساطة.

"بالتأكيد". لكن كينيرلي لم يستدر، بل بقي واقفاً كما لو أنه يبحث عن شيء آخر ليقوله، مبتسماً ابتسامته المتذلِّلة المليئة بالكراهية، ورافعاً عينيه إلى فوق كتف المسلَّح.

تنحّى المسلَّح جانباً واستدار في الوقت نفسه، ومرَّت العصا الخشبية الثقيلة التي كانت الفتاة سُوبي تحاول ضربه بها في الهواء ملامسةً مِرفقه فقط. أفلتت منها بسبب قوة ضربتها وارتطمت بالأرض مُحدثةً ضجةً عاليةً، مما أجفل سنونو المخازن وجعلها تطير هاربةً.

نَظَرت إليه الفتاة بخمول. كان صدرها يضجّ بنُضج مُفرط في قميصها الذي بهتت ألوانه جرّاء الغسيل المتكرِّر. وسعى إبهامها إلى ملاذ فمها ببطء مثل الأحلام.

عاد المسلَّح واستدار إلى كينيرلي. كانت ابتسامة كينيرلي ضخمة، وبشرته شمعية صفراء، وعيناه تتدحرَجان في مِحجريهما. "أنا..."، بدأ يهمس بفم مليء بالبلغم ولا يستطيع متابعة كلامه.

"البغل"، حَثَّه المسلَّح بلطف.

"بالتأكيد، بالتأكيد، بالتأكيد"، همَس كينيرلي، وأُضيف إلى ابتسامته الآن عدم التصديق أنه لا يزال حيّاً. جرّ قدميه لكي يُحضره.

تحرّك المسلَّح إلى مكان يمكنه أن يرى فيه إلى أين ذهب الرجل. أحضَر السائس البغل وسلّمه اللجام. "ادخلي واعتني بأختك"، قال لسُوبي.

مكتبة

لكن سُوبي رفضت ولم تتحرّك.

تركهما المسلَّح هناك، يحدِّقان في بعضهما البعض على الأرضية المليئة بالغبار والرَوث، هو بابتسامته المريضة، وهي بتحدّيها الجامد المغفّل. كانت الحرارة في الخارج لا تزال حارقة.

XVII

قاد البغل وسط الشارع، وكانت جزمته تجعل ذرّات الغبار تتطاير في الهواء. وقد ربط أكياس مائه الممتلئة بالكامل على ظهر البغل.

توقّف عند تونك، لكن آليْ لم تكن هناك. كان المكان مهجوراً، مُغلقاً بإحكام استعداداً للعاصفة، لكنه لا يزال وسخاً من الليلة السابقة، وتفوح منه الرائحة الكريهة لشراب الشعير الرديء.

عبّأ كيسه بدقيق الذرة، وذرة مجفَّفة ومشوية، ونصف الدجاج

النيئ في حاوية التبريد. ترَك أربع قطع ذهبية مكدّسة على المنضدة الخشبية. لم تنزل آليْ. وودّعه بيانو شِب وداعاً صامتاً. خرج وربط الكيس بإحكام على ظهر البغل. شعر بضيق في حنجرته. قد لا يزال قادراً على تجنّب الفخ، لكن الاحتمالات كانت ضئيلة. فهو كان، في النهاية، المتطفِّل.

تابع سيره متخطياً الأبنية المغلقة المنتظرة، وشعر بالعيون التي تحدِّق به عبر التشقّقات والصدوع. لقد تظاهر الرجل ذو الرداء الأسود أنه رجل خيِّر في تَلّ. وتكلَّم عن إبن ملك، أمير أحمر. هل كان ذلك مجرد هزلٍ كونيّ، أو مسألة يأس؟ كان سؤالاً مهماً بعض الشيء.

سمع صرخة حادة قلِقة خلفه، وفُتحت الأبواب فجأة. واندفعت أشكالٌ. لقد انطلق الفخ. رجال في ملابس داخلية طويلة ورجال في سراويل وسخة. ونساء في سراويل فضفاضة وفي فساتين باهتة. حتى أولاد، يلحقون أهاليهم. وفي كل يد هناك قطعة خشبية أو سكين.

كانت ردة فعله تلقائية فورية. فاستدار بسرعة وأخرج مسدسيه من قِرابيهما، وكان عقباهما ثقيلين وثابتين في يديه. كانت آليْ، وبالطبع كان يجب أن تكون آليْ، قادمة إليه بوجهها المشوَّه، والندبة أرجوانية نارية في الضوء المتضائل. رأى أنها كانت رهينة؛ ووجه شِب المشوَّه والمبتسم يحدِّق فيه من فوق كتفيها. كانت درعه وضحيته. رأى كل شيء واضحاً وجلياً في الضوء السرمدي الجامد للهدوء العقيم، وسمعها:

"اقتلني، رولاند، اقتلني! لقد قلتُ الكلمة، *تسعة عشر*، قلتُها، وقال لي... *لا أستطيع أن أتحمل ذلك*-".

كانت اليدان مدّربتين على إعطائها ما أرادته. كان آخر سلالته

ولم يكن فمه فقط الذي يعرف اللغة الراقية. فعزف المسدسان أنغامهما الثقيلة في الهواء. ارتعش فمها وارتخت وأطلق المسدسان النار مرة أخرى. ربما آخر تعبير على وجهها كان الامتنان. ارتدّ رأس شِب إلى الخلف. وسقط الاثنان على التراب.

لقد ذهبا إلى أرض التسعة عشر، فكّر في سرّه. مهما كان هناك.

تطايرت العُصي في الهواء، ونزلت عليه كالمطر. فحاول تفاديها. ارتطمت واحدة فيها مسمار مثبّت بشكل غير مُتقَن بذراعه وسال الدم. واندفع نحوه رجل ذو لحية وإبطَين ملطَّخين بالعرق حاملاً سكين مطبخ كليلة في إحدى يديه. أطلق المسلَّح النار عليه فأرداه قتيلاً وسقط بقوة في الشارع. طارت أسنانه الزائفة عندما ارتطم ذقنه بالأرض وحطّت مبتسمةً لامعةً على التراب.

"شيطان!"، كان أحدهم يصرخ: "ملعون! أقضوا عليه!".

"المتطفِّل!"، صاح صوت آخر. واستمرّت العُصي تُمطر عليه. ارتطمت سكينٌ بحذائه وارتدّت. "المتطفِّل! الدجّال!".

شقّ طريقه عبرهم بقوة، وراح يركض بينما تساقطت الأجساد من حوله، ويداه تختاران الأهداف بسهولة ودقة متناهية. سقط رجلان وامرأة، وركض عبر الفجوة التي أحدثوها.

قادهم كما لو أنه استعراض محموم في الشارع نحو المخزن العام/صالون الحلاقة المتخلِّع الذي كان يواجه شِب. صعد الممشى الخشبي، واستدار مرة أخرى، وأطلق بقية رصاصاته في الحشود المهاجمة. خلفهم، كان شِب وآليْ والآخرون مستلقين بهدوء على التراب.

لم يترددوا أو يترنّحوا أبداً، رغم أن كل رصاصة أطلقها أصابت

بقعة حيوية ورغم أنهم لم يروا مسدساً أبداً من قبل على الأرجح.

تراجَع محرّكاً جسده مثل راقصة لتجنّب القذائف الطائرة. أعاد التلقيم أثناء ذلك، بسرعة كانت أصابعه قد تدرَّبت عليها أيضاً. فراحت تتنقّل بنشاط بين أحزمة المسدسات والأسطوانات. صعد الرُعّاع الممشى الخشبي فركلَ الباب المُغلق للمخزن العام ودخله. تحطَّمت نافذة العرض الكبيرة اليمنى إلى الداخل واقتحمها ثلاثة رجال. كانت وجوههم فارغة بحماسة، وعيونهم ممتلئة بنار متوقدّة. أطلق النار عليهم جميعاً، وعلى الرجلين اللذين لحقا بهم. وَقَعوا على النافذة، وتدلّوا على شظايا الزجاج الناتئة، فسدّوا الفتحة.

إنهار الباب تحت ثقل وزنهم وكان يمكنه سماع *صوتها*: "القاتل! أرواحكم! الحافر المشقوق!".

انخلعت مِفصَلات الباب وسقط إلى الداخل، مُحدثاً صوتاً يشبه التصفيق. وتطاير الغبار عن الأرض. اقتحم رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ المكان. تناثر البُصاق وخشب الموقد في جميع الاتجاهات. أفرغ مسدسيه ووَقَعوا مثل أحجار الشطرنج. انسحَب إلى داخل صالون الحلاقة، حيث وجد برميل طحين، فدحرجه صوبهم، رامياً وعاء ماء مغلي يحتوي على موسَي حلاقة. فتقدّموا صارِخين مضطربين. كانت سيلفيا بيتستون تحضّهم من مكان ما، وصوتها يرتفع وينخفض بتدرّجات متهوّرة. دفَع رصاصات في الحجرات الساخنة، وهو يشمّ عبير مساحيق الحلاقة وشعر الرأس، ويشمّ رائحة جسده الشخصية بسبب احتراق بشرته على رؤوس أصابعه.

عَبَر الباب الخلفي وخرج إلى الشرفة. أصبح الدَغَل المسطَّح خلفه

الآن، متبرّئاً كلياً من البلدة التي تربض عند خاصرته الوسخة. أسرَعَ ثلاثة رجال حول المنعطف، مبتسمين ابتسامات خيانة كبيرة. رأوه، ورأوه يراهم، وتخثَّرت ابتساماتهم في اللحظة التي حصَدَهم فيها. لحقتهم امرأة وهي تعوي. كانت ضخمة وسمينة ومعروفة بين زبائن شِب بالعمّة ميل. أرداها المسلَّح وهو مُدير ظهره لها، وحطَّت في انبطاح فاسق، حيث انحشرت تنورتها بين فخذيها.

نزل الدرجات وسار خلفياً إلى الصحراء: عشر خطوات، عشرون خطوة. فُتح الباب الخلفي لصالون الحلاقة واندفعوا إلى الخارج. لمحَ سيلفيا بيتستون بينهم ففتَح النار. انبطحوا جميعاً، يميناً ويساراً، وانقلبوا فوق الدرابزين نحو التراب. لم يلقوا أي ظلال في ضوء النهار الأرجواني السرمدي. أدرَك أنه كان يصرخ. كان يصرخ طوال الوقت. شَعَر أن عينيه مثل أسناد كروية مكسورة. وانقبضت كل أمعائه في بطنه. كانت رجلاه خشبيتين، وأذناه حديديتين.

فرُغ المسدسان وارتفعت حرارتهما إلى درجة كبيرة، وأصبحا كما لو أنهما عين ويد، فوَقَف يصرخ وهو يعيد تلقيمهما، وذهنه شارد بعيداً، تاركاً يديه تنفّذان عملية إعادة التلقيم تلقائياً. هل يمكنه أن يرفع يده ويُخبرهم أنه أمضى ألف سنة يتعلَّم هذه الخدعة وغيرها، ويُخبرهم عن المسدسات والدم الذي أساله؟ ليس بفمه. لكن يديه تستطيعان أن تروِيا حكايتهما الخاصة.

كانوا في مرمى نيرانه عندما انتهى من إعادة التلقيم، وأصابته عصا على جبهته فسال الدم في قطرات تثير الحكّ. سيصبحون على مرمى حجر بعد ثانيتين. رأى كينيرلي في طليعتهم؛ وخلفه ابنته الصغرى سُوبي، ربما في الحادية عشرة من عمرها؛ ورجلان من روّاد المشرب

الدائمين؛ وبائعة هوى تدعى آيمي فيلدون. تركهم ينالون نصيبهم جميعاً، والذين كانوا خلفهم. سقطت أجسادهم بقوة مثل فزّاعات العصافير. وتطايرت الدماء والأدمغة في كل حدب وصوب.

توقفوا للحظة، جافلون، وتشظّت وجوه الرُعّاع إلى وجوه فردية مرتبِكة. راح رجل يركض في دائرة كبيرة وهو يصرخ. ورفعت امرأةٌ ذات يدين مليئتين بالبثور رأسها وقوقأت بقوة كبيرة نحو السماء. الرجل الذي كان قد رآه قبل الآخرين جالساً بكل جدّية على درجات المخزن التجاري أنزل حمولة مفاجئة وكبيرة في بنطلونه.

كان لديه الوقت ليعيد تلقيم مسدس واحد.

ثم رأى سيلفيا بيتستون تركض نحوه وهي تلوّح بشارة خشبية في كل يد. "شيطان! شيطان! شيطان! قاتل الأطفال! مسخ! اقتلوه يا إخوتي وأخواتي! اقتلوا المتطفِّل قاتل الأطفال!".

وَضَع رصاصة في كل حجرة من حجرات المسدس، وفجَّر الشارتين الخشبيتين إلى شظايا، وأفرغ أربع رصاصات في رأس المرأة. بدت وكأنها انطوت فوق نفسها وارتعشت مثل تلألؤ الحرارة.

بقي الجميع يحدِّقون فيها للحظات، بينما كانت أصابع المسلَّح تُظهر براعتها في إعادة التلقيم. كانت رؤوس أصابعه تُحرقه، وقد ظهرت دوائر منظَّمة على كل واحد منها.

أصبح عددهم أقل الآن؛ فقد استعرضهم مثل منجل الحصّادة. ظنَّ أنهم سيتوقفون بعد موت المرأة، لكن شخصاً رمى سكيناً أصابه مقبضها بين عينيه وأسقطه أرضاً. ركضوا نحوه في كتلة وحشية. أفرغ مسدسيه فيهم مرة أخرى، وهو جالس مُنهك القوى. كان رأسه يؤلمه

ورأى دوائر بنية كبيرة أمام عينيه. أخطأ في طلقة واحدة، وأسقَطَ أحد عشر واحداً بالبقية.

لكنهم وصلوا إليه، أولئك الذين بقوا أحياء. أطلق الرصاصات الأربعة التي تمكّن من إعادة تلقيمها، ثم انهالوا عليه يضربونه ويطعنونه. تخلّص من اثنين منهم بذراعه اليسرى وتدحرَج بعيداً. بدأت يداه تُظهران براعتهما الكبيرة. طُعن في كتفه. طُعن في ظهره. أُصيب في أضلاعه. طُعن في مؤخرته بما قد يكون شوكة لحوم. راوغه فتى صغير وسبَّب له الجرح العميق الوحيد، على ربلته. ففجَّر له المسلَّح رأسه.

كانوا يتبعثرون وجعلهم ينالون نصيبهم مرة أخرى، مُطلقاً النار عليهم من الخلف الآن. بدأ ما تبقّى منهم ينسحبون نحو الأبنية المنقورة الملوَّنة بلون الرمال، ولا تزال يداه تُظهران براعتهما، مثل الكلاب المتلهّفة جداً التي لا تريد أن تؤدّي لك حركة التدحرج التي تبرع فيها مرةً أو مرتين بل طوال الليل، وكانت اليدان تصرعهم أثناء ركضهم. وصل الأخير إلى درجات شرفة صالون الحلاقة، ثم أصابته رصاصة المسلَّح في مؤخرة رأسه. "آخخخ!"، صاح الرجل، ثم سقط. كانت هذه آخر كلمة لتَلّ حول هذه المسألة.

عاد الصمت، مالئاً الفراغ.

كان المسلَّح ينزف من حوالي عشرين جرحاً مختلفاً، كلها سطحية ما عدا الجرح الذي في ربلته. ربَطه بقطعة من قميصه ثم وقف وراح يتفحّص قتلاه.

كانوا ممدّدين في مسار متعرّج من الباب الخلفي لصالون الحلاقة إلى حيث كان يقف. وفي كل الوضعيات. لا أحد منهم بدا نائماً.

تبَع قافلة الموت، وراح يعدّهم. في المخزن العام، رأى رجلاً منبطحاً وقد لفّ ذراعيه بمحبة حول مرطبان الحلوى المكسور الذي كان قد سحبه معه.

انتهى به المطاف حيث بدأ، في وسط الشارع الرئيسي المهجور. لقد قتل تسعة وثلاثين رجلاً، وأربع عشرة امرأة، وخمسة أولاد. قتل الجميع في تَلّ.

شمَّ رائحة حلوة مقزِّزة عند هبوب أول ريح جافة. تبَعها، ثم رفع نظره وأومأ برأسه. كان الجسد المتحلّل لنورت ممدّداً منفرِج الذراعين والساقين على سقف مطعم شِب، ومثبّتاً عليه بأوتاد خشبية. كان فمه وعيناه مفتوحة، وهناك آثار لحافر مشقوق كبير وأرجواني ضُغط على جبهته الوسِخة.

خرج المسلَّح من البلدة. كانت الرياح تعزف لحناً في الخارج، وبغله يقف في أجمة تبغ تبعُد حوالي أربعين متراً عند أطلال طريق الحافلات. فأعاده إلى إسطبل كينيرلي في الوقت الحاضر وعاد إلى تونك. وجَد سُلَّماً في الحظيرة الخلفية، واستخدمه ليصعد إلى السطح، وفكّ وثاق نورت. كان جسده أخفّ وزناً مما توقَّع. دحرجه إلى الأسفل لكي ينضمّ إلى عامة الشعب، أولئك الذين عليهم أن يموتوا مرة واحدة فقط. ثم عاد إلى الداخل، وأكل بعض قطع الهمبرغر، وشرِب ثلاثة أكواب شراب شعير بينما بهُت الضوء وبدأت الرمال تتطاير. نام تلك الليلة في السرير الذي كان ينام فيه مع آليْ. لم يحلم أي أحلام. في الصباح التالي، كانت الرياح قد هدأت والشمس ساطعة كالعادة. انتقلت الجثث جنوباً مثل نباتات متدحرجة مع الريح. في منتصف الصباح، بعد أن ضمّد كل جروحه، تابع مسيره أيضاً.

XVIII

ظنَّ أن براون نام. كانت النار قد خفتت إلى مجرد شرارة، ووضع الطير، زولتان، رأسه تحت جناحه.

تماماً عندما كان على وشك النهوض وبسط فراش القش في الزاوية، قال براون، "ها قد رويت كل الرواية. هل تشعر بتحسّن؟".

فأجابه المسلَّح، "ولماذا سأشعر بالسوء؟".

"قلت إنك بشري، ولستَ عفريتاً. أم كنت تكذب؟".

"لم أكذب". شعَر بالإقرار الحاقِد في نفسه: كان براون يروق له. حقاً. ولم يكذب عليه بأي طريقة. "مَن أنت يا براون؟ حقاً، أعني".

"مجرد أنا"، قال برباطة جأش. "لماذا عليك أن تظنّ أنك في وسط غموض كبير؟".

أشعل المسلَّح سيجارة من دون أن يردّ عليه.

"أظن أنك قريب جداً من رجلك ذي الرداء الأسود"، قال براون. "هل هو يائس؟".

"لا أعرف".

"وأنتَ؟".

"ليس بعد"، قال المسلَّح. نَظَر إلى براون ببعض التحدي. "أنا أذهب إلى حيث يجب أن أذهب، وأفعل ما يجب أن أفعله".

"هذا جيد إذاً"، قال براون واستدار ونام.

XIX

في الصباح التالي، أطعَمَه براون وأرسله في طريقه. كان شكلاً مدهشاً في ضوء النهار بصدره الهزيل المحترق من الشمس، وعظام الترقوة الرفيعة كالقلم، وشعره الأحمر الكثّ. جثم الطير على كتفه.

"البغل؟"، سأل المسلَّح.

"سآكله"، قال براون.

"حسناً".

مدّ براون يده وصافحها المسلَّح. أومأ الساكن برأسه إلى الجنوب الشرقي. "سِر بسلام. أيام طويلة وليالي لطيفة".

"وأتمنى لك ضعف عددها".

أومأا برأسيهما لبعضهما البعض ثم ابتعد الرجل الذي سمّته آليْ رولاند، وجسده مُزدانٌ بمسدسين وماء. نظر إلى الخلف مرة واحدة. كان براون يقتلع بشراسة في حقل الذرة الصغير الخاص به، وكان الغراب يجثم على السقف المنخفض لمنزله كما لو أنه ميزاب للمياه.

XX

كانت النار قد انطفأت، والنجوم بدأت تشحب. والريح تعصف بلا هوادة، ولا تروي روايتها لأحد. ارتعَش المسلَّح في نومه وهمد مرة أخرى. كان يحلم حلماً عطشاناً. كانت الجبال غير مرئية في الظلمة. وتضاءلت كل أفكار الذنب، كل مشاعر الندم. فقد أحرقتها الصحراء. وجَد نفسه يفكِّر أكثر فأكثر بكورت، الذي علَّمه كيفية إطلاق النار.

كان كورت يعرف الأسود من الأبيض.

تحرَّك مرة أخرى واستيقظ. وَمَض للنار المنطفئة بشكله المركَّب فوق الشكل الآخر الهندسي أكثر. كان يعرف أنه عاطفي، وحمَى هذه المعلومة بقوة. كانت سراً لم يُطلع سوى قلّة من الأشخاص عليه على مر السنوات. أحدهم الفتاة التي تدعى سوزان، الفتاة من ميجيس.

هذا، بالطبع، جَعَله يفكِّر بكورت مرة أخرى. كان كورت ميتاً. كان الجميع موتى، ما عداه. الحياة استمرّت.

حمل المسلَّح مسدسه على كتفه وانتقَل معه.

الفصل 2

المحطة الوسطية

I

كانت أغنية للأطفال تكرّر نفسها في ذهنه طوال اليوم، بالطريقة المجنِّنة للأشياء التي لن تزول، التي تتجاهل كل أوامر العقل الواعي بالتوقف. كانت الأغنية تقول:

المطر في اسبانيا يتساقط على السهل.
هناك الفرح والألم أيضاً
لكن المطر في اسبانيا يتساقط على السهل.

الزمن ورقة، الحياة لطخة،
كل الأشياء التي نعرفها ستتغيَّر
وكل تلك الأشياء تبقى كما هي،
لكن سواء كنت مجنوناً أو عاقلاً فقط،
المطر في اسبانيا يتساقط على السهل.

نسير في الحب لكنها نطير في السلاسل
والطائرات في اسبانيا تتساقط في المطر.

لم يكن يعرف ماذا كانت تفعل الطائرة في سياق المقطع الأخير للأغنية، لكنه كان يعرف لماذا تذكّر الأغنية في المقام الأول. كان هناك الحلم المتكرر لغرفته في الحصن ولأمه التي كانت تغنّيها له بينما يستلقي بوقار في السرير الصغير جداً قرب النافذة المتعدّدة الألوان. لم تكن تغنّيها في أوقات النوم لأن كل الفتيان الصغار المولودين للغة الراقية يجب أن يواجهوا الظلام لوحدهم، بل كانت تغنّيها له في أوقات القيلولة، ويمكنه تذكّر المطر الرمادي الثقيل الذي تشظّى إلى أقواس قزح على اللحاف؛ ويمكنه الشعور ببرودة الغرفة والدفء الثقيل للبطانيات، وحبّه لأمه وشفتيها الحمراوين، واللحن الذي لا يُنسى بسهولة للكلمات التافهة الصغيرة، وصوتها.

عادت الأغنية الآن بشكل مجنّن، مثل كلب يطارد ذيله في ذهنه بينما يسير. انتهى كل مائه، وكان يعرف أنه أصبح في عداد الموتى بنسبة كبيرة. لم يتوقّع أبداً أن تصل الأمور إلى هذا الحدّ، وكان متأسفاً. بدأ منذ الظهر يراقب قدميه بدلاً من الطريق التي أمامه. هنا حتى العشب الشيطاني واهنٌ وأصفر. والطبقة الصلدة تلاشت إلى مجرد أنقاض في بعض الأماكن. لم تكن الجبال أوضح بشكل ملحوظ، رغم مرور ستة عشر يوماً منذ أن غادر كوخ آخر عِزبة على حافة الصحراء. كان مالكها شاباً معتوهاً يملك طيراً، تذكّره المسلَّح، لكنه لم يتمكن من تذكّر إسم الطير.

راح يراقب قدميه تتحرّكان صعوداً ونزولاً مثل نِير النَول، ويستمع إلى الأغنية التافهة تكرّر نفسها بشكل مثير للشفقة في ذهنه، وتساءل متى سينهار لأول مرة. لم يرغب أن ينهار، رغم أنه لم يكن هناك أحد لكي يراه. كانت مسألة غرور فقط لا غير. فالمسلَّح يعرف الغرور، تلك

العظمة غير المرئية التي تُبقي العنق مشدوداً. ما لم يحصل عليه من أبيه حُشر فيه عبر كورت. كورت، نعم، بأنفه الأحمر ووجهه ذي الندوب.

توقّف ورفع نظره فجأة. هذا جَعَل رأسه يطنّ وبدا جسده للحظة وكأنه عائم في الهواء. بدت الجبال حلماً في الأفق البعيد. لكن كان هناك شيء آخر أمامه، شيء أقرب بكثير. ربما على بُعد ثمانية كيلومترات فقط. نظر إليه شزراً، لكن عينيه سُفعتا بالرمل وأعماهما التوهّج. هزَّ رأسه وبدأ يسير مرة أخرى. عادت الأغنية تتكرّر في ذهنه. سقط بعد حوالي ساعة وانجرحت يداه. نَظَر غير مصدِّق إلى قطرات الدم الصغيرة على بشرته الممزقة. لم يبدُ الدم أقل كثافة؛ كان يشبه أي دم، يُحتضَر الآن في الهواء. بدا معتدّاً بنفسه مثل الصحراء تقريباً. نفض القطرات بعيداً عنه، وشعر بكره كبير نحوها. معتدّ بنفسه؟ لما لا؟ لم يكن الدم عطشاناً. كان يتم تقديم الدم. كان الدم يضحّي بنفسه لنفسه. تضحية دموية. كل ما كان على الدم فعله هو الركض... والركض... والركض.

نَظَر إلى البُقع التي حطَّت على الطبقة الصلدة وراقَب كيف امتصتّها بمباغَتة غريبة. ما رأيك بهذا أيها الدم؟ كيف يناسبك هذا؟

يا إلهي، لقد أوشكتُ على النهاية.

نهض واضعاً يديه على صدره، والشيء الذي رآه سابقاً كان أمامه تقريباً، قريب جداً لدرجة أنه جَعَله يصرخ – صرخةً مختنقة بالغبار تشبه نعيق الغراب. كان بناءً. لا، *بناءين*، مُحاطَين بسور خشبي متهدّم. بدا الخشب قديماً وهشّاً؛ كان خشباً يتحوَّل إلى رمال. كان أحد البناءين إسطبلاً فيما مضى – فشكله واضح وجليّ. والآخر منزلاً

أو نزلاً. محطة وسطية في خط الحافلات. كان المنزل الرملي المترنِّح (كَسَتْ الرياح الخشب بالرمال إلى أن أصبح يشبه حصناً رملياً أرهقته الشمس في أدنى درجات الجَزْر وقسَّتهُ إلى مسكن مؤقت) يُلقي ظلاً رفيعاً، وهناك شخص يجلس في الظل، متكئاً على البناء. وبدا البناء يميل تحت ثقل وزنه.

هو، إذاً. أخيراً. الرجل ذو الرداء الأسود.

وَقَف المسلَّح ويداه على صدره، غير مُدرك لوقفته الخطابية، وراح يحدِّق ببلاهة. لكن بدلاً من التشويق الهائل الذي كان يتوقعه (أو ربما الخوف أو الرهبة)، لم يكن هناك شيء سوى الذنب الخافت للكراهية المستعِرة المفاجئة للحظات دمه السابقة وأغنية الطفولة اللانهائية:

...المطر في اسبانيا...

تقدَّم إلى الأمام، شاهراً أحد مسدسَيه.

...يتساقط على السهل.

قطع آخر كيلومتر بخطوات سريعة مرتجّة دون أن يحاول إخفاء نفسه؛ لم يكن هناك شيء ليختبئ خلفه. سابَقَه ظله القصير. لم يكن يُدرك أن وجهه أصبح قناع موت رمادياً ومليئاً بالغبار من الاستنزاف؛ لم يكن يُدرك أي شيء سوى الشكل الذي في الظل. لم يخطر على باله إلا لاحقاً أن الشكل قد يكون ميتاً.

رَكَلَ أحد قضبان السور المائلة (فانكسر إلى قطعتين من دون إحداث أي صوت، كما لو أنه يعتذر تقريباً) واندفع في فناء الإسطبل الصامت والمنبهر شاهراً المسدس.

"أنت مُحاصَر! أنت مُحاصَر! ارفع يديك، أيها الحقير، أنت-".

تحرَّك الشكل بلا هوادة ووَقَف. فكّر المسلَّح في سرّه: *يا إلهي، لقد تآكل كلياً، ماذا حصل له؟* لأن الرجل ذا الرداء الأسود كان قد تقلَّص نصف متر كامل وابيضَّ شعره.

توقف لبرهة، وانعقد لسانه، وراح رأسه يطنّ بنشاز. كان قلبه يخفق بسرعة جنونية وفكّر في سرّه، *أنا أُحتضَر هنا*–

تنشَّق الهواء الحار جداً ودلّى رأسه للحظة. عندما رفعه مرة أخرى، رأى أن الشكل لم يكن الرجل ذا الرداء الأسود بل فتى بيَّضت الشمس شعره ينظر إليه بعينين لم تبدوان حتى مهتمّتين. حدَّق فيه المسلَّح بشكل خالٍ من أي تعبير ثم هزّ رأسه نفياً. لكن الفتى تخطّى رفضه بالتصديق؛ كان وهماً قوياً. واحداً يرتدي سروال جينز أزرق مرقَّعاً على إحدى الركبتين وقميصاً بنياً عادياً مصنوعاً من نسيج خشن.

هزّ المسلَّح رأسه مرة أخرى وبدأ يتوجَّه نحو الإسطبل مُخفِضاً رأسه، والمسدس لا يزال في يده. لا يمكنه التفكير بعد. كان رأسه مليئاً بالقذى وكان هناك وجع يتضخَّم فيه.

كان داخل الإسطبل صامتاً ومُعتماً وحاراً جداً. حدَّق المسلَّح حول نفسه بعينين جاحظتين ضخمتين. استدار إلى الخلف ورأى الفتى واقفاً عند المدخَل المحطَّم يحدِّق فيه. شعر بألم في رأسه من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، قاسماً دماغه كبرتقالة. أعاد مسدسه إلى قِرابه، وتمايل، ورفع يديه كما لو أنه يحاول تفادي الأشباح، وسقط على وجهه.

II

عندما استيقَظ كان مستلقياً على ظهره، وتحت رأسه كومة من القش الخفيف والعدم الرائحة. لم يتمكن الفتى من تحريكه، لكنه جَعَله مرتاحاً إلى حد معقول. وشعر بالبرد. نظر إلى نفسه ورأى أن قميصه داكن ورطب. لعَق وجهه وتذوَّق ماءً. طرفت عيناه. بدا لسانه وكأنه تورّم في فمه.

كان الفتى مقرفصاً بجانبه. وعندما رأى أن المسلَّح فتح عينيه، مدَّ يده إلى خلفه وأعطاه عبوة صفيح منبعِجة مليئة بالماء. فأمسكها بيدين مرتعشتين وسمح لنفسه أن يشرب مقداراً صغيراً - صغيراً فقط. عندما تأكد أن ذلك المقدار الصغير أصبح في بطنه، شرِب مقداراً صغيراً آخر. ثم سكَب الباقي على وجهه وأحدَثَ أصواتاً مروِّعة. قوَّس الفتى شفتيه الجميلتين في ابتسامة صغيرة وقورة.

"هل تريد أن تأكل شيئاً يا سيد؟".

"ليس بعد"، قال المسلَّح. كان لا يزال هناك وجع في رأسه من ضربة الشمس، والماء يقبع مُزعجاً في معدته، كما لو أنه لم يعرف إلى أين يذهب. "مَن أنت؟".

"إسمي جون تشامبرز. يمكنك أن تناديني جايك. لديَّ صديقة - حسناً، صديقة إلى حد ما، تعمل لدينا - تسمّيني باما أحياناً، لكن يمكنك أن تناديني جايك".

جلس المسلَّح في وضع مستقيم، وأصبح الوجع حاداً وفورياً. انحنى إلى الأمام وخسر صراعاً موجزاً مع معدته.

"هناك المزيد"، قال جايك. أخذ العبوة وسار نحو الجهة الخلفية للإسطبل. ثم صمت لبرهة وابتسم للمسلَّح بارتياب. أومأ له المسلَّح برأسه ثم أخفَض رأسه وأسنَده بيديه. كان الفتى وسيماً وبصحة جيدة، ربما في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره. كانت هناك مسحة خوف على وجهه، لكن لا بأس بذلك؛ لأن المسلَّح كان ليثق به أقل بكثير لو لم تظهر عليه أي إشارات خوف.

بدأت همهمة غريبة مدّوية في الجهة الخلفية للإسطبل. فرفع المسلَّح رأسه بتأهّب، ومدَّ يديه إلى مسدسيه. دام الصوت لحوالي خمس عشرة ثانية ثم توقف. عاد الفتى ومعه العبوة – معبأة الآن.

شرِب المسلَّح بشكل تدريجي مرة أخرى، وشعر بتحسّن بسيط هذه المرة. كان الوجع يخفّ في رأسه.

"لم أعرف ماذا يجب أن أفعل عندما سقطتَ أرضاً"، قال جايك. "فقد ظننتُ لبضع لحظات أنك ستُطلق النار عليَّ".

"ربما كنتُ سأفعل ذلك. اعتقَدتُ أنك شخص آخر".

"رجل الدين؟".

رفع المسلَّح نظره بحدّة.

راح الفتى يتأملّه عابساً. "خيَّم في الفناء. كنتُ في المنزل هناك. أو ربما كان مستودعاً. لم أحبّه، لذا لم أخرج. وصل في الليل وغادر في اليوم التالي. كنتُ لأختبئ منك، لكنني كنت نائماً عندما وصلتَ". نظر بحزن فوق رأس المسلَّح. "لا أحبّ الناس. يسبّبون لي الأذى".

"كيف بدا؟".

هزّ الفتى كتفيه. "كرجل دين. كان يرتدي أشياء سوداء".

"قلنسوة ورداء؟".

"ما هو الرداء؟".

"ثوب. مثل الفستان".

أومأ الفتى برأسه. "هذا صحيح".

انحنى المسلَّح إلى الأمام، وكان هناك شيء في وجهه جَعَل الفتى يرتدّ إلى الوراء قليلاً. "منذ كم من الوقت؟ أخبرني، لمصلحة والدك".

"أنا... أنا...".

قال المسلَّح بصبر، "لن أؤذيك".

"لا أعرف. لا يمكنني تذكّر الوقت. كل الأيام متشابهة".

لأول مرة تساءل المسلَّح عن إدراك كيف وصل الفتى إلى هذا المكان، مع كل تلك الصحراء الجافة والقاتلة للرجال من حوله. لكنه لن يكترث بذلك، ليس الآن، على الأقل. "تكهَّن بأفضل تكهُّن لديك. منذ مدة طويلة؟".

"لا. ليست طويلة. لم أتواجد هنا منذ مدة طويلة".

توقّدت النار فيه مرة أخرى. انتزَع العبوة وشرِب منها بيدين ترتعشان. عاد جزء من أغنية الأطفال، لكن بدلاً من رؤية وجه أمه هذه المرة، رأى وجه أليس ذا الندوب، تلك المرأة التي كانت حبيبته في بلدة تَلّ الميتة الآن. "أسبوع؟ أسبوعان؟ ثلاثة؟".

نَظَر إليه الفتى بذهن مشتت. "نعم".

"أيٌّ منها؟".

"أسبوع. أو أسبوعان". نظَر جانباً، وتورَّد خجلاً قليلاً. "منذ ثلاث تبرّزات، هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني بها قياس الأشياء الآن. حتى إنه لم يشرب. ظننتُ أنه قد يكون شبح رجل دين، كما في ذلك الفيلم الذي شاهدته مرةً، إلا أن زورو اكتشَف أنه لم يكن رجل دين أبداً، أو شبحاً أيضاً. كان مجرد مصرفيّ أراد قطعة أرض لأنه يوجد ذهب فيها. أخذتني السيدة شو لمشاهدة ذلك الفيلم. كان ذلك في ميدان تايمز سكوير".

لم يكن لكل هذا الكلام أي معنى للمسلَّح، لذا لم يعلِّق عليه.

"كنتُ خائفاً"، قال الفتى. "بقيتُ خائفاً طوال الوقت تقريباً". ارتجف وجهه مثل قطعة بلّور عند حافة النغمة العالية المُطلقة الهدّامة. "حتى إنه لم يُشعل ناراً. بل جلس هناك فقط. حتى لم أعرف إن كان سينام أم لا".

قريب! أقرب من أي وقت مضى! بالرغم من تجفافه الشديد، شَعَر أن يديه رطبتان قليلاً؛ ناعمتان.

"يوجد بعض اللحم المجفَّف"، قال الفتى.

"حسناً". أومأ المسلَّح برأسه. "جيد".

نهض الفتى لجلبه، وطقطقت رُكبتاه قليلاً. كان جسده مستقيماً ونحيلاً. لم تستنزفه الصحراء بعد. كانت ذراعاه رفيعتين، لكن البشرة، رغم اسمرارها، لم تجفّ وتتشقّق. *لديه قوة*، فكّر المسلَّح في سرّه. *وربما بعض الشجاعة، أيضاً، وإلا لكان استلّ أحد مسدسيَّ وأطلق النار عليَّ حيث كنتُ مستلقياً*.

أو ربما الفتى لم يفكّر بذلك بكل بساطة.

شرِب المسلَّح من العبوة مرة أخرى. *شجاعة أم لا، لم يأت من هذا المكان.*

عاد جايك حاملاً كمية من اللحم المقدَّد على ما بدا أنه لوح لفحته الشمس. كان اللحم قاسياً ومالحاً كفاية لجعل قروح فم المسلَّح تلتهب. أكَل وشرِب إلى أن شعَر بالكسل، ثم استلقى على ظهره. أكل الفتى كمية قليلة فقط، منتقياً القطع الداكنة بشهية غريبة.

راح المسلَّح يراقبه، ونظر إليه الفتى ببراءة. "من أين أتيت يا جايك؟"، سأله أخيراً.

"لا أعرف". وعبَس الفتى. "كنتُ أعرف. عندما أتيت إلى هنا، لكن كل شيء مشوَّش الآن، مثل حلم سيئ عندما تستيقظ. يراودني الكثير من الأحلام السيئة. كانت السيدة شو تقول إن السبب هو مشاهدتي الكثير من أفلام الرعب على القناة الحادية عشرة".

"ما هي القناة؟"، خطرت فكرة رعناء على باله. "هل تشبه شعاعاً؟".

"لا – إنه التلفزيون".

"وما هو هذا أيضاً؟".

"أنا–"، ولمس الفتى جبهته. "صور".

"هل حملك أحدهم إلى هنا؟ هذه السيدة شو؟".

"لا"، قال الفتى. "كنتُ هنا فقط".

"مَن هي السيدة شو؟".

"لا أعرف".

"لماذا كانت تناديك باما؟".

"لا أتذكّر".

"لا معنى لكلامك"، قال المسلَّح بحزم.

فجأة أصبح الفتى على شفير البكاء. "ليس بيدي أي حيلة. كنتُ هنا فقط. لو سألتني عن التلفزيون والقنوات البارحة، لكنتُ لا زلتُ قادراً على تذكّرها! أما غداً فلن أتذكّر حتى أنني جايك على الأرجح - إلا إذا أخبرتني أنت بذلك، لكنك لن تكون هنا، أليس كذلك؟ ستذهب لكي تختفي وسأتضوَّر جوعاً لأنك أكَلت كل طعامي تقريباً. لم أطلب أن أكون هنا. لا أحبّه. إنه مخيف".

"لا تشعر بالحزن على نفسك. تأقلم مع الوضع".

"لم أطلب أن أكون هنا"، كرَّر الفتى بتحدٍ مرتبِكٍ.

أكل المسلَّح قطعة لحم أخرى، باصقاً الملح منها قبل أن يبلع. أصبح الفتى جزءاً منها، وكان المسلَّح مقتنعاً أنه قال الحقيقة - لم يطلب ذلك. كان الوضع سيئاً جداً. أما هو نفسه... فقد طلب ذلك. لكنه لم يطلب أن تصبح اللعبة قذرة إلى هذا الحدّ. لم يطلب أن يوجِّه مسدسيه نحو سكان تَلّ؛ لم يطلب أن يقتل آليْ، بوجهها الجميل الحزين في النهاية المعلَّمة بالسر الذي طلبت أن تطّلع عليه أخيراً، مستخدمةً تلك الكلمة، تلك التسعة عشر، مثل مفتاح في قفل؛ لم يطلب أن يواجه الخيار بين الواجب والقتل. لم يكن عادلاً أن يُشمَل المتفرِّجون الأبرياء وجعلهم يقولون جملاً لا يفهمونها على مسرح غريب. *آلي، فكّر في سرّه، كانت آلي على الأقل جزءاً من هذا العالم، بطريقتها الخادعة للنفس. لكن هذا الفتى... هذا الفتى اللعين...*

"أخبرني بما يمكنك تذكّره"، قال لجايك.

"القليل فقط. ولا يبدو أن له أي معنى بعد الآن".

"أخبرني. ربما يمكنني وضع النقاط على الحروف".

فكَّر الفتى بالطريقة التي سيبدأ بها. فكَّر بها ملياً. "كان هناك مكان... قبل هذا المكان. مكان مرتفع فيه غرف كثيرة وفناء يطلّ على أبنية عالية وماء. كان هناك تمثال يقف في الماء".

"تمثال في الماء؟".

"نعم. سيدة تضع تاجاً وتحمل مِشعلاً و... أظن... كتاباً".

"هل تختلق هذا؟".

"أظن أنني أختلقه"، قال الفتى بنبرة يئس. "كانت هناك أشياء يمكن ركوبها في الشوارع. أشياء كبيرة وأشياء صغيرة. كانت الأشياء الكبيرة زرقاء وبيضاء، والأشياء الصغيرة صفراء. كان هناك الكثير من الأشياء الصفراء. كنتُ أسير إلى المدرسة. كانت هناك مسارات أسمنتية بجانب الشوارع. ونوافذ للنظر إليها ومزيد من التماثيل ترتدي ملابس. كانت التماثيل تبيع الملابس. أعرف أن هذا يبدو جنونياً لك، لكن التماثيل تبيع الملابس".

هزّ المسلَّح رأسه وبحث عن الكذب على وجه الفتى. لم يجده.

"كنتُ أسير إلى المدرسة"، كرَّر الفتى بإصرار. "كانت لديَّ" – أغمض عينيه وحرَّك شفتيه متلمّساً الكلمات – "حقيبة... كتب... بنية. وكنتُ أحمل طعامي معي. وأرتدي" – راح يتلمّس الكلمات مرة أخرى – "ربطة عنق".

"ربطة عنق؟".

"لا أعرف". ولفّ الفتى أصابعه ببطء حول حنجرته في حركة ربطها المسلَّح بالشنق. "لا أعرف. كل شيء زال الآن". وأشاح بنظره.

"هل يمكنني تنويمك؟"، سأله المسلَّح.

"لا أشعر بالنعس".

"يمكنني جعلك تشعر بالنعس، ويمكنني جعلك تتذكر".

سأله جايك بارتياب، "كيف يمكنك فعل ذلك؟".

"بهذا".

أخرَج المسلَّح إحدى الرصاصات من حزام مسدسه وراح يديرها بين أصابعه. كانت الحركة رشيقة وانسيابية مثل الزيت. تشقلَبت الرصاصة بسلاسة من الإبهام والسبّابة إلى السبّابة والوسطى، وإلى الوسطى والبُنصر، وإلى البُنصر والخُنصر. ثم اختفت عن الأنظار وظهرت من جديد؛ بدت عائمة في الهواء لفترة وجيزة، ثم عكست اتجاهها، وسارت على أصابع المسلَّح. الأصابع نفسها سارت مثلما سارت قدماه في الكيلومترات الأخيرة إلى هذا المكان. كان الفتى يراقبه، وقد استُبدل ارتيابه الأولي بابتهاج عادي، ثم بذهول تام. فأغمض عينيه. بدأت الرصاصة ترقص ذهاباً وإياباً. أعاد جايك فتح عينيه، وراح يشاهد الحركة الهادئة الصافية بين أصابع المسلَّح لفترة أطول قليلاً، ثم أغمضهما مرة أخرى. تابَع المسلَّح حركة التنويم المغنطيسي، لكن جايك لم يفتح عينيه مرة أخرى، بل راح يتنفَّس ببطء وهدوء. هل هذا جزء إلزامي من العملية؟ نعم. كان هناك بعض الجمال فيها. بدا أنه يسمع غناء أمه مرة أخرى، ليس الهراء عن المطر في اسبانيا هذه

المرة، بل هراء أكثر عذوبة، قادم من مسافة بعيدة بينما كان يترنّح على حافة النوم: *طفلي العزيز، طفلي الحبيب، أحضِر سلّتك المليئة بالطيب.*

لم تكن المرة الأولى التي يتذوّق فيها المسلَّح المذاق العذب لمرض الروح. الرصاصة بين أصابعه، التي يتلاعب بها براحة كبيرة، أصبحت مروِّعة فجأة، أثر وحش. أفلَتها في كفّه، وأطبق يده عليها، وضغط عليها بقوة مؤلمة. لو انفجَرت في تلك اللحظة لكان ابتهج من دمار يده الموهوبة، لأن موهبته الحقيقية كانت القتل فقط. لطالما كان هناك قتل في العالم، لكن قول ذلك لنفسه لم يكن يريحه. كان هناك قتل، كان هناك اغتصاب، كانت هناك ممارسات لا توصف، وكلها للخير، للخير الدموي، للخرافة الدموية، للبرج. آه، يقف البرج في مكان ما في وسط الأشياء (هكذا يقولون)، رافعاً هيكله الأسود الرمادي نحو السماء، وفي أذنيه اللتين لفحتهما الصحراء، سمع المسلَّح صوت أمه العذب: *شوشّيت، شيشّيت، شاشّيت، أحضِر ما يكفي لتملأ سلّتك.*

دفع الأغنية وعذوبتها جانباً. "أين أنت؟"، سأله.

III

جايك تشامبرز - أحياناً باما - ينزل السلالم مع حقيبة كتبه. هناك علوم الأرض، هناك الجغرافيا، هناك مفكرة، قلم، غداء طبخته أمه، السيدة غريتا شو، في مطبخ الكروم والفورمايكا الذي تدور فيه مروحة إلى الأبد، ممتصّةً الروائح الغريبة. يحتوي كيس غدائه على سندويش زبدة فول سوداني وهلام؛ وسندويش نقانق وخس وبصل؛ وأربع قطع بسكويت أوريو. لا يكرهه والداه، لكن يبدو أنهما أهملاه.

فقد تنازلا عنه وتركاه في عهدة السيدة غريتا شو، في عهدة المربّيات، في عهدة مدرّس خصوصي في الصيف ومدرسة بايير (الخاصة والجميلة، والأهم البيضاء) باقي الوقت. لم يدَّعِ أي واحد من أولئك الأشخاص يوماً أنه أكثر مما كان – أشخاص محترفون، الأفضل في مجالاتهم. ولم يعانقه أيّ منهم في عناق دافئ مثلما يحصل عادة في الروايات الرومانسية التاريخية التي تقرأها أمه والتي كان جايك يتصفّحها بحثاً عن "المقاطع الحميمة". روايات هستيرية، مثلما يسمّيها أباه أحياناً، وأحياناً أخرى "ممزقات الصُدرات". «يجب أن تتكلم»، تقول أمه بازدراء لا متناهي من خلف أحد الأبواب المُغلقة حيث جايك يستمع. يعمل أبوه في محطة التلفزيون، ويستطيع جايك أن يدلّ عليه في صف رجال نحيلين شعرهم مقصوص قصيراً جداً. على الأرجح.

لا يعرف جايك أنه يكره كل الناس المحترفين ما عدا السيدة شو. فلطالما أربكه الناس. وغالباً ما تُقيم أمه، الهزيلة بطريقة جذّابة، علاقات حميمة مع أصدقاء مريضين. يتكلم أبوه أحياناً عن أشخاص في محطة التلفزيون "يكثرون من الكوكا كولا". هذه الجملة ترافقها دائماً ابتسامة جدّية وشمّ سريع لظفر الإبهام.

إنه الآن في الشارع، جايك تشامبرز في الشارع، فقد "رحل". إنه شخص نظيف ومهذب ووسيم وحسّاس. يلعب البولينغ مرّة في الأسبوع في نادي "ممرات وسط البلدة". ليس لديه أصدقاء، معارف فقط. لم يكترث أبداً للتفكير بهذا، لكنه يؤلمه. لا يعرف أو يفهم أن مجالسته الطويلة للأشخاص المحترفين قد جعلته يكتسب العديد من صفاتهم. السيدة غريتا شو (أفضل من كل البقية، لكن كم غريب أن يُعتبر هذا جائزة ترضية) تُعدّ سندويشات محترفة جداً. فتقسمها إلى

أرباع وتزيل القشرة الخارجية للخبز لكي يبدو عندما يأكلها في حصة الرياضة كما لو أنه في حفلة كوكتيل مع كوب شراب في يده الأخرى بدلاً من رواية رياضية أو كتاب لكلاي بلايسدل من مكتبة المدرسة. يجني أبوه مقداراً كبيراً من المال لأنه سيد "القتل" - أي أنه يعرض برنامجاً أقوى على محطته مقابل برنامج أضعف على محطة منافسة. يدخّن أبوه أربع علب سجائر في اليوم. لا يسعل أبوه، لكن ابتسامته صارمة، ولا يكره التناول العَرَضيّ للكوكا كولا القديمة.

في الشارع. تترك له أمه المال لسيارة الأجرة، لكنه يسير كل يوم لا تمطر فيه، ملوّحاً حقيبة كتبه (وأحياناً حقيبة البولينغ، رغم أنه يتركها في خزانته في أغلب الأحيان)، فتى صغير يبدو أميركياً جداً بشعره الأشقر وعينيه الزرقاوين. وقد بدأت الفتيات يلاحظنه (مع موافقة أمهاتهن)، ولا ينفر منهن بغطرسة فتى صغير لعوب. يتكلم معهن باحترافية فطرية ويحيّرهن. يحبّ الجغرافيا والبولينغ في فترات بعد الظهر. يملك أبوه أسهماً في شركة تصنع آلات تضع قوارير البولينغ في أماكنها تلقائياً، لكن "ممرات وسط البلدة" لا يستخدم صنف أبيه. لا يظنّ أنه فكّر في هذه المسألة، لكنه فعل ذلك.

ماشياً في الشارع، يمّر قرب بلوميز، حيث تقف العارضات الدمى مرتديات معاطف فرو، فوق بذلات إدواردية بستة أزرار، والبعض فوق لا شيء أبداً. دمى عرض الأزياء تلك محترفة تماماً، وهو يكره كل احترافية. إنه يافع جداً لكي يكون قد تعلّم أن يكره نفسه، لكن تلك البذرة موجودة من قبل؛ وإذا أُعطيت الوقت، ستنمو، وتُثمر فواكه مرّة.

يصل إلى المنعطف ويقف واضعاً حقيبة كتبه بجانبه. حركة المرور تهدر أمامه - حافلات زرقاء وبيضاء، سيارات أجرة صفراء، سيارات

فولكسفاغن، شاحنة كبيرة. إنه مجرد فتى، لكنه ليس عادياً، ويرى الرجل الذي يقتله من طرف عينه. إنه الرجل ذو الرداء الأسود، ولا يرى وجهه، فقط رداءه المتطاير، ويديه الممدودتين، وابتسامته المحترفة الصارمة. يقع في الشارع بذراعين ممدودتين، دون أن يُفلت حقيبة الكتب التي تحتوي على غداء السيدة غريتا شو المحترف جداً. يلمح عبر الزجاج الأمامي المستقطَب الوجه المذعور لرجل أعمال يرتدي قبعة زرقاء داكنة من النوع الذي يتضمن ريشة صغيرة أنيقة. وفي مكان ما يبثّ جهاز راديو موسيقى روك أند رول. تصرخ عجوز واقفة على الرصيف البعيد - ترتدي قبعة سوداء عليها شبكة. لا شيء أنيق في تلك الشبكة السوداء؛ تبدو مثل خِمار مشيّع. لا يشعر جايك بشيء سوى المفاجأة وحسّه الاعتيادي بالارتباك المتهوّر - هل هكذا تنتهي الأمور؟ قبل أن يحقّق نتيجة في البولينغ أفضل من اثنين وسبعين؟ يرتطم بالشارع بقسوة وينظر إلى تشقّق مختوم بالأسفلت على بُعد خمسة سنتيمترات من عينيه. تُنتزَع حقيبة الكتب من يده. يتساءل إن كانت رُكبتاه قد انجرحتا عندما دهسته سيارة رجل الأعمال الذي يرتدي قبعة زرقاء ذات الريشة الأنيقة. إنها كاديلاك زرقاء كبيرة طراز العام 1976 بعجلات فايرستون مبيَّضة الجانب. السيارة بنفس لون قبعة رجل الأعمال تقريباً. كسرت لجايك ظهره، وسحقت له أحشاءه، وجعلت الدم يتطاير من فمه. يدير رأسه ويرى الأضواء الخلفية الملتهبة للكاديلاك والدخان ينبعث من تحت عجلاتها الخلفية المزنوقة. لقد دهست السيارة حقيبة كتبه أيضاً وتركت أثراً أسود عريضاً عليها. يدير رأسه إلى الاتجاه الآخر ويرى سيارة فورد رمادية كبيرة تزعق لتتوقف على بُعد سنتيمترات من جسده. يركض نحوه رجل أسود كان يبيع كعكاً

مملّحاً جافاً ومياهاً غازيةً على عربة يد. الدم يسيل من أنف جايك، وأذنيه، وعينيه، وشرجه. وهُرس حوضه. يتساءل بانزعاج مدى سوء الجروح في ركبتيه. ويتساءل إن كان سيتأخر على المدرسة. الآن سائق الكاديلاك يركض نحوه، وهو يهذي. في مكان ما يسمع صوتاً هادئاً يقول: "أنا رجل دين. دعوني أمّر. بعض الأدعية...".

يرى الرداء الأسود ويشعر برعب مفاجئ. إنه هو، الرجل ذو الرداء الأسود. يدير جايك وجهه بعيداً بآخر قوة لديه. في مكان ما يبثّ جهاز راديو أغنيةً لإحدى فرق موسيقى الروك. يرى يده تتلاشى على الرصيف، صغيرة، بيضاء، جميلة. لم يقضم أظافره أبداً.

ناظراً إلى يده، يموت جايك.

IV

قرفَص المسلَّح في تفكير عميق. كان مُتعَباً وجسده يؤلِمه وجاءته الأفكار ببطء مزعج. كان الفتى المدهش ينام مقابله وقد طوى يديه في حُضنه، ولا يزال يتنفّس بهدوء. أخبره قصته من دون أحاسيس كثيرة، رغم أن صوته ارتعَش بالقرب من النهاية، عندما وصل إلى الجزء عن "رجل الدين" و"بعض الأدعية". لم يُخبر المسلَّح، بالطبع، عن عائلته وإحساسه المرتبِك بالانشطار، لكن ذلك تسرَّب على أي حال – ما يكفي منه لكي يميِّز المسلَّح شكله. وحقيقة أنه لم تتواجد أبداً مدينة مثل التي وصفها الفتى (إلا إذا كانت مدينة لاد الخرافية) لم تكن أكثر جزء مزعج في القصة، بل كانت مُقلقة. كان كل شيء مُقلقاً. كان المسلَّح خائفاً من المضامين.

"جايك؟".

"نعمممم؟".

"هل تريد أن تتذكّر هذا عندما تستيقظ، أو تنساه؟".

"أنساه"، قال الفتى بحزم. "عندما خرج الدم من فمي، كنتُ قادراً على تذوّق برازي".

"حسناً. ستنام الآن، مفهوم؟ نوماً حقيقياً. اذهب واستلق، لو سمحت".

استلقى جايك، وبدا صغيراً ومسالماً وغير مؤذٍ. لم يصدِّق المسلَّح أنه كان غير مؤذٍ. كان هناك شعور مميت فيه، الرائحة الكريهة لفخ آخر أيضاً. لم يعجبه هذا الشعور، لكن الفتى يروق له. يروق له كثيراً.

"جايك؟".

"مهلك. أحاول النوم. أريد أن أنام".

"نعم. وعندما تستيقظ لن تتذكّر أي شيء من هذا".

"حسناً. جيد".

راقبه المسلَّح لفترة وجيزة، وتذكَّر طفولته، التي كانت تبدو عادة أنها حصلت لشخص آخر – لشخص وَثَب عبر عدسة زمنية رائعة لكي يصبح شخصاً آخر – لكنه بدا قريباً الآن بشكل مثير للمشاعر. كان الجو حاراً جداً في إسطبل المحطة الوسطية، وشرِب بعض الماء بعناية. نهض وسار إلى الجزء الخلفي للبناء، متوقفاً لينظر إلى حجرة أحد الأحصنة. كانت هناك كومة صغيرة من القش الأبيض في الزاوية، وبطانية مطوية بشكل أنيق، لكن لم تكن هناك رائحة حصان. لم تكن

هناك رائحة أي شيء في الإسطبل. كانت الشمس قد قضت على كل رائحة ولم تترك شيئاً. كان الهواء محايداً تماماً.

كانت هناك غرفة صغيرة داكنة في الجهة الخلفية للإسطبل في وسطها آلة مصنوعة من الفولاذ الذي لا يصدأ، وبالتالي خالية من الصدأ أو العفن. بدت كأنها مِمخَضة زبدة. كان هناك أنبوب من الكروم يخرج من جهتها اليسرى، وينتهي فوق بالوعة لتصريف المياه في الأرض. كان المسلَّح قد رأى مضخّات مثلها في الأماكن الجافة الأخرى، لكنه لم ير أبداً واحدة كبيرة إلى هذا الحد. لا يمكنه تخيّل مدى العمق الذين اضطروا إلى حفره (وبعضهم اختفى منذ مدة طويلة) قبل أن يجدوا الماء، السري والأسود إلى الأبد تحت الصحراء.

لماذا لم يزيلوا المضخّة عندما تم هجْر المحطة الوسطية؟

العفاريت، ربما.

ارتجَف فجأة، وشعر بالتواء مفاجئ في ظهره. ونكزته بعض الحرارة على بشرته، ثم انحسَرت. ذهب إلى مفتاح التشغيل وضغطه، فبدأت الآلة تهمهم. بعد حوالي نصف دقيقة، خرج دفق ماء صافٍ وبارد من الأنبوب ونزل البالوعة ليُعاد توزيعه. ربما تدفّقت ثلاثة غالونات من الأنبوب قبل أن تُطفئ المضخّة نفسها. كان شيئاً غريباً لهذا المكان والزمان مثل الحب الحقيقي، ومع ذلك كان شيئاً ملموساً مثل القرار، تذكير صامت بالزمن الذي لم يكن فيه العالم قد استمر بعد. الأرجح أنها تعمل على الطاقة الذرّية، بما أنه لا توجد أي كهرباء ضمن شعاع ألف كيلومتر من هنا وحتى البطاريات الجافة كانت لتفقد شحنتها منذ مدة طويلة. كانت صنع شركة تدعى نورث سنترال بوزيترونكس. لم

يروق ذلك للمسلَّح.

عاد وجلس بجانب الفتى، الذي كان قد وضع يداً تحت خده. فتى وسيم. شرِب المسلَّح بعض الماء، ووضع ساقاً فوق ساق بحيث أصبح جالساً على الطريقة الهندية. الفتى، مثل المُحتلّ عند حافة الصحراء صاحب الطير (زولتان، تذكّر المسلَّح فجأة أن إسم الطير هو زولتان)، فقَدَ أي إحساس بالوقت، لكن حقيقة أن الرجل ذا الرداء الأسود كان أقرب بدت أنها لا تدع مجالاً للشك. لم تكن المرة الأولى التي يتساءل فيها المسلَّح عما إذا كان الرجل ذو الرداء الأسود يمكنّه من القبض عليه لسبب خاص به. ربما كان المسلَّح قد ارتكب أخطاءً جعلته تحت سيطرة عدوه. حاوَل أن يتخيَّل كيف ستكون المواجهة، ولم يستطع.

كان يشعر بحرّ شديد، لكنه لم يعد يشعر بالمرض. خطرت أغنية الأطفال على باله مرة أخرى، لكنه تذكّر كورت بدلاً من أمه هذه المرة – كورت، رجل دائم الشباب، وجهه مليء بندبات الرصاصات والطوب والآلات الكليلة. ندبات الحرب وتعليمات فنون الحرب. تساءل إن كان كورت قد انغرم في يوم من الأيام بمقدار مماثل لتلك الندبات الضخمة. لا يظن ذلك. تذكّر سوزان، وأمه، ومارتن، ذلك المشعوذ غير المكتمل.

لم يكن المسلَّح رجلاً يُسهب التفكير بالماضي؛ فقط تصوّرٌ مُبهمٌ للمستقبل ولبنيته العاطفية أنقذته من أن يكون رجلاً من دون خيال، من أن يكون مغفَّلاً خطيراً. لذا فقد أدهشه تسلسل أفكاره الحالية. كان كل إسم يستدعي أسماء أخرى – كَثبرت، آلان، جوناس العجوز بصوته المتهدِّج؛ ومرة أخرى سوزان، الفتاة الجميلة عند النافذة. كانت هكذا أفكار تعود دائماً إلى سوزان، والسهول المرتفعة والمنخفضة برفق

المسمّاة المَهبِط، وصيادي الأسماك الذين يلقون شباكهم في الخلجان عند حافة «البحر النظيف».

كان عازف البيانو في تَلّ (الميت أيضاً، الجميع موتى في تَلّ، وعلى يده) يعرف تلك الأماكن، رغم أنه والمسلَّح تكلّما عنها لمرة واحدة فقط. كان شِب مولَعاً بالأغاني القديمة، وقد عزفها مرةً في مقصف يدعى «استراحة المسافر»، ودندَن المسلَّح إحداها بنشاز همساً:

الحب أيها الحب أيها الحب المهمل
انظروا ماذا فعل الحب المهمل.

ضحكَ المسلَّح، مرتبكاً. *أنا آخر واحد من ذلك العالم الأخضر والدافئ.* ورغم كل حنينه، لم يشعر بأي شفقة على الذات. الحياة استمرّت بلا رحمة، لكن رجليه كانتا لا تزالان قويتين، وكان الرجل ذو الرداء الأسود أقرب. أومأ المسلَّح برأسه.

V

عندما استيقظ، كان قد حلّ الظلام تقريباً والفتى اختفى.

نهض المسلَّح، وسمع مفاصله تطقطق، وذهَب إلى باب الإسطبل. كان هناك لهب صغير يتراقص في العتمة على شرفة النزل. سار نحوه، وكان ظله طويلاً وأسود ومسترسلاً في ضوء الغروب الضارب إلى الحُمرة.

وجد جايك جالساً قرب مصباح كاز. "كان الزيت في برميل"، قال، "لكنني خفتُ من إشعاله في المنزل. كل شيء جاف جداً-".

"فعلتَ الصواب". جلس المسلَّح، ورأى غبار السنوات يتطاير حول عجُزه دون أن يكترث له. ودُهش أن الشرفة لم تنهر تحت وزنهما. كان لهب المصباح يلقي ظلالاً مُرهَفة على وجه الفتى. أخرَج المسلَّح كيس تبغه ولفّ سيجارة.

"علينا أن نلغو"، قال.

أومأ جايك برأسه، مبتسماً قليلاً من الكلمة.

"أظن أنك تعرف أنني ألاحق ذلك الرجل الذي رأيته".

"هل ستقتله؟".

"لا أعرف. عليَّ جعله يخبرني شيئاً. قد أضطر إلى جعله يأخذني إلى مكان ما".

"إلى أين؟".

"لكي أجد برجاً"، قال المسلَّح. وضع سيجارته فوق مدخنة المصباح وأخذ مجّة؛ انجرف الدخان في نسيم الليل الصاعد. راح جايك يراقبه. ولم يُظهر وجهه أي خوف أو حشرية، وبالطبع ليس أي حماسة.

"لذا سأغادر غداً"، قال المسلَّح. "عليك أن تأتي معي. كم بقي من ذلك اللحم؟".

"القليل فقط".

"والذرة؟".

"أكثر قليلاً".

أومأ المسلَّح برأسه. "هل هناك قبو؟".

"نعم". نَظَر إليه جايك. كان بؤبؤا عينيه قد توسّعا إلى حجم

ضخم هشّ. "ترفع حلقة في الأرض، لكنني لم أنزل. كنتُ خائفاً أن ينهار السُلَّم ولا أعود قادراً على الصعود من جديد. والرائحة كريهة. إنه الشيء الوحيد هنا الذي له رائحة من الأصل".

"سننهض باكراً ونرى إن كان هناك أي شيء في الأسفل يستحق الأخذ. ثم نغادر".

"حسناً". صمت الفتى لبرهة ثم قال، "أنا مسرور أنني لم أقتلك عندما كنت نائماً. كانت معي مذراة وفكّرت أن أفعل ذلك. لكنني لم أفعله، والآن لم أعد مضطراً أن أخاف من النوم".

"مما ستخاف؟".

نَظَر إليه الفتى بتجهّم. "من أن يعود".

"الرجل ذو الرداء الأسود"، قال المسلَّح. أمر غير وارد.

"نعم. هل هو رجل سيئ؟".

"أظن أن ذلك يعتمد على المكان الذي تقف فيه"، قال المسلَّح بذهن شارد. نهض ورمى سيجارته على الطبقة الصلدة. "سأنام".

نَظَر إليه الفتى بخجل. "هل يمكنني أن أنام في الإسطبل معك؟".

"بالطبع".

وَقَف المسلَّح على الدرجات ونظراً إلى الأعلى، وانضم إليه الفتى. كان النجم العجوز هناك في الأعلى، والأم العجوز. شعر المسلَّح أنه إذا أغمض عينيه سيكون قادراً على سماع نقيق أوائل ضفادع الربيع، وشمّ الرائحة الخضراء الصيفية تقريباً للمروج بعد أول قص لها (وسماع، ربما، النقر المتبلِّد للكُرات الخشبية بينما تلعب سيدات الجناح الشرقي،

اللواتي يرتدين قمصانهن الداخلية فقط بينما يتلألأ الغسق نحو الظلمة، لعبة «النقاط»)، ورؤية كَثبرت وجايمي تقريباً وهما يخرجان عبر الفجوات في السياجات النباتية، ويدعوانه لكي ينجو معهما...

لم تكن من طبيعته التفكير بالماضي كثيراً.

استدار إلى الخلف ورفع المصباح. "هيا ننام"، قال.

سارا إلى الإسطبل معاً.

VI

استكشَفا القبو في الصباح التالي.

كان جايك على حق؛ رائحته كريهة. رائحة رطبة تشبه رائحة المستنقعات جَعَلت المسلَّح يُصاب بالغثيان وبدوار خفيف بعد اعتياده على الرائحة المعفَّمة للصحراء والإسطبل. كان القبو يعبق برائحة الملفوف واللفت والبطاطا التي تحوَّلت إلى مصادر لعفن أبدي. لكن السُلَّم بدا قوياً جداً، فنزله.

كانت الأرضية ترابية، وكاد رأسه يلمس العوارض العليا. كانت لا تزال عناكب تعيش هناك، تلك الأشياء الكبيرة المزعجة ذات الأجساد الرمادية المرقَّشة. العديد منها كان من النوع المتحوِّل المفقود منذ زمن طويل. كان لبعضها عيون على سيقانها، وللبعض الآخر ما يصل إلى ست عشرة ساق.

حدَّق المسلَّح حوله وانتظَر أن تعتاد عيناه على الظلمة.

"هل أنت بخير؟"، ناداه جايك بعصبية.

"نعم". ركّز على الزاوية. "هناك عبوات. انتظر".

سار بحذر إلى الزاوية، مطأطئاً رأسه. كان هناك صندوق قديم مطوي أحد جوانبه. كانت العبوات تحتوي على خُضار - لوبياء، حمص - وثلاث عبوات لحم بقر مملّح.

حمل ما باستطاعته في يديه وعاد إلى السُلَّم. تسلَّق نصفه وأعطاها إلى جايك، الذي ركَع ليُمسك بها. عاد ليُحضر المزيد.

كان في رحلته الثالثة عندما سمِع تأوهاً عند الأساسات.

استدار ونظر، وشَعَر بنوع من الرعب الحالِم يملؤه؛ شعور كان فاتراً ومنفِّراً في آن.

كانت الأساسات تتألف من كتل حجر رملي ضخمة مفتولة بشكل متساوٍ على الأرجح عندما كانت المحطة الوسطية جديدة، لكنها أصبحت متعرِّجة الآن. كانت تجعل الجدار يبدو كما لو أنه منقوش بأحرف هيروغليفية غريبة متعرِّجة. ومن داخل أحد تلك التشقّقات، كان يتدفّق خيط رفيع من الرمال، كما لو أن شيئاً على الطرف الآخر يحفر نفقاً بحماسة موجعة.

كان التأوه يرتفع وينخفض، ويزداد دويّه، إلى أن أصبح القبو بأكمله مليئاً بالصوت المجرَّد لألم وجهد رهيبين.

"اصعد!"، صَرَخ جايك. "يا إلهي، اصعد يا سيد!".

"ابتعد"، قال المسلَّح بهدوء. "انتظر في الخارج. إذا لم أظهر عندما تصل في العدّ إلى مئتين... لا، ثلاثمئة، اهرب من هنا".

"اصعد!"، صَرَخ جايك مرة أخرى.

لم يُجبه المسلَّح. بل سحَب سوطاً بيده اليمنى.

أصبحت هناك فجوة بحجم قطعة معدنية في الجدار الآن. وكان يمكنه أن يسمع، من خلال ستارة رعبه، قدمَي جايك تعدوان بينما كان الفتى يهرب. ثم توقَّف تدفّق الرمال. وتوقَّف التأوّه، لكن كان هناك صوت صعوبة في التنفّس.

"مَن أنت؟"، سأل المسلَّح.

لا جواب.

ممتلئاً صوته بالهدير الآمِر القديم للغة الراقية، أمرَ رولاند: "مَن أنت أيها العفريت؟ تكلَّم، إذا كنت تتكلَّم. وقتي ضيق؛ صبري أضيق".

"مهلك"، قال صوت عميق من داخل الجدار. وشَعَر المسلَّح بالرعب يتعمَّق ويشتدّ. كان صوت أليس، المرأة الذي مكث معها في بلدة تَلّ. لكنها ميتة؛ فقد رآها بنفسه تسقط ورصاصة بين عينيها. "تجاوز الساحبات ببطء أيها المسلَّح. انتبه من التاهين. بينما تسافر مع الفتى، يسافر الرجل ذو الرداء الأسود مع روحك في جيبه".

"ماذا تقصد؟ تكلَّم!".

لكن التنفّس توقّف.

بقي المسلَّح جامداً للحظات، ثم سقط أحد العناكب الضخمة على ذراعه وزحف باضطراب صعوداً إلى كتفه. نفضه عن نفسه بحركة لا إرادية وبدأ يحرّك قدميه. لم يرغب أن يفعل الشيء التالي، لكن الأعراف صارمة. خذ الميت من الميت، هكذا يقول المَثَل القديم؛ فقط الجثة يمكنها أن تقول التوقّع الحقيقي. فذهَب إلى الفجوة ولَكَمها. تفتَّت الحجر الرملي بسهولة، وحشر يده المتشحّنة في الجدار.

ولَمَس شيئاً صلباً عليه مقابض مرفوعة ومتآكلة. أخرجه. وأمسك عظمة فكّ متعفِّنة عند المِفصَلة البعيدة. كانت الأسنان منحنية في هذا الاتجاه وذاك.

"حسناً"، قال بلطف. ثم وضعها بشكل فظّ في جيبه الخلفي، وصعد السُلَّم حاملاً العبوات الأخيرة بشكل غريب. ترَك الباب الأفقي مفتوحاً لكي تدخل الشمس وتقتل العناكب المتحوِّلة.

كان جايك في منتصف الطريق في فناء الإسطبل، يجلس مرتعداً على الأرض. صَرَخ عندما رأى المسلَّح، وتراجَع خطوة أو خطوتين، ثم ركَض إليه، باكياً.

"ظننتُ أنه تمكَّن منك. ظننتُ-".

"لا. لا شيء تمكَّن مني". احتضن الفتى، وشعر بوجهه الحار على صدره، ويديه الجافتين على قفصه الصدري. كان يمكنه الشعور بالخفقان السريع لقلب الفتى. انتبَه لاحقاً إلى أن هذه كانت اللحظة التي بدأ فيها يحبّ الفتى - وهذا كان، بالطبع، ما خطّط له الرجل ذو الرداء الأسود من البداية. هل كان هناك فخ سيقابل فخ الحب؟

"هل كان عفريتاً؟"، سأله بصوت مكتوم.

"نعم. عفريت ناطق. لسنا بحاجة إلى العودة إلى هناك بعد الآن. هيا بنا نستعدّ".

ذهَبا إلى الإسطبل، ووضّب المسلَّح كل شيء في رزمة صنعها من البطانية التي كان قد نام تحتها - كانت حارة وشائكة، لكن لم يكن هناك شيء آخر. بعد ذلك، ملأ أكياس الماء من المضخّة.

"احمل أحد أكياس الماء"، قال المسلَّح. "ضعه حول كتفيك -

هل ترى؟".

"نعم". نظر إليه الفتى نظرة احترام شديد، وأشاح بنظره بسرعة. علَّق أحد الأكياس فوق كتفيه.

"هل هو ثقيل جداً؟".

"لا. لا بأس".

"أخبرني الحقيقة، الآن. لا يمكنني أن أحملك إذا أُصبت بضربة شمس".

"لن أُصاب بضربة شمس. سأكون بخير".

أومأ المسلَّح برأسه.

"سنذهب إلى الجبال، أليس كذلك؟".

"نعم".

خرجا إلى حر الشمس. وسار جايك، الذي يصل رأسه إلى مستوى كتفَي المسلَّح، إلى يمينه وأمامه قليلاً، وأطراف كيس الماء الجلدي غير المدبوغ تتدلى إلى تحت رُكبتيه تقريباً. كان المسلَّح قد وضع كيسَي ماء إضافيين بشكل متقاطع على كتفيه وحمل مقلاع الطعام تحت إبطه، وذراعه اليسرى تشدّه نحو جسده. وحمل بيده اليمنى حقيبته، وكيس تبغه، وبقية مسدساته.

عبرا البوابة البعيدة للمحطة الوسطية وعثرا على المسار غير الواضح لطريق العربات مرة أخرى. كانا قد سارا لحوالي خمس عشرة دقيقة عندما استدار جايك ولوَّح للمبنيين. بديا محتشدَين في المساحة الضخمة للصحراء.

"وداعاً!"، صاح جايك. "وداعاً!". ثم عاد واستدار إلى المسلَّح، وكان يبدو منزعجاً. "أشعر وكأن شيئاً يراقبنا".

"شيء أو شخص"، أجاب المسلَّح موافقاً.

"هل كان شخصٌ يختبئ هناك؟ يختبئ هناك منذ البداية؟".

"لا أعرف. لا أظن ذلك".

"هل يجب أن نعود؟ نعود و-".

"لا. لقد انتهينا من ذلك المكان".

"جيد"، قال جايك بحماسة.

سارا. ثم ظهرت أمامهما تلة رمال مجمَّدة على طريق العربات، وعندما نظر المسلَّح حوله، كانت المحطة الوسطية قد اختفت. مرة أخرى لم تكن هناك سوى الصحراء.

VII

مرّت ثلاثة أيام على مغادرتهما المحطة؛ كانت الجبال صافية بشكل مخادع الآن. يمكنهما رؤية الصعود المتدرِّج والناعم للصحراء في تلال سفحيّة، والمنحدرات الجرداء الأولى، وصخر الأديم المنبثق من قشرة الأرض في انتصار متآكل متحهِّم. إلى الأعلى أكثر، هدأت الأرض قليلاً مرة أخرى، ولأول مرة منذ أشهر أو سنوات استطاع المسلَّح رؤية تربة خضراء حقيقية حيّة. أعشاب، وأشجار تنوّب قزمة، وربما حتى بعض أشجار الصفصاف، كلها تتغذى من جريان مياه الثلوج من الأعلى. أما بعد ذلك، فقد عادت الصخور لتهيمن على

المشهد مرة أخرى، صاعدة في فخامة دائرية متقلِّبة وصولاً إلى الأكاليل الثلجية المسبِّبة للعمى. وإلى اليسار، هناك شق ضخم يُظهر الطريق إلى الجروف الرملية الأصغر المتآكلة والهضاب والشواهد الصخرية على الجانب البعيد. كان هذا المشهد يُحجَب تقريباً في الغشاء الرمادي المتواصل للأمطار. ففي الليل، كان جايك يجلس مفتوناً لبضع دقائق قبل أن يغفو، فيراقب المبارزة الحامية للبرق البعيد، الأبيض والأرجواني، الذي يُجفِل في صفاء هواء الليل.

كان الفتى جيداً على الطريق. فكان صلباً، لكن الأهم من ذلك أنه بدا أنه يحارب الإرهاق بإرادة هادئة قدَّرها المسلَّح وأُعجب بها. لم يكن يتكلم كثيراً ولا يطرح أسئلة، ولا حتى عن عظمة الفكّ التي كان المسلَّح يُديرها في يديه مراراً وتكراراً خلال تدخينه في المساء. أحسَّ أن الفتى يشعر بسرور كبير لمرافقته المسلَّح – وربما حتى بفخر – وهذا أقلقه. لقد وُضع الفتى في طريقه – *بينما تسافر مع الفتى، يسافر الرجل ذو الرداء الأسود مع روحك في جيبه* – وحقيقة أن جايك لم يكن يُبطئه لم تساهم سوى بفتح الباب أمام احتمالات شريرة أكثر.

مرَّا بمخلَّفات نار المخيَّم المتماثل للرجل ذي الرداء الأسود عند فواصل زمنية دورية، وبدا للمسلَّح أن تلك المخلَّفات كانت أحدث بكثير الآن. في الليلة الثالثة، كان المسلَّح متأكداً أنه يمكنه رؤية الشرارة البعيدة لنار مخيَّم آخر، في مكان ما على الصاعد الأول للتلال السفحيّة. هذا لم يُسعده بقدر ما كان يظنّ. فقد تذكّر أحد أقوال كورت له: *احذر من الرجل الذي يتظاهر أنه يمشي مشية عرجاء.*

حوالي الساعة الثانية في اليوم الرابع من مغادرة المحطة الوسطية، ترنّح جايك وكاد يسقط.

"هيا اجلس قليلاً"، قال المسلَّح.

"لا، أنا بخير".

"اجلس".

فجلس الفتى مطيعاً. قرفص المسلَّح قربه، لكي يكون جايك في ظله.

"اشرب".

"لا يُفترَض أن-".

"اشرب".

شرب الفتى ثلاث رشفات. ورطَّب المسلَّح ذيل البطانية، التي أصبحت تحتوي على مقدار أقل الآن، وفرك القماش الرطب على معصمَي الفتى وجبهته، اللذين كانا جافين من الحرارة.

"من الآن وصاعداً سنرتاح في مثل هذا الوقت بعد ظهر كل يوم. لخمس عشرة دقيقة. هل تريد أن تنام؟".

"لا". نَظَر إليه الفتى بخجل. ونَظَر إليه المسلَّح برقّة. بطريقة مجرَّدة، سحَب إحدى الرصاصات من حزامه وبدأ يديرها بحركة تنويم مغنطيسي بين أصابعه. وراح الفتى يراقبه مفتوناً.

"حركة مُتقَنة"، قال.

أومأ المسلَّح برأسه. "أجل!". ثم صمت لبرهة. "عندما كنتُ في سنّك، كنتُ أعيش في مدينة مسوَّرة، هل أخبرتك بذلك؟".

هزّ الفتى رأسه بأسلوب يدّل على النعاس.

"بالتأكيد. وكان هناك رجل شرير-".

"رجل الدين؟".

"أشكّ بذلك أحياناً في الواقع"، قال المسلَّح. "إذا كانا *اثنين*، أظن الآن أنهما إخوة. وربما حتى توائم. لكن هل رأيتهما معاً؟ لا، أبداً. هذا الرجل الشرير... هذا المارتن... كان مشعوذاً. مثل ميرلين. هل يعرفون ميرلين في المكان الذي أتيتَ منه؟".

"ميرلين وآرثر وفرسان الطاولة المستديرة"، قال جايك بنبرة حالمة.

شَعَر المسلَّح بصدمة بغيضة تصيبه. "نعم"، قال. "آرثر إلد، أنت تقول الحق، وأنا أقول لك شكراً. كنتُ يافعاً جداً...".

لكن الفتى كان نائماً وهو جالس، ويداه مطويتين بشكل أنيق في حُضنه.

"جايك".

"أجل!".

صوت هذه الكلمة من فم الفتى أجفلته بشكل سيئ، لكن المسلَّح لن يدع صوته يُظهر ذلك. "عندما أفرقع أصابعي، ستستيقظ. ستكون مرتاحاً ونشطاً. هل فهمت؟".

"نعم".

"استلق إذاً".

أخرَج المسلَّح ورق السجائر من كيس تبغه ولفّ سيجارة. كان هناك شيء ناقص. بحَث عنه بطريقته المتقنة الحذرة ووجده. كان الشيء الناقص هو شعوره المجنّن السابق بالاستعجال، الشعور بأنه قد يُترَك وحيداً في أي وقت، بأن الطريق سيختفي وسيُترَك مع أثر أخير

متضائل فقط. كل ذلك زال الآن، وكان المسلَّح يصبح متأكداً تدريجياً أن الرجل ذا الرداء الأسود يريد أن يُقبَض عليه. *احذر من الرجل الذي يتظاهر أنه يمشي مشية عرجاء.*

ما الذي يلي هذا؟

كان السؤال غامضاً جداً ليثير اهتمامه. كان كَثبرت ليجده مثيراً للاهتمام (ومُضحكاً على الأرجح)، لكن كَثبرت كان قد اختفى مثل بوق ديشاين، ولا يستطيع المسلَّح سوى المضي قدماً بالطريقة التي يعرفها.

راقَب الفتى بينما كان يدخِّن، وعادت ذاكرته إلى كَثبرت، الذي كان يضحك دائماً (مات وهو يضحك أيضاً)، وكورت، الذي لم يضحك أبداً، ومارتن، الذي يبتسم أحياناً - ابتسامة خفيفة صامتة لديها بريقها المُقلِق الخاص... مثل عين تُفتح في الظلمة وتسكب دماً. وهناك الصقر، بالطبع. كان يدعى دايفد، تيمّناً بخرافة الفتى ذي المقلاع. كان متأكداً جداً أن دايفد لا يعرف شيئاً سوى الحاجة إلى القتل والتمزيق والرعب. مثل المسلَّح نفسه. لم يكن دايفد هاوياً؛ بل كان يلعب في وسط الحلبة.

ما عدا في النهاية على الأرجح.

بدت معدة المسلَّح ترتفع وتضغط على قلبه بشكل مؤلم، لكن وجهه لم يتغيَّر. راقَب دخان سيجارته يرتفع في هواء الصحراء الحار ويختفي، وعاد إلى رشده.

VIII

كانت السماء بيضاء تماماً، ورائحة المطر قوية في الهواء. كانت رائحة السياجات النباتية والخَضَار المتزايد عذبة. كان الربيع بكل قوته، ما يسمّيه البعض «الأرض الجديدة».

جلَس دايفد على ذراع كَثبرت، محرّك تدمير صغير ذو عينين ذهبيتين ساطعتين تحملقان بلا شيء في الخارج. كان الرَسَن الجلدي المربوط بقيود رجلَي الصقر معقوداً بذراع بيرت بتهوّر.

وَقَف كورت بجانب الفتيَين، كان شكلاً صامتاً في سروال جلدي مرقَّع وقميص قطني أخضر مربوط بإحكام بحزام المشاة العريض القديم الخاص به. كان أخضر قميصه يندمج بأعشاب الفناءات الخلفية وسياجاتها النباتية، حيث لم تبدأ السيدات لعب «النقاط» بعد.

"استعدّا"، همَس رولاند لكَثبرت.

"نحن جاهزان"، قال كَثبرت بثقة. "ألسنا كذلك يا دايفي؟".

كانوا يتكلَّمون اللغة الوضيعة، لغة غاسلي الأطباق وحاملي الدروع معاً؛ كان اليوم الذي سيُسمَح لهم فيه باستخدام لغتهم الخاصة أمام الآخرين لا يزال بعيداً. "إنه يوم جميل لهذا. هل يمكنك شمّ رائحة المطر؟ إنها-".

رفع كورت باب الفخ بيديه فجأة وترك جهته الجانبية تُفتَح. طارت الحمامة عالياً محاولةً الوصول إلى السماء برفرفة سريعة من جناحيها. سحَب كَثبرت الرَسَن، لكنه كان بطيئاً؛ فقد كان الصقر قد أقلع من قبل وكان إقلاعه مربكاً. استعاد الصقر توازنه بنفضة موجزة

من جناحيه. رفرف صعوداً بجهد كبير، محققاً ارتفاعاً فوق الحمامة، وطائراً بسرعة البرق.

سار كورت إلى حيث يقف الفتيان، ولوَّح قبضته الضخمة والمفتولة على أذن كَتبرت. سقط الفتى من دون صوت، رغم أن شفتيه تلوَّتا بعيداً عن لثّته. سال الدم ببطء من أذنه إلى العشب الأخضر.

"كنت بطيئاً أيها التافه"، قال.

كافح كَتبرت ليقف على قدميه. "سامحني كورت. كنتُ فقط-".

لوَّح كورت بقبضته مرة أخرى، وسقط كَتبرت من جديد. سال الدم بسرعة أكبر الآن.

"تكلَّم اللغة الراقية"، قال بلطف. كان صوته خافتاً، مع صرير بسيط. "قل فعل الندامة الخاص بك بلغة الحضارة التي مات من أجلها رجال أفضل منك بكثير، أيها التافه".

كان كَتبرت ينهض من جديد. اغرورقت عيناه بدموع ساطعة، لكن شفتيه كانتا مشدودتين في كراهية قوية ولم ترتجفا.

"أنا حزين"، قال كَتبرت بصوت لاهث. "لقد نسيتُ وجه أبي، الذي آمل أن أحمل مسدساته يوماً ما".

"هذا صحيح أيها الشقي"، قال كورت. "ستفكّر بالخطأ الذي ارتكبته، وتوضِّح أفكارك بالجوع. لا عشاء. لا فطور".

"انظر!"، صاح رولاند وهو يشير إلى الأعلى.

كان الصقر قد أصبح فوق الحمامة المحلِّقة. وانزلَق للحظة ممدّداً جناحيه من دون أي حركة على هواء الربيع الأبيض الساكن. ثم طوى

جناحيه وهوى مثل حجرة. ارتطم الجسمان، وتخيَّل رولاند للحظة أنه يمكنه رؤية الدم في الهواء. أطلق الصقر صرخة نصر قصيرة. وسقطت الحمامة إلى الأرض وهي ترفرف، وركَض رولاند نحوها، تاركاً كورت وكَثبرت المعاقَب خلفه.

كان الصقر قد حطَّ قرب فريسته وبدأ يمزِّق صدرها الأبيض الممتلئ برضى. تأرجَح بضع الريش نزولاً ببطء.

"دايفد!"، صاح الفتى، وقذف للصقر قطعة لحم أرنب من حقيبته. التقطها الصقر في الجو، وابتلعها بهزّ ظهره وحنجرته إلى الأعلى، وحاوَل رولاند إعادة تقييد الطير.

دار الصقر في دوّامة، بذهن شارد تقريباً، ومزَّق بعض الجلد من ذراع رولاند وأحدَثَ له جرحاً بليغاً طويلاً. ثم عاد إلى وجبة طعامه.

ناخراً، أعاد رولاند عقد الرباط مرة أخرى، ملتقطاً دايفد هذه المرة وهو ينقضّ نزولاً، شاطباً منقاره على القفاز الواقي الجلدي الذي يرتديه. أعطى الصقر قطعة لحم أخرى، ثم غطّى له عينيه. فتسلَّق دايفد معصمه بانصياع.

وَقَف مفتخراً بنفسه، والصقر على ذراعه.

"هل يمكنك أن تخبرني ما هذا؟"، سأله كورت وهو يشير إلى الشق النازف على ساعد رولاند. جهَّز الفتى نفسه ليتلقى الضربة، مُغلقاً حنجرته لمنعها من إصدار أي بكاء محتمل، لكن الضربة لم تأتِ.

"لقد ضرَبني"، قال رولاند.

"لقد أغضبته"، قال كورت. "الصقر لا يخاف منك، أيها الفتى، ولن يخاف منك أبداً. الصقر هو مسلَّح الطبيعة".

اكتفى رولاند بالنظر إلى كورت. لم يكن فتى واسع الخيال، وإذا تقصَّد كورت أن يلمِّح إلى نقطة أخلاقية، فقد تاهت منه؛ ذهَب بعيداً جداً إلى درجة أنه صدَّق أنها قد تكون إحدى الجمل الحمقاء القليلة التي سمع كورت يقولها في يوم من الأيام.

ظهَر كَثبرت خلفهما ومدَّ لسانه لكورت، مطمئناً أنه بأمان على جهته العمياء. لم يبتسم رولاند، لكنه أومأ برأسه له.

"ادخل الآن"، قال كورت آخذاً الصقر. ثم استدار وأشار إلى كَثبرت. "لكن تذكّر أفكارك، أيها التافه. وصيامك. هذه الليلة وغداً صباحاً".

"نعم"، قال كَثبرت بتكلّف رسمي الآن. "شكراً لهذا اليوم المفيد".

"أنت تتعلَّم"، قال كورت، "لكن لسانك يعاني من عادة سيئة هي أنه يتدلّى من فمك الغبي عندما يدير لك مدرِّسك ظهره. ربما سيأتي يوم تتعلَّمان فيه مكان كل واحد منكما". وضرَب كَثبرت مرة أخرى، بقوة هذه المرة بين العينين وبقسوة كافية لكي يسمع رولاند صوت لطمة مكتومة - يشبه صوت المطرقة عندما يفتح غاسل الأطباق برميلاً صغيراً من شراب الشعير. سقط كَثبرت بظهره على المَرجة، وكانت عيناه غائمتين ومذهولتين في البدء. ثم توضّحت الرؤية وراح ينظر إلى كورت بحنق، وقد اختفت ابتسامته الاعتيادية كلياً، وظهر بغضه، وخزةٌ صغيرةٌ ساطعةٌ مثل دم الحمامة في وسط كل عين. أومأ برأسه وأبعَدَ شفتيه في ابتسامة معنَّفة لم يرها رولاند أبداً من قبل.

"إذاً هناك أمل بك"، قال كورت. "عندما تشعر أنه يمكنك، تعال إليَّ، أيها التافه".

"كيف عرفتَ؟"، قال كَثبرت بصوت خافت. مكتبة

استدار كورت نحو رولاند بسرعة كبيرة لدرجة أن رولاند تراجَع خطوة تقريباً - ثم كان كلاهما سيصبحان على العشب، يزخرفان الأخضر الجديد بدمهما. "رأيته منعكساً على عينَي هذا التافه"، قال. "تذكّر هذا يا كَثبرت أولغُود. آخر درس لهذا اليوم".

أومأ كَثبرت برأسه مرة أخرى، وقد ارتسمت نفس الابتسامة المخيفة على وجهه. "أنا حزين"، قال. "لقد نسيتُ وجه-".

"توقف عن هذا الكلام الأحمق"، قال كورت وقد فقَدَ اهتمامه. ثم استدار إلى رولاند. "تابعا طريقكما الآن. إذا اضطررتُ إلى النظر إلى وجهيكما الغبيين أي مدة أطول سأتقيأ وأخسر عشاءً لذيذاً".

"هيا"، قال رولاند.

هزّ كَثبرت رأسه ليصفّيه ووقف على قدميه. كان كورت قد بدأ ينزل التلة بمشيته المتقوّسة الساقين، وبدا قوياً وبطريقة أو بأخرى من عصور ما قبل التاريخ. كانت البقعة الحليقة والشيباء في أعلى رأسه تتلألأ.

"سأقتل هذا الحقير"، قال كَثبرت وهو لا يزال يبتسم. كانت هناك بيضة إوزة كبيرة، أرجوانية ومعقودة، ترتفع بغموض على جبهته.

"ليس أنت أو أنا"، قال رولاند، مبتسماً فجأة. "يمكنك تناول العشاء معي في المطبخ الغربي. سيعطينا الطبّاخ بعض الطعام".

"سيُخبر كورت".

"ليس صديقاً لكورت"، قال رولاند، ثم هزّ كتفيه. "وماذا لو

أخبره؟".

ابتسم له كَثبرت بدوره. "بالتأكيد. صحيح. لطالما أردتُ معرفة كيف يبدو العالم عندما يكون رأسك بالمقلوب ورأساً على عقب".

بدأا مسيرة العودة معاً فوق المروج الخضراء، مُلقيان ظلالاً على ضوء الربيع الأبيض النقي.

IX

كان الطبّاخ في المطبخ الغربي يدعى هاكس. رجلٌ ضخمٌ يرتدي رداءً أبيض ملطَّخاً بالطعام، وبشرته بلون الزيت الخام ورُبع أصله أسود، ورُبع أصفر، ورُبع من الجزر الجنوبية المنسية تقريباً الآن (الحياة استمرّت)، ورُبع الله أعلم. كان يمشي متثاقلاً في ثلاث غرف بخارية عالية السقف مثل جرّار بطيء، مرتدياً خُفّاً ضخماً ذا رأس مدبّب. كان أحد أولئك الراشدين النادرين جداً الذين يتواصلون مع الأولاد الصغار بشكل جيد نوعاً ما، ويحبّهم كلهم بلا تحيّز – ليس بطريقة معسولة بل بأسلوب مهني قد يستلزم عناقاً أحياناً، بنفس الطريقة التي قد يستلزم فيها عقد صفقة تجارية كبيرة مصافحةً. حتى أنه كان يحبّ الفتيان الذين بدأوا سلوك طريق المسدسات، رغم أنهم كانوا مختلفين عن الأولاد الآخرين – غير المُظهِرين لمشاعرهم والخطيرين قليلاً دائماً، ليس بطريقة الراشدين، بل كما لو أنهم أولاد عاديون مصابون ببعض الجنون – ولم يكن بيرت أول طلاب كورت الذين كان يُطعمهم خلسةً. كان واقفاً في تلك اللحظة أمام موقده الكهربائي الضخم – وهو أحد الأجهزة العاملة الستة الباقية في المنطقة بأسرها. كان هذا ميدانه

الشخصي، ووَقَف هناك يراقب الفتَيان يلتهمان فضلات اللحم التي طبخها في مرق اللحم. وخلفه وأمامه وحوله، كان الطبّاخون الصغار وغاسلو الأطباق ومختلف المساعِدين يسارعون في الهواء الرطب العابق بالبخار لهزّ المقلايات، وتحريك اليخنات، والعمل بجهد على البطاطا والخُضار في مناطق العالم السفلي. في حجرة المؤن الخفيفة الإضاءة، كانت هناك غاسلة ملابس ذات وجه شاحب ومترهِّل وبائس ترشّ الماء على الأرض بواسطة ممسحة.

دخل أحد فتيان غسل الأطباق مسرعاً وخلفه أحد الحرّاس. "هذا الرجل يسأل عنك يا هاكس".

"حسناً". أومأ هاكس برأسه للحارس، وأومأ الحارس برأسه أيضاً. "أيها الفتَيان"، قال. "اذهبا إلى ماغي، ستعطيكما بعض الحلوى. ثم انصرفا. لا تسبّبا لي أي متاعب".

سيتذكّران لاحقاً أنه قال ذلك: *لا تسبّبا لي أي متاعب*.

أومأا برأسيهما وذهبا إلى ماغي، التي أعطتهما قطعتَي حلوى ضخمتين على طبقَي عشاء – لكن بحذر شديد، كما لو أنهما كلبان متوحشان قد يعضّانها.

"هيا نأكلها تحت الدرج"، قال كَثبرت.

"حسناً".

جلَسا خلف صف أعمدة حجرية ضخمة حارة، بعيداً عن أنظار المطبخ، والتهما الحلوى بأصابعهما. بعد لحظات فقط، رأيا ظلالاً على الجدار المنحني البعيد للسُلّم العريض. أمسَك رولاند ذراع كَثبرت. "هيا"، قال. "هناك شخص قادم". رفع كَثبرت نظره وكان وجهه

متفاجئاً وملطَّخاً بالتوت.

لكن الظلال توقفت، ولا تزال بعيدة عن الأنظار. كان هاكس والحارس. بقي الفتَيان يجلسان حيث كانا. فإذا تحرَّكا الآن، قد يلفتان النظر.

"... الرجل الصالح"، كان الحارس يقول.

"فارسن؟".

"بعد أسبوعين"، ردَّ الحارس. "وربما ثلاثة. يجب أن تأتي معنا. هناك شحنة من مستودع البضائع...". سُمع صوت صاخب جداً لأوعية ومقلايات، وغطّى وابل صيحات الاستهجان الموجَّهة إلى النادل البائس الذي أوقعها على أصوات البقية؛ ثم سمع الفتَيان الحارس يُنهي كلامه قائلاً: "... لحم مسمَّم".

"مسألة محفوفة بالمخاطر".

"لا تسأل ماذا يستطيع الرجل الصالح أن يفعل لك-"، بدأ الحارس يقول.

"بل ما تستطيع أن تفعله له". تنهَّد هاكس. "أيها الجندي، لا تسأل".

"أنت تعرف المعنى المحتمل لهذا"، قال الحارس بهدوء.

"أجل. وأعرف مسؤولياتي تجاهه؛ لا داعي أن تُحاضر عليَّ. أحبه مثلك تماماً. وسأتبعه إلى البحر إذا طلَب مني ذلك؛ لذا سأُنجز المهمة".

"حسناً. سيتم تعليم اللحم للتخزين القصير الأجل في غرف التبريد. لكن يجب أن تكون سريعاً. يجب أن تفهم ذلك".

"هل هناك أولاد في تونتن؟"، سأل الطبّاخ. لم يكن سؤالاً حقاً.

"الأولاد في كل مكان"، قال الحارس بلطف. "إنهم الأولاد الذين نهتم - ويهتم - لأمرهم".

"لحم مسمَّم. يا لها من طريقة غريبة للاهتمام بالأولاد". وتنهَّد هاكس تنهيدةً ثقيلةً. "هل سيتخثَّرون ويُمسكون بطونهم ويبكون طالبين أمهاتهم؟ أظن أنهم سيفعلون ذلك".

"سيكون ذلك مثل النوم"، قال الحارس، لكن صوته كان معقولاً بثقة كبيرة.

"بالطبع"، قال هاكس، وضحك.

"أنت قلتها بنفسك. 'أيها الجندي، لا تسأل'. هل تعجبك رؤية الأولاد تحت حُكم المدفع، في حين أنه يمكنهم أن يكونوا تحت يديه، جاهزين لبدء تشكيل عالم جديد؟".

لم يردّ هاكس.

"ستبدأ خدمتي بعد عشرين دقيقة"، قال الحارس، بصوت هادئ مرة أخرى. "اعطني قطعة لحم ضأن وسأقرص إحدى فتياتك وأجعلها تقهقه. عندما أغادر-".

"لحم الضأن الخاص بي لن يسبّب تشنّجات لبطنك يا روبسون".

"هل..."، لكن الظلال ابتعَدت واختفت الأصوات.

كان يمكنني قتلهما، فكّر رولاند في سرّه، وهو مسمَّر في مكانه. *كان يمكنني قتلهما بسكيني، جزّ عنقهما مثل دجاجة*. نَظَر إلى يديه، الملطَّختين الآن بمرق اللحم والتوت، وكذلك تراب دروس اليوم.

"رولاند".

نَظَر إلى كَثبرت. نظرا إلى بعضهما البعض لعدة لحظات طويلة في شبه الظلمة العطِرة، وملأ مذاق يأس دافئ حنجرة رولاند. ما شعَر به قد يكون نوعاً من الموت - شيئاً وحشياً ونهائياً مثل موت الحمامة في السماء البيضاء فوق حقل الألعاب. *هاكس؟* فكّر في سرّه، مرتبِكاً. *هاكس الذي وضع كمادة على رجلي تلك المرة؟ هاكس؟* ثم تجمّد عقله، وتشتّت أفكاره.

فما رآه، حتى في وجه كَثبرت الفكاهي الذكي، كان لا شيء - لا شيء على الإطلاق. كانت عينا كَثبرت مسطّحتين بحُكم هاكس بالموت. في عينَي كَثبرت، كان الأمر قد حصل من قبل. فقد أطعمهما وجلسا تحت الدرج ليأكلا ثم أحضَر هاكس الحارس الذي يدعى روبسون إلى الزاوية الخطأ في المطبخ ليحيكا مؤامرتهما. لقد تصرَّف المصير مثلما يتصرَّف أحياناً، وفجأة مثل حجر كبير يتدحرج نزولاً على تلّة. كان هذا كل شيء.

لقد أصبحت عينا كَثبرت عينَي المسلَّح.

X

كان والد رولاند قد عاد للتو من النُجُود، وبدا غريباً وسط الستائر والحُليّ الرخيصة المبهرجة في قاعة الاستقبال الرئيسية التي سُمِحَ للفتى بدخولها مؤخراً فقط، كدلالة على مدة تدرّبه.

كان ستيفن ديشاين يرتدي سروال جينز أسود وقميص عمل أزرق. وكان رداؤه المليء بالغبار والممزَّق عند أحد الأطراف ملقياً

بإهمال فوق كتفه دون الاكتراث لطريقة تناقضه مع أناقة الغرفة. كان نحيلاً بشكل يدفع إلى اليأس، وبدا شاربه العريض ثقيلاً على رأسه عندما أخفض نظره نحو إبنه. وكان المسدسان المتقاطعان فوق وركَيه يتدلّيان عند زاوية مثالية ليديه، وبدا المقبضان الرنّان المصنوعان من خشب الصندل كليلَين ونعسانين في هذا الضوء الخفيف داخل المنزل.

"رئيس الطبّاخين"، قال والده بلطف. "تخيَّل ذلك! المسارات التي فُجّرت في النَجْد عند رأس السكة الحديدية. الماشية الميتة في هندريكسون. وربما حتى... تخيَّل! تخيَّل!".

نظر عن كثب أكثر إلى إبنه. "إنه يفترسك".

"مثل الصقر"، قال رولاند. "إنه يفترسك". وضحك - من الملاءمة المُجفلَة للصورة وليس من أي إضاءة في الحالة.

ابتسم والده.

"نعم"، قال رولاند. "أظن ذلك...أنه يفترسني".

"كان كَثبرت معك"، قال والده. "سيكون قد أخبر والده الآن".

"نعم".

"لقد أطعمكما عندما كورت-".

"نعم".

"وكَثبرت. هل تظن أنه يفترسه؟".

"لا أعرف". كما أنه لا يهتمّ لذلك. لم يكن قلقاً من الاختلاف بين مشاعره ومشاعر الآخرين.

"إنه يفترسك لأنك تشعر أنك سبَّبت موت رجل؟".

هزّ رولاند كتفيه غير طوعياً، ولم يكن مسروراً من هذا الاستقصاء لدوافعه.

"ومع ذلك أخبرتَ. لماذا؟".

اتّسعت عينا الفتى. "كيف يمكنني ألا أُخبر؟ كانت الخيانة-".

لوَّح والده بيده باقتضاب. "إذا كنت قد فعلت ذلك لشيء رخيص مثل فكرة لكتاب مدرسي، فقد فعلته بشكل مهين. أُفضِّل رؤية كل سكان تونتن مسمَّمين".

"لم أفعل!". خرجت الكلمات من فمه بعنف. "أردتُ أن أقتله - أن أقتلهما! كذّابين! كذّابين *لعينين*! أفاعٍ! لقد-".

"أكمِل".

"لقد سبّبا لي الألم"، وأنهى كلامه بنبرة تحدٍّ. "لقد غيَّرا شيئاً وهذا يؤلمني. أردتُ أن أقتلهما لذلك. أردتُ أن أقتلهما فوراً".

أومأ والده برأسه. "هذا فظّ يا رولاند، لكنه ليس غير لائق. وليس أخلاقياً أيضاً، لكن ليس مطلوباً منك أن تكون أخلاقياً. في الواقع..."، وحدَّق في إبنه. "قد تكون الأخلاقيات بعيدة عنك دائماً. أنت لست سريعاً، مثل كَثبرت أو إبن فانّاي. لكن لا بأس. هذا سيجعلك مرعباً".

شَعَر الفتى بالسرور والانزعاج من هذا. "سوف-".

"آه، سوف يُشنَق".

أومأ الفتى برأسه. "أريد رؤية ذلك".

رمى ديشاين الأب رأسه إلى الخلف وزأر ضحكةً. "لست مرعباً

مثلما ظننتُ... أو ربما غبياً فقط". وصمتَ فجأة. ثم مدَّ ذراعه وأمسَك ذراع الفتى بشكل مؤلم. لكن رولاند كشَّر ولم يجفل. راح والده يحدِّق فيه بثبات، والفتى ينظر إليه، رغم أنه كان أصعب من تغطية عينَي الصقر.

"حسناً"، قال، "يمكنك ذلك". واستدار فجأة لكي يغادر.

"أبي؟".

"ماذا؟".

"هل تعرف عمَّن كانا يتكلمان؟ هل تعرف مَن هو الرجل الصالح؟".

عاد والده واستدار ونَظَر إليه نظرة تأملية. "نعم. أظن ذلك".

"إذا قبضتَ عليه"، قال رولاند بطريقته العميقة التفكير وشبه المتثاقلة، "لا أحد آخر غير الطبّاخ سيُقطَع عنقه".

ابتسم والده ابتسامة خفيفة. "ربما ليس لبعض الوقت. لكن في النهاية، هناك شخص دائماً سيُقطَع عنقه. فالشعب يطالب بذلك. وعاجلاً أم آجلاً، إذا لم يظهر أي مرتدّ، فإن الشعب سيبتكر واحداً".

"نعم"، قال رولاند مستوعباً المفهوم فوراً - كان واحداً لم ينسه أبداً. "لكن إذا قبضتَ على الرجل الصالح-".

"لا"، قال والده بشكل قاطع.

"لما لا؟ لماذا هذا لن يُنهي المسألة؟".

بدا والده للحظة على وشك أن يقول السبب، لكنه اكتفى بهزّ رأسه. "أظن أننا تكلّمنا كفاية في الوقت الحاضر. اخرج مني".

أراد أن يطلب من والده ألا ينسى وعده عندما يحين وقت وقوع هاكس في الفخ، لكنه كان حسّاساً لمزاجية والده. وَضَع قبضته على جبهته، وشبَكَ قدماً أمام الأخرى، وانحنى. ثم خرَج، مُغلقاً الباب بسرعة. شكَّ أن ما يريده والده الآن هو إقامة علاقة حميمة. فقد كان يُدرك أن والدته ووالده يفعلان ذلك، وكان مُطّلعاً إلى حد معقول على كيفية حصول هذه العملية، لكن الصورة الذهنية التي ترافق الفكرة كانت تجعله دائماً يشعر بعدم الارتياح وبذنب غريب. بعد بضع سنوات، ستُخبره سوزان قصة أوديب، وسيتشرّبها في مراعاة هادئة، ويفكّر بالمثلث الغريب والدموي الذي يشكّله والده ووالدته ومارتن – المسمّى في بعض الأوساط فارسن، الرجل الصالح. أو ربما كان رُباعي أضلاع، إذا أراد أحدٌ أن يضيف نفسه.

XI

كانت تلة غالوز على طريق تونتن، وهذا كان أمراً شاعرياً؛ ربما كان كَتبرت يُقدِّر ذلك، على عكس رولاند. كان يُقدِّر التلة المشؤومة الرائعة التي تتسلَّق نحو السماء الزرقاء، بصورة ظليّة زاويّة تُشرف على طريق الحافلات.

كان قد سُمح للفتَيين بالخروج من تمارين الصباح – كان كورت قد قرأ رسالتَي والدَيهما بشكل دقيق، حيث راح يحرِّك شفتيه صمتاً، ويومئ برأسه بين الحين والآخر. وعندما انتهى منها، وضع الورقتين بعناية في جيبه. حتى هنا في جلعاد، كان الورق قيّماً كالذهب. وعندما أصبحت تلك الورقتين بأمان، رفع نظره إلى سماء الفجر الأزرق البنفسجي وأومأ

برأسه مرة أخرى.

"انتظرا هنا"، قال، وذهَب إلى الكوخ الحجري المائل الذي كان مكان إقامته. عاد ومعه شرحة خبز جافة غير مخمَّرة، وكسرها إلى نصفين، وأعطى نصفاً لكل واحد منهما.

"عندما ينتهي هذا، سيضع كل واحد منكما هذا تحت حذائه. انتبهوا أن تفعلوا ذلك مثلما أقول بالضبط وإلا سأضربكما حتى الأسبوع القادم".

لم يفهما إلى أن وصلا راكبَين على حصان كَثبرت المخصي. كانا أول الواصلين، قبل ساعتين كاملتين من أي شخص آخر وقبل أربع ساعات من عملية الشنق، لذا كانت تلة غالوز مهجورة – ما عدا من الغِربان والغِدفان. كانت الطيور في كل مكان. جثَما بصخب على قطعة الخشب الصلبة الناتئة التي تُشرف على باب الفتحة الأفقية – عمود الموت. جلَسا عند حافة المنصة، وتدافعا للحصول على مكان جيد على الدرجات.

"يتركون الجثث"، تمتم كَثبرت. "للطيور".

"هيا نصعد"، قال رولاند.

نَظَر إليه كَثبرت نظرة رعب. "إلى *هناك*؟ هل تعتقد–".

قاطعه رولاند بإيماءة من يديه. "لقد وصلنا باكراً جداً. لا أحد سيأتي".

"حسناً".

سارا ببطء نحو المشنقة، وطارت الطيور وراحت تنعق وتدور في

دوائر مثل مجموعة من الفلاحين الغاضبين الذين انتُزعت ملكية أراضيهم منهم. كانت أجسادهم سوداء مسطَّحة في ضوء الفجر الصافي لسماء العالم الداخلي.

لأول مرة شَعَر رولاند بضخامة مسؤوليته في المسألة؛ لم يكن هذا الخشب نبيلاً، ليس جزءاً من آلة الحضارة الرائعة، بل مجرد صنوبرٍ ملتوٍ من غابة البارونية، ملطَّخ بفضلات الطيور البيضاء. كانت الفضلات في كل مكان – على الدرجات، الدرابزين، المنصة – ورائحتها كريهة.

استدار الفتى إلى كَثبرت بعينين جافلتين مرتعبتين ورآه ينظر إليه بنفس التعبير.

"لا أستطيع"، همَس كَثبرت. "رولاند، لا يمكنني مشاهدته".

هزّ رولاند رأسه ببطء. أدرَك أنه يوجد درس هنا، ليس شيئاً مُشرقاً بل شيئاً قديماً وصدئاً ومشوَّهاً. لهذا السبب سمح لهما والداهما بالقدوم. وبعِناده الاعتيادي والمُبهم، وضع رولاند يدين ذهنيتين على جوهر النقطة.

"بلى يمكنك يا بيرت".

"لن أنام هذه الليلة إذا فعلتُ ذلك".

"إذاً لن تنام"، قال رولاند، دون أن يرى ما علاقة هذا بالموضوع.

قبض كَثبرت فجأة على يد رولاند ونَظَر إليه بألم مكتوم بحيث أن ارتياب رولاند عاد إليه، وتمنّى من كل قلبه لو أنهما لم يذهبا أبداً إلى المطبخ الغربي تلك الليلة. كان والده على حق. من الأفضل عدم المعرفة. أن يكون كل رجل وامرأة وطفل في تونتن ميتاً ونتِناً أفضل من هذا.

لكن ومع ذلك. ومع ذلك. مهما كان الدرس، واهناً، أي شيء نصف مدفون بأطراف حادة، لن يصرفه من ذهنه أو يُرخي قبضته عليه.

"دعنا لا نصعد"، قال كَثبرت. "لقد رأينا كل شيء".

وأومأ رولاند برأسه على مضض، شاعراً قبضته على ذلك الشيء – أياً كان – تضعف. كان يعرف أن كورت كان ليضربهما ضرباً مُبرحاً ثم يجبرهما على الصعود إلى المنصة وهو يشتم على كل درجة... ويجعلهما يشمّان رائحة الدم الطازج في أنفيهما وحنجرتيهما. كان كورت على الأرجح ليضع حبلاً جديداً من القنب فوق الصارية نفسها ويلفّ حبل المشنقة حول عنق كل واحد منهما بدوره، ويجعلهما يقفان على باب الفتحة الأفقية ليشعرا بالمسألة عن حق؛ وسيكون كورت جاهزاً ليضربهما مرة أخرى إذا بكيا أو فقدا السيطرة على مثانتهما. وكورت، بالطبع، سيكون على حق. لأول مرة في حياته، وجد رولاند نفسه يكره طفولته. تمنّى لو أنه يكبر بسرعة.

تعمَّد نزع شظية من الدرابزين ووضعها في جيب صدره قبل أن يستدير.

"لماذا فعلت هذا؟"، سأله كَثبرت.

تمنّى أن يُجيب إجابةً متبجّحةً: *آه، حظ المشانق...*، لكنه اكتفى بالنظر إلى كَثبرت وهزّ رأسه. "فقط لكي تكون معي"، قال. "معي دائماً".

ابتعدا عن المشنقة، وجلسا، وانتظرا. بعد حوالي ساعة، بدأ أوائل سكان المدينة يتجمَّعون، وفي أغلبهم عائلات أتت في عربات محطَّمة وحناطير مهترئة، حاملين فطورهم معهم – سلال كبيرة من الفطائر

الباردة المحشوة بمربى الفتلاق البري. شَعَر رولاند بمعدته تهدر من الجوع وتساءل مرة أخرى، بيأس، أين الشرف والشهامة. فقد ترتّى على هكذا أمور، ووجد نفسه الآن مضطراً إلى التساؤل إن كانت أكاذيب، أم مجرد كنوز دفنها الحكيم عميقاً. *أراد* أن يصدِّق ذلك، لكن بدا له أن هاكس، المتنقّل بثيابه البيضاء الوسخة في أرجاء مطبخه العابق بالبخار تحت الأرض والصائح على النُدُل، لديه شرف أكثر من هذا. لمس بأصابعه الشظية من خشب المشنقة بارتباك مريض. كان كَثبرت جالساً بجانبه بوجهٍ فاقد الإحساس.

XII

في النهاية، لم تكن العملية مؤثّرة كثيراً، وكان رولاند مسروراً. نُقل هاكس في عربة مفتوحة، لكن فقط حجمه الضخم كشف أمره؛ فقد كان معصوب العينين ويضع غطاءً أسود عريضاً فوق وجهه. رُميت بعض الأحجار عليه، لكن معظم المتفرّجين تابَعوا يتناولون فطورهم أثناء المشاهدة.

ساعدَ مسلَّحٌ لم يكن الفتى يعرفه جيداً (كان مسروراً أن والده لم يشارك في العملية) الطبّاخ السمين في صعود الدرجات بعناية. وكان هناك حارسان يقفان مسبقاً على جانبَي باب الفتحة الأفقية. عندما وصل هاكس والمسلَّح إلى الأعلى، رمى المسلَّح حبل المشنقة فوق منصة الصاري ثم لفّه حول رأس الطبّاخ، واضعاً العقدة تحت الأذن اليسرى مباشرة. كانت الطيور قد طارت كلها، لكن رولاند كان يعرف أنها تنتظر.

"هل ترغب في تقديم اعتراف؟"، سأله المسلَّح.

"ليس عندي شيء لأعترف به"، قال هاكس. سُمعت كلماته جيداً، وكان صوته مفخَّماً بشكل غريب رغم الغطاء المتدلّي فوق شفتيه. تموَّج الغطاء قليلاً في النسيم العليل الخفيف الذي هبَّ. "لم أنسَ وجه أبي؛ كان معي من البداية".

ألقى رولاند نظرة سريعة على الحَشد واضطرب مما رآه هناك – شعور بالتعاطف؟ ربما الإعجاب؟ سيسأل والده. عندما يُسمّى الخونة أبطالاً (أو خونة أبطال، افترَض بطريقته العابسة)، لا بدّ أن يكون الزمن زمناً مظلماً. زمناً مظلماً بالفعل. تمنّى لو يستطيع أن يفهم أكثر. انتقل ذهنه إلى كورت والخبز الذي أعطاهما إياه. شعَر بالازدراء؛ سيأتي يوم يخدمه فيه كورت. ربما ليس كَثبرت؛ ربما بيرت سيلتوي تحت ثقل نيران كورت المتواصلة ويبقى خادماً أو غلاماً (أو أسوأ بكثير، ديبلوماسياً معطَّراً يلهو في حجرات الاستقبال أو ينظر إلى كُرات بلّور زائفة مع الملوك والأمراء الخَرِفين)، لكنه لن يفعل ذلك. إنه متأكد. كان مناسباً للأراضي المفتوحة والنزهات الطويلة. سيحلم مسروراً بهذا المصير *الجيد* لاحقاً، عندما يكون وحيداً.

"رولاند؟".

"أنا هنا". أمسك يد كَثبرت، وتشابكت أصابعهما كالحديد.

"أنت متّهم بالقتل والتحريض"، قال المسلَّح. "لقد خُنت النور، وأنا، تشارلز إبن تشارلز، أرسلك إلى العتمة إلى الأبد".

همس الحَشد، وبعضهم احتجاجاً.

"أنا لم–".

"إروِ قصتك في الجحيم، أيها التافه"، قال تشارلز إبن تشارلز، وشدّ الرافعة بيديه اللتين ترتديان قفازاً واقياً أصفر.

فُتح الباب الأفقي. ونزل فيه هاكس بسرعة، وكان لا يزال يحاول أن يتكلم. لم ينسَ رولاند هذا المشهد أبداً. نزل الطبّاخ وكان *لا يزال يحاول أن يتكلم*. وأين أنهى الجملة الأخيرة التي بدأها على كوكب الأرض؟ انتهت كلماته بصوت الانفجار الذي تُحدثه عقدة خشب الصنوبر في الموقد في ليلة شتوية باردة.

لكنه بالإجمال لم يجد العملية مؤثرة جداً. فقد ركل الطبّاخ رجليه في الهواء مرةً؛ وهذا جَعَل الحَشد يصفر صفير رضى؛ تخلّى الحراس عن وقفتهم العسكرية وبدأوا يجمعون الأشياء بإهمال. نزل تشارلز إبن تشارلز الدرجات ببطء، وركب حصانه، وانطلق، مارّاً بسرب من المتنزّهين، ضارباً سوطه لإبعاد الحافلات البطيئة، مما جعلهم يهرولون.

تشتّت الحَشد بسرعة بعد ذلك، وبعد أربعين دقيقة بقي الفتَيان لوحدهما على التلة الصغيرة التي اختارا الجلوس عليها. كانت الطيور قد بدأت تعود لتفحص جائزتها الجديدة. جلس أحدها بشكل ودود على كتف هاكس، موجّهاً منقاره إلى الطارة اللامعة التي يضعها هاكس في أذنه اليمنى.

"لا يبدو أنه هو أبداً"، قال كَثبرت.

"آه، بلى"، قال رولاند بثقة بينما كانا يسيران نحو المشنقة، والخبز في يديهما. بدا بيرت مُخجَلاً.

توقفا تحت منصة الصاري، ورفعا نظرهما إلى الجثة المتدلّية. مدَّ كَثبرت يده ولمس كاحلاً كثير الشعر، بتحدٍّ. بدأت الجثة تتأرجح من

جديد.

ثم، كسرا الخبز بسرعة ونثرا القُطع تحت القدمين المتدلّيتين. نظر رولاند إلى الخلف مرةً وهما يغادران. أصبح هناك آلاف الطيور الآن. إذاً، فإن الخبز - أدرك هذا أخيراً - رمزيٌ.

"كانت العملية جيدة"، قال كَثبرت فجأة. "لقد... لقد... أعجبتني. حقاً".

لم ينصدم رولاند من هذا، رغم أنه لم يكترث بشكل خاص للمشهد. لكنه شعرَ أنه يستطيع ربما أن يفهم ماذا كان بيرت يقول. ربما لن ينتهي به المطاف كديبلوماسيٍ.

"لا أعرف"، قال، "لكنه كان شيئاً. كان شيئاً بالتأكيد".

لم تصبح الأرض مسؤولية الرجل الصالح قبل خمس سنوات أخرى، وفي ذلك الوقت كان رولاند قد أصبح مسلَّحاً، وتوفى والده، وأصبح هو نفسه قاتل أمه - والحياة استمرّت.

لقد بدأت السنوات الطويلة والنزهات الطويلة.

XIII

"انظر"، قال جايك وهو يشير إلى أعلى.

رفع المسلَّح نظره وشَعَر بوخز في وركه الأيمن. فجفَل. لقد مرَّ يومان الآن على وجودهما في التلال السفحيّة، ورغم أن قِرَب الماء كانت فارغة تقريباً مرة أخرى، إلا أن ذلك لم يعد مهماً. سيتوفر لهما قريباً كل الماء الذي يمكنهما شربه.

تبع الاتجاه الذي أشار إليه إصبع جايك، متخطياً السهل الأخضر وصولاً إلى الجروف الصخرية الجرداء والوامضة والممرات الضيقة التي فوقه... صعوداً نحو الإكليل الثلجي نفسه.

شيء باهت وبعيد، مجرد نقطة صغيرة جداً (قد تكون إحدى تلك ذرّات القذى التي ترقص أمام العينين على الدوام، ما عدا أنها كانت ثابتة)، شاهَد المسلَّح الرجل ذا الرداء الأسود يتحرّك صعوداً على المنحدرات بتقدّم لدود، ذبابة صغيرة جداً على جدار غرانيت ضخم.

"هل هذا هو؟"، سأل جايك.

نَظَر المسلَّح إلى ذرّة القذى المسلوبة الشخصية تؤدّي بهلوانياتها البعيدة، ولم يشعر بشيء سوى بالحزن.

"هذا هو يا جايك".

"هل تعتقد أننا سنقبض عليه؟".

"ليس على هذه الجهة. على الجهة الأخرى. وليس إذا بقينا نقف هنا نتكلم عن ذلك".

"إنها عالية جداً"، قال جايك. "ماذا يوجد على الطرف الآخر؟".

"لا أعرف"، قال المسلَّح. "ولا أظن أن أي شخص يعرف. ربما كانوا يعرفون فيما مضى. هيا يا فتى".

عاودا التحرّك صعوداً، مسبِّبين تساقط بعض الحصى الصغيرة والرمال نحو الصحراء الممتدة خلفهما كورقة مسطَّحة بدت لا تنتهي أبداً. وفوقهما، في البعيد، كان الرجل ذو الرداء الأسود يصعد ويصعد ويصعد. كان من المستحيل رؤية إن نظر إلى خلفه. بدا أنه يقفز فوق

خلجان مستحيلة، ويتسلّق مسافات كبيرة. اختفى مرة أو مرتين، لكنهما عاودا رؤيته، إلى أن حجبته ستارة الغسق البنفسجية عن نظرهما. عندما نصبا مخيَّمهما للمساء، تكلَّم الفتى قليلاً، وتساءل المسلَّح إن كان الفتى يعرف ما يعرفه هو نفسه بالفطرة. تذكّر وجه كَثبرت، الحار، المرتعِب، المتحمِّس. تذكّر الخبز. تذكّر الطيور. تذكّر أن الأمور تنتهي بهذه الطريقة. تنتهي بهذه الطريقة مراراً وتكراراً. هناك مساعٍ وطرقات تأخذنا إلى الأمام دائماً، وكلها تنتهي في نفس المكان - على أرض القتل.

ما عدا، ربما، الطريق إلى البرج. هناك قد يبيِّن المصير وجهه الحقيقي.

الفتى، التضحية، وجهه البريء واليافع جداً في ضوء نارهما الصغيرة جداً، غفا وهو يتناول حبوبه. غطّاه المسلَّح ببطانية الحصان ثم كوَّر نفسه لينام هو أيضاً.

t.me/ktabpdf t.me/ktabrwaya

الفصل 3

العرّافة والجبال

I

عثر الفتى على العرّافة وكاد هذا يدمِّره.

أيقظت غريزةٌ ضعيفةٌ المسلَّح من نومه إلى العتمة المخملية التي حلّت عليهما عند الغسق. حصل ذلك عندما وصل مع جايك إلى الواحة العشبية المسطَّحة تقريباً فوق الهضبة الأولى في سلسلة التلال السفحيّة المتقلِّبة. حتى في الأرض القاحلة تحتهما، حيث كدَحا وحاربا لكل متر تحت الشمس القاتلة، كانا قادرين على سماع صوت الجداجد وهي تفرك أرجلها بشكل مغرٍ في الأخضر الدائم لبساتين الصفصاف فوقهما. بقي المسلَّح هادئاً في ذهنه، وحافظ الفتى على رباطة جأش زائفة على الأقل، وهذا جَعَل المسلَّح فخوراً. لكن جايك لم يكن قادراً على إخفاء الوحشية في عينيه، البيضاوين والمحدِّقتين، اللتين كانتا عينا حصان شعر بقُرب الماء وكبح نفسه عن الهرولة بسبب فقط الحبل الرفيع في ذهن سيده؛ مثل حصان كان الفهم فقط، وليس المهماز، هو الذي يستطيع إبقاءه هادئاً. كان بإمكان المسلَّح الشعور بالضيق في جايك عبر أصوات الجداجد التي تعيش في جسده. بدت ذراعاه تبحثان عن الطفَل الصخري لكي يكشطهما عليها، وبدت رُكبتاه تتمنّيان أن تتمزَّقا في جروح بليغة صغيرة جداً مالحة مجنِّنة.

أحرقتهما الشمس طوال الطريق؛ حتى عندما تحوَّلت إلى كرة متوهّجة حمراء عند الغروب، بقيت تُشرق بشكل مشاكس عبر الشقوق في التلال على يسارهما، مُعمية لهما وجاعلة كل نقطة عرق مصدراً للألم.

ثم كان هناك العشب المنشاري: في البدء أجمة صفراء فقط، متشبِّثة بحيوية مخيفة بالتربة الجرداء حيث تصل آخر سيول الماء. وإلى الأعلى من ذلك، كان هناك النجيل، متناثراً في البدء، ثم أخضر وخصباً... ثم الرائحة الحلوة للعشب الحقيقي، ممزوجاً بعشبة التيموثي ومظلّلاً بأولى أشجار الشوح القزَمة. رأى المسلَّح هناك قوساً بنياً يتحرّك في الظلال. فسحب مسدسه وأطلق النار، وصَرَع الأرنب قبل أن يتمكن جايك من التعبير عن دهشته. بعد لحظة فقط كان قد أعاد المسدس إلى قِرابه.

"هنا"، قال المسلَّح. كان العشب أمامهما متعمِّقاً في غابة أشجار صفصاف خضراء وجداها رائعة بعد الجَدْب الجاف للطبقة الصلدة اللانهائية. سيكون هناك ربيعٌ، وربما العديد منها، وسيكون الجو أجمل حتى، لكن من الأفضل البقاء هنا في العراء. كان الفتى قد سار كل خطوة يمكنه سيرها، وقد تكون هناك وطاويط مصّاصة للدماء عميقاً في ظلال الغابة. قد تقطع الوطاويط نوم الفتى، مهما يكن نومه عميقاً، وإذا كانت مصّاصة للدماء، فلن يستيقظ أي واحد منهما... على الأقل، ليس في هذا العالم.

قال الفتى، "سأُحضر بعض الحطب".

ابتسم المسلَّح. "لا، لن تفعل. اجلس واسترح يا جايك". لمن

كانت هذه الجملة؟ امرأة ما. سوزان؟ لا يمكنه أن يتذكّر. *الوقت لص الذاكرة*: كان يعرف هذا. هذه الجملة لفانّاي.

جلس الفتى. عندما عاد المسلَّح، وجد جايك نائماً على العشب. وكان هناك سرعوف كبير يغتسل على خصلة شعر مرفوعة على رأس الولد. ضحك المسلَّح – وكانت أول ضحكة منذ مدة طويلة – وأشعل النار وذهب ليُحضر بعض الماء.

كانت غابة الصفصاف أعمق مما ظنَّ، ومربكة في النور الخفيف. لكنه وجَد نبعاً، يحرسه عدد كبير من الضفادع. ملأ إحدى قِرَب الماء... وجمد في مكانه. فالأصوات التي ملأت الليل أيقظت شهوانية قلقة فيه، وهو شعور حتى آليْ، المرأة التي أقام علاقة حميمة معها في تَلّ، لم تكن قادرة على إبرازه – معظم وقته مع آليْ كان للعمل. عزاه إلى التغيير المفاجئ الهائل من الصحراء. بعد سيره كل تلك الكيلومترات على الطبقة الصلدة الجرداء، بدت نعومة الظلام منحطّة تقريباً.

عاد إلى المخيَّم وسلخ الأرنب بينما كان الماء يغلي فوق النار. ممزوجاً بآخر عبوة خضار معلَّبة معهما، شكَّل الأرنب يخنةً لذيذةً. أيقَظ جايك وراقبه يأكل، مُتعَباً حتى الإجهاد لكن شَرِهاً.

"سنبقى هنا غداً"، قال المسلَّح.

"لكن ذلك الرجل الذي تلاحقه... رجل الدين...".

"ليس رجل دين. ولا تقلق. سيستمر".

"كيف تعرف ذلك؟".

لم يكن بوسع المسلَّح سوى أن يهزّ رأسه. كان حدسه قوياً... لكنه لم يكن حدساً جيداً.

بعد الانتهاء من تناول الطعام، شطَف العبوتين اللتين أكلا فيهما (متعجِّباً مرة أخرى من تبذيره ماءه)، وعندما استدار، كان جايك نائماً مرة أخرى. شَعَر المسلَّح بالصعود والهبوط المألوفَين الآن في صدره والذي يمكنه ربطه بكَثبرت فقط. كان كَثبرت بنفس سنّ رولاند، لكنه بدا أصغر سناً بكثير.

تهدَّلت سيجارته نحو العشب، وقَذَفها في النار. نَظَر إليها، وكان الحريق الأصفر النقي مختلفاً جداً، أنظف بكثير، من طريقة احتراق العشب الشيطاني. كان الهواء بارداً بشكل رائع، واستلقى مديراً ظهره للنار.

في الأفق البعيد، وعبر الشق الكبير الذي يؤدي إلى الجبال، سمِع التعبير الغليظ للرعد الدائم. نام. وحلَم.

II

كانت سوزان ديلغادو، محبوبته، تُحتضَر أمام عينيه.

راح يراقب، وقرويان يُمسكان ذراعيه من كل جهة، عنقه مقبوضاً عليه في طوق حديدي ضخم صدئ. لم تكن هذه هي الطريقة التي حصلت بها الأمور - حتى إنه لم يكن هناك - لكن للأحلام منطقها الخاص، أليس كذلك؟

كانت تُحتضَر. يمكنه أن يشمّ رائحة شعرها المحترق، يمكنه أن يسمع صراخهم لـ "شجرة تشاريو". ويمكنه أن يرى لون جنونه. سوزان، فتاة جميلة عند النافذة، إبنة الفارس. كيف طارت عبر المَهبِط، بظلها الذي هو ظل حصان وفتاة مندمجين، مخلوق رائع خارج من قصة قديمة،

شيء بريّ وحر! كيف طارا معاً في حقول الذرة! كانوا الآن يقذفون قشور ذرة عليها، وكانت القشور تشتعل حتى قبل أن ترتطم بشعرها. كانوا يصيحون، "شجرة تشاريو، شجرة تشاريو"، أعداء النور والحبّ، وفي مكان ما كانت المشعوذة تقوقئ. كانت المشعوذة تدعى ريا، وكانت سوزان تصبح سوداء في اللهب، وجلدها يتفسّخ، و-

وماذا كانت تقول؟

"الفتى!"، كانت تصرخ. "رولاند، الفتى!".

استدار، ساحباً آسريه معه. تمزّق الطوق حول عنقه وسمِع الأصوات المخنوقة التي كانت تخرج من حنجرته. كانت هناك رائحة حلوة مقزّزة لشواء لحم في الهواء.

كان الفتى ينظر إليه من نافذة مرتفعة فوق المحرقة التأبينية، نفس النافذة حيث كانت سوزان، التي علّمته أن يكون رجلاً، تجلس وتغنّي الأغاني القديمة: "مهلاً جُود" و"هدوء على الطريق" و"الحب الطائش". بدا عند النافذة كتمثال من المرمر في متحف. كانت عيناه رخاميتين. وكان هناك خنجر مطعون في جبهة جايك.

شَعر المسلّح بالصراخ الخانق الذي يشير إلى بداية السحب الجنوني من أسفل بطنه.

"لا//////////////////-".

III

صرخ رولاند صرخةً عندما شعَر أن النار سفعته. استوى في

الظلام، وكان لا يزال يشعر بحلم ميجيس حوله، يخنقه مثل الطوق الذي ارتداه. ففي تشقلباته خلال النوم، رمى يداً على جمرات النار المنطفئة. وَضَع يده على وجهه، شاعراً بالحلم يهرب تاركاً فقط الصورة الصارمة لجايك، البيضاء كالجصّ، مُحارب العفاريت.

"y//////////////////////////-" .

نظَر حوله إلى العتمة الغامضة لغابة الصفصاف، شاهراً مسدسيه ومتأهّباً. كانت عيناه نقطتين حمراوين في التوهّج الأخير للنار.

"y//////////////////////////-" .

جايك.

وقف المسلّح وبدأ يركض. كان القمر بدراً وهذا مكّنه من تعقّب مسار الفتى في الندى. انحنى تحت أول شجرة صفصاف، وخاض في النبع، وصعد الضفة البعيدة، منزلقاً في الرطوبة (حتى الآن يستطيع جسده أن يتلذّذ بذلك). صفعته غُصَينات الصفصاف الطرية على وجهه. كانت الأشجار أكثر كثافة هنا، وتحجب القمر عن الأنظار. وجذوع الأشجار شامخة في الظلال المتمايلة. والعشب، العالي حتى الرُكبتين الآن، عانقه كما لو أنه يتضرَّع له أن يُبطئ، لكي يستمتع ببرودة الهواء. بالحياة. مدَّت أغصان نصف متعفّنة نفسها إلى ساقيه، إلى خصره. توقف للحظات، ورفع رأسه وشمّ الهواء. ساعده بعض النسيم. لم تكن رائحة الفتى زكية، بالطبع؛ ولا رائحته. توسَّع منخرا المسلَّح تدريجياً مثل منخرَي قردٍ. كانت رائحة عرق الفتى خفيفة، دسمة، جليّة. انهار فوق كومة من الأعشاب والأغصان، وركض بسرعة عبر نفق من الصفصاف المتدلي والسمّاق. ضربت الطحالب كتفيه كما

لو أنها يدين مترهّلتين لجثة. وبعضها متشبّثٌ بمجسّات رمادية متأوّهة.

اخترق متراساً أخيراً من أشجار الصفصاف ووصل إلى فسحة خالية تُظهر النجوم وقمة سلسلة الجبال البيضاء اللامعة ذات الارتفاع الهائل.

كانت هناك حلقة أحجار عمودية سوداء تبدو تحت ضوء القمر كأنها نوعٌ من الأفخاخ للحيوانات. كما كانت هناك طاولة حجرية في الوسط... مذبح. قديمة جداً وناتئة من الأرض على عمود سميك من البازلت.

كان الفتى يقف أمامها مرتعشاً، ويداه ترتجفان كما لو أن جسمه ينتفض بكهرباء ساكنة. نادى المسلَّح إسمه بحدّة، وأجاب جايك بصوت نفي غير واضح. بدا وجهه، المختفي تقريباً وراء الكتف الأيسر للفتى، مرتعباً وجليلاً في آن. وكان هناك شيء آخر.

دخل المسلَّح الحلقة، وصَرَخ جايك وارتد إلى الوراء ورفع ذراعيه في الهواء. يمكن رؤية وجهه بوضوح الآن. قرأ المسلَّح خوفاً ورعباً من الحرب مع بعض المتعة المعذِّبة للنفس.

شَعَر المسلَّح بشيء يلمسه - روح العرّافة، العفريتة. امتلأ خصره بضوء فجأة، ضوء كان ناعماً ولكن صلباً. شعَر برأسه ينفتل، ولسانه يثقل ويصبح حسّاساً حتى للريق الذي عليه.

لم يفكّر بما كان يفعله عندما سحَب عظمة الفكّ نصف المتعفّنة من الجيب الذي وضعها فيه منذ أن وجَدها في عرين العفريت الناطق في المحطة الوسطية. لم يفكّر، لكنه لم يخف أبداً من أن يتصرّف بناءً على غريزته فقط. كان ذلك أفضل وأصدق مكان له. وضع ابتسامة

عظمة الفكّ المحمَّدة ما قبل التاريخ أمام عينيه، ورفع ذراعه الأخرى مادّاً سبابته وخُنصره ليرسم علامة الشوكة القديمة التي تحمي من العين الشريرة.

سُحب منه تيار الشهوانية مثل ستارة.

صَرَخ جايك مرة أخرى.

سار المسلَّح إلى جايك ووضع عظمة الفكّ أمام عينَيه المقاتلتين.

"انظر إلى هذه يا جايك - انظر إليها جيداً".

ما أتاه رداً كان صوت عذاب رطب. حاوَل الفتى أن يشيح بنظره، لكنه لم يستطع. بدا للحظة أنه قد يتمزَّق - عقلياً إن لم يكن جسدياً. ثم، فجأة، التفّت العينان إلى جزئهما الأبيض. وانهار جايك. ارتطم جسده بالأرض بترهّل، وكادت إحدى يديه تلمس ذراع البازلت التي تسند المذبح. ركع المسلَّح على إحدى رُكبتيه ورفعه عن الأرض. كان وزنه خفيفاً بشكل مدهش، ويعاني من الجفاف مثل ورقة في نوفمبر بسبب مسيرتهما الطويلة في الصحراء.

كان رولاند يستطيع أن يشعر بالحضور الذي يكمن في دائرة الأحجار التي تدوّي بغضب غيور - كانت جائزته تُنتزَع منه. بعدما خرج المسلَّح من الدائرة، تلاشى بسرعة الإحساس بالغيرة المُحبَطة. حَمَل جايك عائداً إلى مخيَّمهما. وعندما وصلا إلى هناك، كان ارتعاش الفتى الفاقد الوعي قد أصبح نوماً عميقاً.

توقف المسلَّح للحظة فوق البقايا الرمادية للنار. وذكَّره ضوء القمر على وجه جايك مرة أخرى بتمثال من المرمر مُفعَم بالنقاوة. عانَق الولد وطبع قبلة جافة على خده، وهو يعلم أنه يحبّه. حسناً، ربما لم يكن

ذلك صحيحاً تماماً. ربما كانت الحقيقة أنه أحبَّ الولد من اللحظة الأولى التي رآه فيها (مثلما أحبَّ سوزان ديلغادو)، وكان فقط الآن يسمح لنفسه بالاعتراف بالحقيقة. لأنها *كانت* حقيقة.

وبدا له أنه يستطيع أن يشعر تقريباً بضحكة الرجل ذي الرداء الأسود، في مكان ما بعيد فوقهما.

IV

جايك، يناديه: هكذا استيقظ المسلَّح. كان قد قيَّد جايك بإحكام بإحدى الأجمات الصلبة القريبة منهما، وكان الفتى جائعاً ومنزعجاً. كان الوقت حسب الشمس حوالي التاسعة والنصف.

"لماذا قيّدتني؟"، سأل جايك بسخط بينما كان المسلَّح يُرخي العُقد السميكة في البطانية. "لم أكن سأهرب!".

"لقد هربت *فعلاً*"، قال المسلَّح، وجَعَله التعبير على وجه جايك يبتسم. "اضطررتُ إلى الخروج وإعادتك. كنتَ تسير أثناء نومك".

"حقاً؟"، نَظَر إليه جايك بارتياب. "لم أفعل أمراً كهذا أبداً-".

أخرَج المسلَّح عظمة الفكّ فجأة وأمسكها أمام وجه جايك. جفَل جايك وابتعد عنها، مكشِّراً ورافعاً ذراعه.

"أرأيت؟".

أومأ جايك برأسه، مرتبِكاً. "ماذا حصل؟".

"ليس لدينا وقت لنلغو الآن. عليَّ أن أنصرف لبعض الوقت. وقد أغيب اليوم بأكمله. لذا استمع لي جيداً يا فتى. هذا مهم. إذا

غابت الشمس ولم أعد-".

لمع الخوف على وجه جايك. "أنت تتخلى عني!".

اكتفى المسلَّح بالنظر إليه.

"لا"، قال جايك بعد لحظة. "أظن أنك لو أردت أن تتخلى عني، لكنتَ فعلت ذلك من قبل".

"منطق سليم. الآن استمع لي جيداً. أريد منك أن تبقى هنا بينما أكون غائباً. هنا في المخيَّم. لا تتجوَّل، حتى ولو بدا لك ذلك أفضل فكرة في العالم. وإذا شعرتَ بأي شعور غريب - مهما تكن طريقة غرابته - خذ هذه العظمة وأمسكها بيديك".

ارتسم كرهٌ وقرفٌ على وجه جايك، بالإضافة إلى ارتباكٍ. "لا أستطيع... لا أستطيع فحسب".

"بلى تستطيع. وقد تضطر إلى ذلك. خاصة بعد الظهيرة. هذا مهم. قد تشعر بغثيان أو صُداع عندما تُمسكها في البدء، لكن ذلك الشعور سيزول. هل تفهم؟".

"نعم".

"وهل ستفعل ما قلتُه لك؟".

"نعم، لكن لماذا عليك أن ترحل؟"، صاح جايك.

"عليَّ ذلك ونقطة على السطر".

ألقى المسلَّح نظرة خاطفة أخرى على الفولاذ الموجود تحت سطح الفتى، وكان مُبهماً مثل القصة التي رواها عن قدومه من مدينة الأبنية فيها شاهقة لدرجة أنها تكاد تلمس السماء. لم يذكّره الفتى بكَثبرت

بقدر ما ذكّره بصديقه المقرّب الآخر، آلان. كان آلان هادئاً، ولم يكن عُرضة بأي طريقة من الطرق لدَجَل بيرت المؤثِّر في النفوس، وكان موثوقاً ولا يخاف من أي شيء.

"حسناً"، قال جايك.

وضع المسلَّح عظمة الفكّ بعناية على الأرض بجانب بقايا النار، حيث ابتسمت على العشب مثل أحفورية متآكلة رأت ضوء النهار بعد ليل دام خمسة آلاف سنة. لم ينظر إليها جايك. كان وجهه شاحباً وبائساً. تساءل المسلَّح إن كان سيفيدهما أن ينوِّم الفتى ويستجوبه، ثم قرّر أن الفائدة ستكون طفيفة. كان يُدرك بما فيه الكفاية أن روح دائرة الأحجار عفريتٌ بالتأكيد، ومرجّح جداً أن تكون عرّافة أيضاً. عفريت من دون شكل، مجرد نوع من الوهج عليه عين التوقّع. تساءل لفترة وجيزة إن لم تكن روح سيلفيا بيتستون، المرأة العملاقة التي قادت دسائسها الدينية إلى المواجهة الحاسمة الأخيرة في تَلّ... لكن لا. ليس هي. فالأحجار في الدائرة كانت قديمة. وسيلفيا بيتستون جاءت في زمن لاحق بالمقارنة مع الشيء الذي أنشأ وكره هنا. كان قديماً... وخبيثاً. لكن المسلَّح يعرف أصناف الكلام جيداً ولا يظن أن الفتى سيضطر إلى استخدام طلسم عظمة الفكّ. سيكون صوت العرّافة وذهنها مشغولَين جداً به. يحتاج المسلَّح إلى معرفة بعض الأشياء، رغم الخطر... والخطر كان كبيراً. لكن لمصلحته ومصلحة جايك، فإن حاجته إلى أن يعرف ماسّة.

فتح المسلَّح كيس تبغه وأدخَل يده فيه، وراح يُبعد الوريقات الجافة إلى أن وجد غرضاً صغيراً جداً ملفوفاً في ورقة بيضاء. دحرَجها بين أصابع ستختفي قريباً ونظر بذهول إلى السماء. ثم فضّها وأمسك

محتوياتها – حبة بيضاء صغيرة جداً ذات حافات رثّة جداً جرّاء السفر – في يده.

نَظَر جايك إليه بفضول. "ما هذا؟".

ضحك المسلَّح ضحكة قصيرة. "القصة التي كان كورت يرويها لنا كانت أن السُحُب القديمة أمطرت فوق الصحراء وأنتجت مادة المسكالين".

بدا جايك مُحتاراً.

"هذا مخدِّر"، قال المسلَّح. "لكن ليس واحداً يجعلك تنام. بل واحداً يُبقيك مستيقظاً لبعض الوقت".

"مثل الـ أل أس دي"، وافَق الفتى فوراً ثم بدا مُحتاراً.

"ما هذا؟".

"لا أعرف"، قال جايك. "لقد خطر على ذهني فجأة. أعتقد أنه أتى من... أنت تعرف، الماضي".

أومأ المسلَّح برأسه، لكنه شعر بالريبة. فهو لم يسمع أبداً أحداً يسمّي المسكالين أل أس دي، ولا حتى في كتب مارتن القديمة.

"هل سيؤذيك؟"، سأله جايك.

"لم يؤذني أبداً"، قال المسلَّح، واعياً لمحاولته المراوغة.

"لا يعجبني".

"لا تهتمّ".

أمسك المسلَّح قِربة الماء، وملأ فمه، وابتلع الحبة. كالعادة، شعَر بردة فعل فورية في فمه: بدا مليئاً باللعاب. جلَس أمام النار المنطفئة.

"متى يبدأ مفعوله؟"، سأل جايك.

"يحتاج إلى بعض الوقت. إلزم الصمت".

لذا صمت جايك، وراح يراقب مرتاباً المسلَّح يجلس لكي ينظّف مسدسيه بهدوء.

أعادهما إلى قِرابيهما وقال، "قميصك، جايك. اخلعه واعطني إياه".

سحَب جايك قميصه الباهت فوق رأسه على مضض، كاشفاً أضلاعه النحيلة، وأعطاه إلى رولاند.

أخرَج المسلَّح إبرة كانت مغروزة في الدرزة الجانبية لسرواله الجينز، وخيطاً من خرطوشة فارغة في حزام مسدسه. ثم بدأ يخيط مِزقاً طويلاً في أحد كمَّي قميص الفتى. عندما انتهى وأعاد له القميص، شعَر بمفعول المسكالين يبدأ – كان هناك انقباض في معدته وشعر أن كل العضلات في جسده قد تحفّزت.

"عليَّ أن أذهب"، قال، ثم نهض. "حان الوقت".

بدأ الفتى يهمّ بالوقوف، والقلق بادٍ على وجهه، ثم عاد وجلس. "انتبه لنفسك"، قال. "رجاءً".

"تذكّر عظمة الفكّ"، قال المسلَّح. ثم وَضَع يده على رأس جايك بينما كان يسير ونكَش له شعره الملوَّن بلون الذرة. أجفلته هذه الحركة وجعلته يضحك ضحكة قصيرة. بقي جايك يراقبه بابتسامة منزعجة إلى أن اختفى في غابة الصفصاف.

V

سار المسلَّح نحو دائرة الأحجار عن عمد، متوقفاً لمدة تكفي لشرب بعض الماء البارد من النبع. كان يمكنه رؤية انعكاس صورته في حوض صغير جداً محاط بطحالب وزنابق ماء، ونَظَر إلى نفسه للحظة، مفتوناً بنفسه مثل نرجيس. كانت ردة الفعل الذهنية بدأت تترسَّخ، مُبطئةً تسلسل أفكاره عبر زيادة دلالات كل فكرة وكل معلومة حسّية. بدأت الأشياء تكتسب وزناً وسماكةً كانا غير مرئيين حتى الآن. ثم صمت لبرهة، ووقف على قدميه مرة أخرى، ونظر عبر أشجار الصفصاف المتشابكة. كان ضوء الشمس يشعّ ذهبياً مائلاً وعابقاً بالغبار، وراح يراقب التفاعل بين ذرّات القذى والأشياء الصغيرة الطائرة لبعض الوقت قبل أن يتابع سيره.

لطالما جعله المخدر يضطرب: كان غروره قوياً جداً (أو ربما بسيطاً جداً) لكي يتمتّع بأن يكون خاضعاً ومتحرّراً، وشكّل هدفاً لمشاعر حسّاسة أكثر - كانت تدغدغه (وتجنّنه أحياناً) مثل ملمس شوارب القطة. لكنه شعَر ببعض الهدوء هذه المرة. وهذا أمر جيد.

دخل الفسحة وسار إلى الدائرة فوراً. ثم وَقَف، ليسمح لذهنه بأن ينطلق بحرية. نعم، كانت حالة الانعتاق تأتي أقسى الآن، أسرع. كان العشب يصرخ خضاراً له؛ بدا له أنه إذا انحنى وفرك يديه به، سيقف ليجد طلاءً أخضر على كل أصابعه وراحتَي يديه. قاوَم إلحاحاً خبيثاً بتجربة هذا الاختبار.

لكن لم يكن هناك صوت من العرّافة. لا تخفيز، جنسي أو غير ذلك.

ذهَب ووَقَف بجانب المذبح للحظة. كان التفكير المتماسك أمراً مستحيلاً تقريباً الآن. بدت أسنانه غريبة في رأسه، شواهد قبور صغيرة جداً مغروزة في أرض زهرية رطبة. كان العالم يضجّ بمقدار كبير من الضوء. تسلَّق المذبح واستلقى على ظهره. كان ذهنه بدأ يصبح غابةً مليئةً بنباتات تفكير غريبة لم يرها أو يشتبه بها أبداً من قبل، غابة صفصاف نمت حول نبع مسكالين. كانت السماء ماءً وهو متدلٍّ فوقها. سبَّبت له الفكرة دواراً بدا بعيداً وغير مهم.

تذكّر سطر شِعر قديم، ليس صوت أطفال الآن، لا؛ فقد كانت أمه تخاف من المخدرات وضرورتها (مثلما كانت تخاف من كورت والحاجة إلى ضارب الفتيان هذا)؛ أتى بيت الشِعر هذا من شعب الماني المقيمين شمالي الصحراء، لا تزال عشيرة منهم تعيش بين الآلات التي لا تعمل عادة... والتي تأكل الرجال أحياناً عندما تعمل. تكرَّرت الأسطر مرة تلو الأخرى، فذكَّرته (بطريقة غير مترابطة كانت نموذجية لفورة نشاط المسكالين) بتساقط الثلج في كرة أرضية كان يملكها في طفولته، غامضة ونصف خيالية:

أبعد من متناول المدى البشري
نقطة جحيم، لمسة غريب...

كانت الأشجار التي تطلّ على المذبح تحتوي على وجوه. راقَبها بافتتان متجرِّد: هنا تنينٌ أخضر ويرتعش، وهنا فتاةٌ خشبيةٌ بذراعين تدعوان إلى الاقتراب، وهنا جمجمةٌ حيّةٌ تغطيها مادة لزجة. وجوه. وجوه.

اهتزّت أعشاب الفسحة وانحنت فجأة.

أنا قادم.

أنا قادم.

اهتزازات غامضة في جسمه. وفكّر في سرّه كم اختلف الزمن معه. من الجلوس مع سوزان على العشب الحلو على المَهبِط إلى هذا.

ضغَطت عليه من فوق، جسدٌ مصنوعٌ من الريح، صدر بعطر الياسمين والورد والعسلة.

"توقّعي لي توقّعاً"، قال. "أخبريني ما أحتاج إلى معرفته". شَعَر أن فمه مليءٌ بالمعدن.

تنهيدة. صوت بكاء باهت. شَعَر المسلَّح أن حوضه يابس وقاسٍ. فوقه وأبعد من الوجوه المرسومة على الأوراق، يمكنه رؤية الجبال – صلبة ووحشية ومليئة بالأسنان.

تحرّك الجسد ضده، تعارك معه. شعَر بيديه تلتفّان في قبضتين. لقد أرسلت له طيف سوزان. كانت سوزان فوقه، سوزان ديلغادو الجميلة، تنتظره في كوخ راعٍ مهجور على المَهبِط بشعرها المسكوب على ظهرها وفوق كتفيها. قَذَف رأسه، لكن وجهها تبِعه.

ياسمين، ورد، عسلة، قش قديم... رائحة الحب. تحبني.

"تكلَّم أيها التوقّع"، قال. "قل الحقيقة".

رجاءً، بكت العرّافة. *لا تكن بارداً. الجو هنا بارد دائماً لذا–*

يدان تنزلقان فوق جسده، تتلاعبان به، تُشعلان النار فيه. تسحبانه. تشدّانه. شق أسود معطَّر. رطب ودافئ–

لا. جاف. بارد. عقيم.

لتكن لديك بعض الرحمة أيها المسلَّح. آه، رجاء، أبكي لصالحك! الرحمة!

هل ستكون لديك رحمة على الفتى؟

الفتى؟ لا أعرف أي فتى. لا أحتاج إلى فتيان. أرجوك.

ياسمين، ورد، عسلة. قش جاف مع شبح برسيمه الصيفي. زيت مسكوب من جِرار قديمة. شغب للأجساد.

"بعد"، قال. "إذا كان ما تخبريني به مفيداً".

الآن. رجاء. الآن.

ترك ذهنه يلتفّ عليها، نقيض الإحساس. الجسد الذي كان يتدلّى فوقه جمُد وبدا أنه يصرخ. كان هناك شدّ حبل عنيف موجز بين صدغيه – كان ذهنه هو الحبل، رماديٌ وليفيٌّ. لم يكن هناك صوت لعدة لحظات طويلة بل الصمت الهادئ لتنفّسه والنسيم الخفيف الذي جَعَل الوجوه الخضراء في الأشجار تتبدّل وتغمز وتبتسم. لم تزقزق أي عصافير.

ارتخت قبضتها. مرة أخرى كان هناك صوت نحيب. يجب أن تتم الأمور بسرعة، وإلا ستتركه. البقاء الآن يعني التوهين؛ ربما نوعها الخاص من الموت. شعَر بارتجافها من قبل، بانسحابها لتغادر دائرة الأحجار. مؤَّجت الرياح العشب في أنماط معذَّبة.

"التوقّع"، قال، ثم كلمة كئيبة أكثر. "الحقيقة".

تنهيدة باكية مُتعَبة. كان يمكنه تقريباً منح الرحمة التي توسّلتها،

لكن – كان هناك جايك. كان سيجد جايك ميتاً أو مجنوناً لو تأخر أكثر ليلة أمس.

نعم إذاً.

مكتبة

"لا".

نعم نصف نومة إذاً.

ما طلبته كان خطيراً، لكن ضرورياً أيضاً على الأرجح. رفع المسلَّح عينيه إلى الوجوه التي على الأوراق. كان يتم تمثيل مسرحية هناك لتسليته. عوالم صعدت وهبطت أمامه. إمبراطوريات بُنيَت على رمال مُشرقة حيث كدَحت آلات بلا كلل في جنون إلكتروني مجرَّد. إمبراطوريات تداعت، انهارت، وصعدت مرة أخرى. عجلات دارت مثل سائل صامت تحرّكت بشكل أبطأ، بدأت تُصدر صريراً، بدأت تصرخ، توقفت. الرمال خنقت المزاريب الفولاذية التي لا تصدأ في الشوارع المتحدة المركز تحت السماوات الداكنة المليئة بالنجوم مثل صفوف جواهر باردة. وخلال كل ذلك، هبّت رياح تغيير تُحتضَر، مُحضرةً معها رائحة القرفة لأواخر أكتوبر. راح المسلَّح يراقب العالم يستمرّ.

وكان نصف نائم.

ثلاثة. هذا هو رقم قدرك.

ثلاثة؟

نعم، الرقم ثلاثة غامض. الثلاثة يقف في قلب مسعاك. يأتي رقم آخر لاحقاً. الرقم الآن هو ثلاثة.

أي ثلاثة؟

"نحن نرى جزئياً، ولذا فإن مرآة التوقّع مظلمة".

أخبريني بما يمكنك إخباري به.

الأول يافع وشعره داكن. يقف على شفير السلب والقتل. مسّه عفريت. إسم العفريت هو هيروين.

أي عفريت هو هذا؟ لا أعرفه، حتى من دروس معلّمي.

"نحن نرى جزئياً، ولذا فإن مرآة التوقّع مظلمة". هناك عوالم أخرى أيها المسلّح، وعفاريت أخرى. هذه المياه عميقة. انتبه من المداخل. انتبه من الورود ومن المداخل غير السليمة.

والثاني؟

إنها تأتي على عجلات. لم أعد أرى المزيد.

والثالث؟

الموت... لكن ليس موتك.

الرجل ذو الرداء الأسود؟ أين هو؟

قريب. ستتكلّم معه قريباً.

عما سنتكلّم؟

البرج.

الفتى؟ جايك؟

أخبريني عن الفتى!

الفتى هو بوابتك إلى الرجل ذي الرداء الأسود. والرجل ذو الرداء

الأسود هو بوابتك إلى الثلاثة. والثلاثة طريقك إلى «برج الظلام».

كيف؟ كيف يُعقَل ذلك؟ لماذا يجب أن يكون كذلك؟

"نحن نرى جزئياً، ولذا فإن مرآة-".

اللعنة عليك.

لا توجد لعنة عليَّ.

لا تتعالين عليَّ، أيتها النكرة.

ماذا سأسميّكِ إذاً؟ نجمة قذرة؟ فاسقة الرياح؟

يعيش البعض على الحب الذي يأتي إلى الأماكن القديمة... حتى في هذه الأوقات الحزينة والشريرة. ويعيش البعض، أيها المسلَّح، على الدم. وحتى، على حدّ علمي، على دم الفتيان اليافعين.

ألا يمكنه أن ينجو؟

نعم.

كيف؟

توقف أيها المسلَّح. فكّك مخيَّمك وعد إلى الشمال الغربي. لا يزالون هناك بحاجة إلى رجال يعيشون على الرصاص.

لقد أقسمتُ على مسدسات أبي وعلى خيانة مارتن.

مارتن لم يعد موجوداً. فقد قضى عليه الرجل ذو الرداء الأسود. أنت تعرف هذا.

لقد أقسمتُ.

إذاً ستحلّ اللعنة عليك.

لا يهمّني ما تقولينه، أيتها الحقيرة.

VI

لهفة.

لاح الظل فوقه، محتضناً له. وحدثت نشوة مفاجئة لم تقطعها سوى مجرّة من الألم، باهتة وساطعة مثل نجوم قديمة احمرّ لونها من الانهيار. تتراءى له الوجوه متطفّلة في ذروة تقارنها: سيلفيا بيتستون؛ أليس، المرأة من تَلّ؛ سوزان؛ وعدة أخريات.

وأخيراً، بعد مدة بدت لا تنتهي، دفَعها بعيداً عنه، مرة أخرى في ذهنه السليم، مُنهكاً ومشمئزاً.

لا! هذا لا يكفي! هذا–

"دعيني وشأني"، قال المسلَّح. استوى وكاد يسقط عن المذبح قبل أن يستعيد توازنه. لمَسته بتردّد

(عسلة، ياسمين، عطر عذب)

فدفَعها بعنف، وسقط على رُكبتيه.

سار مترنّحاً إلى محيط الدائرة. وخرجها متمايلاً، وهو يشعر بحمل ثقيل يسقط عن كتفيه. أخذ نَفَساً دامعاً مرتجفاً. هل تعلَّم كفاية لكي يبرِّر هذا الشعور بالنجاسة؟ لم يعرف. افترَض أنه سيعرف مع الوقت. عندما بدأ يبتعد، أصبح قادراً على الشعور بها واقفةً عند قضبان سجنها، تراقبه يذهب عنها. تساءل كم من الوقت قد يمرّ قبل أن

يقطع شخص آخر الصحراء ويعثر عليها، جائعةً ووحيدةً. شعَر للحظة أن احتمالات الوقت قزَّمته.

VII

"أنت مريض!".

وَقَف جايك بسرعة عندما عاد المسلَّح يمشي متثاقلاً عبر الأشجار الأخيرة ووصل إلى المخيَّم. كان قد كوَّر نفسه بجانب بقايا النار الصغيرة، وعظمة الفكّ على رُكبتيه، ويقضم بخاطر منكسر عظام الأرنب. ركض الآن نحو المسلَّح بنظرة استغاثة جَعَلت رولاند يشعر بالوزن الثقيل البشع لخيانة قادمة.

"لا"، قال. "لستُ مريضاً. فقط مُتعَب. مُنهك". أومأ بذهول إلى عظمة الفكّ. "يمكنك أن تترك هذا يا جايك".

رماها الفتى بسرعة وعنف، ثم فرك يديه على قميصه. ارتفعت شفته العليا ثم هبطت في تكشيرة شعرَ المسلَّح أنه قام بها بلا وعي تماماً.

جلس المسلَّح - وكاد يسقط - وهو يشعر بألم في مفاصله وضربات متكرّرة في ذهنه الغليظ، وهذه كانت الآثار غير الجميلة للمسكالين. كما كان يشعر بوجع ثقيل في مؤخرته. لفّ سيجارة ببطء حذر. وكان جايك يراقبه. شعر المسلَّح برغبة مفاجئة ليفتح قلبه للفتى بعد إخباره بكل ما تعلَّمه، لكنه تغاضى عن الفكرة مرعوباً. تساءل إن لم يكن جزءٌ منه - عقله أو روحه - يتفتّت. أن يفتح قلبه لطفل؟ كانت الفكرة مجنونة.

"سننام هنا الليلة. ونبدأ التسلّق غداً. سأخرج بعد قليل وأرى إن كنتُ أستطيع اصطياد شيء للعشاء. نحتاج إلى كامل قوتنا. عليَّ أن أنام الآن. مفهوم؟".

"بالتأكيد. على راحتك".

"لم أفهمك".

"افعل ما تريده".

"آه". أومأ المسلَّح برأسه واستلقى على ظهره. *على راحتي*، فكّر في سرّه. *على. راحتي.*

عندما استيقَظ كانت الظلال طويلة على العشب الصغير. "أشعِل النار"، قال لجايك وقذف له حجره الصوّان وقطعة الفولاذ. "هل يمكنك استخدام هذه؟".

"نعم، أظن ذلك".

سار المسلَّح نحو غابة الصفصاف ثم توقف عند سماعه صوت الفتى. وجمُد في أرضه.

"أشعِل الظلمة، أين مَولاي؟"، همس الفتى، وسمع رولاند الصوت *تشيك! تشيك! تشيك!* الواضح الناتج عن ضرب حجر الصوّان. بدا كبكاء طير ميكانيكي صغير. "هل سأضعني؟ هل سأمكثني؟ بارِك هذا المخيَّم بالنار".

أخذها مني، فكّر المسلَّح في سرّه، ولم يتفاجأ البتّة من اكتشاف أن القشعريرة تغطي كل جسمه وأنه على شفير أن يرتعش مثل كلب رطب. *أخذها مني، كلمات لا أذكر حتى أنني قلتها، وهل سأخون إلى*

هذا الحد؟ آه يا رولاند، هل ستخون هكذا خيط حقيقي كهذا في عالم حزين بلا خيوط؟ هل هناك أي شيء يبرّر ذلك؟

هذه مجرد كلمات.

آخ، لكنها كلمات قديمة. كلمات جيدة.

"رولاند؟"، ناداه الفتى. "هل أنت بخير؟".

"أجل"، قال بصوت أجش، ولسعته نكهة الدخان الحادة المميّزة قليلاً في أنفه. "هل أشعلتَ النار؟".

"نعم"، قال الفتى ببساطة، ولم يحتج رولاند إلى أن يستدير لكي يعرف أن الفتى كان يبتسم.

تحرَّك المسلَّح وسار يساراً، ملتفّاً حول غابة الصفصاف هذه المرة. في مكان تنفتح فيه الأرض وتصعد في بساط ثقيل من العشب، دخل الظلال من جديد ووَقَف صامتاً. كان بإمكانه سماع فرقعة نار المخيَّم بشكل باهت. جَعَله الصوت يبتسم.

وَقَف من دون حراك لعشر دقائق، لخمس عشرة دقيقة، لعشرين دقيقة. أتت ثلاثة أرانب، وحالما بدأت تأكل، شهَرَ المسلَّح مسدسه. أرداها كلها، وسلخها، ونزع أحشاءها، وأعادها إلى المخيَّم. كان جايك قد حضَّر ماءً مغلياً فوق اللهب الخفيف.

أومأ له المسلَّح برأسه. "أحسنتَ صنعاً".

تورَّد جايك خجلاً وأعاد له حجر الصوّان والفولاذ بصمت.

بينما كانت اليخنة تُطبَخ، استغل المسلَّح آخر خيوط النور ليعود إلى غابة الصفصاف. بالقرب من الحوض الأول، بدأ يضرب النباتات

المعترشة القاسية التي نمت بالقرب من حافة مستنقع الماء. لاحقاً، عندما تخمد النار إلى جمرات وينام جايك، سيجدلها في حبال قد تكون ذات فائدة محدودة لاحقاً. لكن حدسه كان يقول له إن التسلّق لن يكون صعباً جداً. شعَر أن الأمور تسير في صالحه ولم يعد يعتبرها غريبةً.

نزَفت النباتات المعترشة نُسغاً أخضر على يديه وهو يحملها عائداً إلى حيث ينتظره جايك.

استفاقا مع الشمس وانتهيا من توضيب أمتعتهما في نصف ساعة. كان المسلَّح يأمل أن يصطاد أرنباً آخر في المرج بينما يأكلان، لكن الوقت كان قصيراً ولم يظهر أي أرنب. كان الطعام المتبقي لديهما قليلاً وخفيفاً لدرجة أن جايك حمله بسهولة. لقد ازدادت قوة هذا الفتى؛ كان يمكن رؤية ذلك بوضوح.

حمل المسلَّح ماءهما، وكان قد ملأه حديثاً من أحد الينابيع. عقدَ حبال النبتة المعترشة الثلاثة حول بطنه. والتفّا حول دائرة الأحجار مسافة كافية (كان المسلَّح قلقاً أن يتكرّر الخوف لدى الفتى، لكنهما عندما مرَّا فوقها على تلة صخرية، اكتفى جايك بإلقاء لمحة سريعة عليها ثم نَظَر إلى طير حلّق عالياً). بعد مدة قصيرة جداً، بدأت الأشجار تفقد ارتفاعها وغضاضتها. فكانت الجذوع مفتولة وبدا أن الجذور تتصارع مع التربة في معركة طاحنة على الرطوبة.

"كل شيء قديم جداً"، قال جايك بتجهّم عندما توقفا لاستراحة قصيرة. "ألا يوجد أي شيء يافع في هذا العالم؟".

ابتسم المسلَّح ونكز جايك. "أنت"، قال.

ردَّ جايك بابتسامة ضعيفة. "هل سيكون التسلّق شاقاً؟".

نَظَر إليه المسلَّح بفضول. "الجبال شاهقة. ألا تعتقد أن التسلّق سيكون شاقاً؟".

نظر إليه جايك بدوره، بعينين غائمتين، مُحتاراً.

"لا".

تابعا السير.

VIII

ارتفعت الشمس إلى ذروتها، وبدا أنها تسمّرت هناك لمدة أطول من أي وقت مضى خلال عبورهما الصحراء، ثم واصلت طريقها مُعيدةً لهما ظلّيهما. كانت هناك رفوف صخرية ناتئة من الأرض كأنها أذرع كراسي مريحة عملاقة مدفونة في التربة. وأصبح العشب أصفر وذابلاً. صادفا أخيراً صَدعاً عميقاً يشبه المدخنة فعدّلا مسارهما قليلاً وصعدا بعض الصخور للالتفاف حوله. كان الغرانيت القديم مشقوقاً في خطوط بدت كأنها درجات، ومثلما استشعرا، كانت بداية تسلّقهما، على الأقل، سهلة. توقفا لبرهة عند منحدر شديد عرضه متر ونصف ونظرا إلى الخلف نحو الصحراء التي كانت ملتفّة حول النَجْد مثل كفّ أصفر ضخم، وتلمَع أمامهما كدرع أبيض يُبهر العيون، منحسِرة في موجات ضعيفة من الحرارة الصاعدة. شَعَر المسلَّح باندهاش خفيف عند إدراكه أن هذه الصحراء كادت تقتله. من حيث كانا يقفان، في برودة جديدة، بدت الصحراء خطيرة بالطبع، لكن غير مميتة.

استدارا وعادا إلى مهمة التسلّق، مع الحذر من تجنبّ الدوس على أي أحجار رخوة والتمسّك بأحجار حادة تتلألأ من الكوارتز والمايكا.

كانت الصخرة دافئة الملمس، لكن الهواء كان أكثر برودة بالتأكيد. في ساعة متأخرة من بعد الظهر، سمع المسلَّح الصوت الخافت للرعد. لكن الخط الصاعد للجبال حجبَ عنه منظر المطر على الجهة الأخرى.

عندما بدأت الظلال تصبح أرجوانية، خيَّما عند الطرف المتدلّي لصخرة ناتئة. ثبَّت المسلَّح البطانية من الأعلى والأسفل، مكوِّناً ما يشبه كوخاً بسيطاً. وجلسا عند مدخله يراقبان السماء تنشر عباءة فوق العالم. دلّى جايك قدميه فوق المنحدر. ولفّ المسلَّح سيجارة المساء وراح يراقب جايك مبتسماً نصف ابتسامة. "لا تتدحرج في نومك"، قال، "وإلا فقد تستيقظ في الجحيم".

"لن يحصل هذا"، ردَّ جايك بنبرة جدّية. "تقول أمي-"، ولم يُكمل جملته.

"تقول ماذا؟".

"إنني أنام مثل رجل ميت". ثم نَظَر إلى المسلَّح، الذي رأى أن فمه يرتعش وهو يكافح ليحبس دموعه - *مجرد فتى*، فكّر في سرّه، وشعر بألم شديد، مِعوَل الثلج الذي يستطيع الماء البارد جداً أن يزرعه في جبهتك أحياناً. *مجرد فتى. لماذا؟* سؤال ساذج. عندما يطرح فتى، مجروح في الجسد أو الروح، هذا السؤال على كورت، ذلك المقاتل المشاكس القديم ذو الندوب الذي كانت وظيفته أن يعلِّم أبناء المسلَّحين بداية ما عليهم معرفته، كان كورت ليُجيبه: *لماذا الحرف معقوف ولا يمكن جعله مستقيماً... لا تهتم بالسبب، فقط انهض أيها الأحمق! انهض! لا يزال اليوم في بدايته!*

"لماذا أنا هنا؟"، سأل جايك. "لماذا نسيتُ كل الماضي؟".

"لأن الرجل ذا الرداء الأسود جرّك إلى هنا"، قال المسلَّح. "وبسبب البرج. يقف البرج عند نوع من... روابط الطاقة. في الزمن".

"لم أفهم هذا!".

"أنا أيضاً"، قال المسلَّح. "لكن هناك شيء يحصل. فقط في وقتي. 'العالم استمرّ'، هكذا يُقال... هكذا يُقال دائماً. لكنه يستمرّ بوتيرة أسرع الآن. شيء ما حصل للوقت. إنه يلين".

جلسا صامتين. وهبَّت نسمة، خفيفة لكن عليلة، على أرجلهما. وأحدثت هفيفاً مجوَّفاً في صدع صخرة في مكان ما.

"من أين تأتي؟"، سأل جايك.

"من مكان لم يعد موجوداً. وابتسم المسلَّح. "كان يُفترَض أن يحتوي ذلك المكان على حبّات عنب كبيرة لدرجة أنه على الرجال حملها على مزلجات. لم نكن نزرعها لتنمو إلى ذلك الحد الكبير، لكن الأرض كانت خصبة".

"أعرف عن عوليس"، قال جايك متردِّداً. "هل هو من ذلك المكان؟".

"ربما"، قال المسلَّح. "لم أكن مثقفاً أبداً، ولا يمكنني أن أجزم".

"لكن الآخرين... أصدقاءك-".

"لا يوجد آخرون"، قال المسلَّح. "أنا الأخير".

بدأ قمر هزيل صغير جداً يبزُغ، مُلقياً نوره الخفيف على الصخور حيث كانا يجلسان.

"هل كان جميلاً؟ بلدك... أرضك؟".

"كان جميلاً"، قال المسلَّح. "كانت هناك حقول وغابات وأنهار ورذاذ في الصباح. لكن ذلك جميل فقط. كانت أمي تقول إن الجمال الحقيقي هو النظام والحب والضوء".

لم يقم جايك بأي تعبير.

راح المسلَّح يدخّن ويتذكّر كيف كانت الأحوال - الليالي في القاعة المركزية الضخمة، حيث يتنقّل مئات الأشخاص الأغنياء في خطوات رقصة الفالس البطيئة الهادئة أو رقصة البولكا الأسرع، متأبطاً آيلين ريتر بذراعه، التي افترَض أن والدَيه اختاراها له، وكانت عيناها أكثر إشراقاً من أغلى الجواهر، وضوء المصابيح المحصورة بالبلّور يتوهّج على الشعر المصفَّف حديثاً للمحظيّات ومرافقيهن نصف الساخرين. كانت القاعة ضخمة، جزيرة أضواء عمرها غير معروف لأحد، وكذلك الأمر بالنسبة للمكان المركزي بأكمله، الذي كان يتألف من مئة حصن صخري تقريباً. مرّت سنوات عديدة منذ أن رآها، وعند مغادرته لآخر مرة، شعر رولاند بألم وهو يُدير وجهه بعيداً عنها ليبدأ مسيرة تعقّبه أثر الرجل ذي الرداء الأسود. حتى عندها كانت الجدران قد تهدّمت، والأعشاب نمت في الفناء، والوطاويط عشّشت بين العوارض الضخمة للقاعة المركزية، والمعارض صدحت بزقزقات عصافير السنونو الناعمة. كانت الميادين التي درّبهم فيها كورت على رماية السهام وإطلاق النار والصيد بالصقور قد زالت واجتاحها القش وأعشاب التيموثي والنباتات المعترشة. في المطبخ الضخم الذي كان مقر هاكس البخاري والعطِر، سكنت مستعمرة متنافرة من المتحوِّلين البطيئين، يحدّقون به من العتمة الرحوم لحجرات المؤن والدعائم المظلَّلة. والبخار الدافئ الذي كان يعبق بروائح اللحم المشوي اللاذعة تغيَّر إلى الرطوبة الدَبِقة للطحالب. ونما

فطر غاريقون أبيض عملاق في الزوايا التي لم يجرؤ حتى المتحوّلون البطيئون على الإقامة فيها. وَقَف قاطع السرداب السنديانيّ الضخم مكشوفاً، وتخرج منه أكثر رائحة لاذعة من كل الروائح الأخرى، رائحة بدا أنها تعبِّر بنهائية مسطَّحة عن كل الحقائق المريرة للتحلّل والتعفّن: الرائحة الحادة لعصير العنب وقد تحوَّل إلى خل. لم يجد أي صعوبة في إدارة وجهه إلى الجنوب وترك ذلك خلفه – لكنها خطوة آلمته.

"هل اندلعت حرب هناك؟"، سأل جايك.

"أسوأ من ذلك"، قال المسلَّح وقذف بقايا سيجارته بعيداً. "اندلعت ثورة. فزنا في كل المعارك، وخسرنا الحرب. لم يفز أحد في الحرب، إلا ربما آكلو الفضلات. لا شك أنه كانت هناك غنائم ثمينة لسنوات عديدة".

"أتمنى لو أنني عشتُ هناك"، قال جايك بحزن.

"هل تعتقد ذلك؟".

"أجل".

"حان وقت النوم يا جايك".

استدار الفتى، الذي كان قد أصبح الآن مجرد ظل معتم، إلى جنبه وكوَّر نفسه تحت البطانية. جلس المسلَّح يحرسه لحوالي ساعة، وهو يفكِّر في أفكاره الرصينة الطويلة. كان هكذا تأمُّل شيئاً جديداً بالنسبة له، حلواً بطريقة حزينة، لكنه كان لا يزال من دون أي قيمة عملانية على الإطلاق: لم يكن هناك حل لمشكلة جايك سوى الحل الذي قدَّمته العرّافة – والابتعاد لم يكن ممكناً ببساطة. ربما كانت هناك مأساة في الحالة، لكن المسلَّح لم ير ذلك؛ رأى فقط التحتيم الذي لطالما كان

موجوداً. وأخيراً، فرضت شخصيته الطبيعية أكثر نفسها من جديد ونام نوماً عميقاً، من دون أحلام.

IX

أصبح التسلّق أكثر شراسة في اليوم التالي عندما واصلا الصعود نحو الممر الضيق عبر الجبال. تنقّل المسلَّح ببطء، دون أي إحساس بضرورة الاستعجال. كانت الأحجار الميتة تحت قدميهما لم تترك أي أثر للرجل ذي الرداء الأسود، لكن المسلَّح كان يعرف أنه مرَّ من هذه الطريق قبلهما – وليس فقط من مسار تسلّقه مثلما راقبه مع جايك، بحجمه الصغير جداً مثل حشرة، عن التلال السفحيّة. كان عبيره مطبوعاً في كل نسمة هواء باردة. كانت رائحة دسمة تهكمية، مرّة على الأنف مثل نتانة العشب الشيطاني.

كان شعر جايك قد طال كثيراً، وتجعَّد قليلاً عند أسفل عنقه المحترق من الشمس. كان يتسلَّق بحزم، متنقّلاً بكل ثقة دون أي رُهاب واضح من المرتفعات، أثناء اجتيازهما الفجوات أو الحافات. وكان قد صعد في مرتين إلى مكان لم يتمكَّن المسلَّح من تدبّر أمره لكي يصل إليه، وثبَّت أحد الحبال لكي يستطيع المسلَّح التسلّق بيديه الاثنتين.

في الصباح التالي، تسلَّقا عبر سحابة رطبة باردة كانت تحجب المنحدرات المتقلِّبة تحتهما عن الأنظار. وبدأت بعض قطع الثلج الحُبَيبية الصلبة تظهر في جيوب الصخور. كانت تلمع كالكوارتز وملمسها جاف كالرمال. عثرا بعد ظهر ذلك اليوم على أثر قدم واحدة في إحدى بُقع الثلج تلك. حدَّق فيها جايك للحظة بافتتان، ثم

رفع نظره خائفاً، كما لو أنه توقَّع ظهور الرجل ذي الرداء الأسود واقفاً أمامه. ربَّت له المسلَّح على كتفه ثم أشار له بأن يتابع التقدّم. "هيا. اقترب اليوم من نهايته".

لاحقاً، نصبا المخيَّم في آخر ضوء النهار عند حافة عريضة مسطَّحة إلى شرقي وشمالي الشق المائل إلى قلب الجبال. كان الهواء فاتراً؛ لذا كانا قادرين على رؤية أنفاسهما، وكان الصوت الرطب للرعد في الشفق الأحمر والأرجواني سريالياً ومجنوناً قليلاً.

ظنَّ المسلَّح أن الفتى سيبدأ بطرح الأسئلة عليه، لكن جايك لم يطرح أي سؤال، بل غفا بشكل فوري تقريباً. ومثله فعل المسلَّح. حلَم مرة أخرى أن جايك تمثال من المرمر وفي جبهته مسمار. استيقظ وهو يلهث، وذاق خفّة الهواء البارد في رئتيه. كان جايك نائماً بجانبه، لكن نومه لم يكن سلساً؛ فقد بقي يتشقلب ويتمتم لنفسه، مطارداً الأشباح. استلقى المسلَّح منزعجاً، ونام مرة أخرى.

X

بعد أسبوع من رؤية جايك لطبعة القدم، واجَهها الرجل ذا الرداء الأسود للحظة وجيزة في الزمن. في تلك اللحظة، شَعَر المسلَّح أنه يكاد يفهم مضامين البرج نفسه، لأن تلك اللحظة بدت لا تنتهي.

تابَعا سيرهما إلى الجنوب الشرقي، ووصلا إلى نقطة تقع على الأرجح في منتصف سلسلة الجبال الدائرية، وحالما بدا أن المسار يصبح شاقاً حقاً لأول مرة (فقد بدا مائلاً إلى الخارج فوقهما، والحافات الجليدية والشواهد الصخرية الصارِخة جَعَلت المسلَّح يشعر بدوار

عكسي بغيض)، بدأا يهبطان مرة أخرى على طول الممرّ الضيق. قادهما المسار المنحدر المتعرّج نحو قعر وادٍ ضيقٍ كان نهرٌ جليديٌ يغلي فيه بطاقة قوية أردوازية اللون من صمت الأقسام العليا.

بعد ظهر ذلك اليوم، تمهّل الفتى قليلاً واستدار نحو المسلَّح، الذي كان قد توقف ليغسل وجهه في النهر.

"أشمّ رائحته"، قال جايك.

"وأنا أيضاً".

رمى الجبل آخر دفاعاته أمامهما - لوح ضخم من الغرانيت الذي لا يُقهَر يصعد إلى لانهاية غائمة. كان المسلَّح يتوقع في أي لحظة ظهور انعطافة في النهر تأخذهما إلى شلال مرتفع والنعومة التي لا تقهَر للصخور - طريق مسدود. لكن الهواء هناك كان من النوعية الفريدة الشائعة في الأماكن المرتفعة، ومرَّ يوم آخر قبل أن يصلا إلى لوح الغرانيت العظيم ذاك.

بدأ المسلَّح يشعر بثقل التوقّع مرة أخرى، الشعور بأن كل شيء أصبح أخيراً في قبضة يده. كان قد اختبر هذا من قبل - وعدة مرات - ومع ذلك اضطر إلى أن يقاوم ليمنع نفسه من الهرولة بتلهّف.

"انتظر!". توقف الفتى فجأة. واجَهها انعطافة حادة في النهر؛ كان يغلي ويزبد حول المنحدر المتآكل لجلمود عملاق من الحجر الرملي. كانا قد بقيا طوال ذلك الصباح في ظل الجبال مع ازدياد ضيق الوادي.

كان جايك يرتعش بعنف وأصبح وجهه شاحباً.

"ما الأمر؟".

"دعنا نعود"، همَس جايك. "دعنا نعود بسرعة".

اكفهرّ وجه المسلَّح.

"رجاءً". كان وجه الفتى متوتراً، وفكّه يهتزّ بألم مقموع. كانا لا يزالان يسمعان الرعد عبر الغطاء الحجري الثقيل، هادئاً كالآلات في الأرض. واتّخذت قطعة السماء التي يمكنهما رؤيتها لوناً رمادياً مضطرباً حيث تلتقي التيارات الحارة والباردة وتتصارع.

"رجاءً، *رجاءً!*". رفع الفتى قبضته، كما لو أنه ينوي أن يضرب صدر المسلَّح.

"لا".

ظهرت صدمةٌ على وجه الفتى. "سوف تقتلني. لقد قتَلني أول مرة وسوف تقتلني هذه المرة. *وأظنّك تعرف هذا*".

شَعَر المسلَّح بالكذبة على شفتيه، ثم نَطَقها: "ستكون بخير". ثم كذبة أكبر حتى. "سأعتني بك".

أصبح وجه جايك رمادياً، ولم يقل أي شيء آخر. مدَّ يداً غير راغبة، فأمسكها المسلَّح والتفّا حول الانعطافة الحادة بتلك الطريقة، يداً بيد. وجدا نفسيهما على الجهة الأخرى وجهاً لوجه مع ذلك الجدار العمودي الأخير والرجل ذي الرداء الأسود.

لم يكن يعلوهما بأكثر من ستة أمتار، مباشرة على يمين الشلال الذي تفجّر من فجوة متعرّجة ضخمة في الصخرة. كانت رياح غير منظورة تموّج رداءه، ويُمسك عصا بإحدى يديه. كانت يده الأخرى تلوّح لهما بإيماءة ترحيب ساخرة. بدا كشبح تحت تلك السماء العاصفة المعلّقة على حافة الصخور، وكان صوته جهورياً.

"أيها المسلَّح! ما مدى براعتك في تحقيق التوقّعات القديمة! يوم جيد ويوم جيد ويوم جيد!". ثم ضحك وانحنى، وتردَّد صدى صوته فوق هدير الماء المتساقط.

شهَرَ المسلَّح مسدسه من دون تفكير. واحتمى الفتى خلفه.

أطلق رولاند النار ثلاث مرات قبل أن يتمكن من السيطرة على يديه الخائنتين - تردَّد صدى الرصاصات في الوادي الصخري الذي يحيط بهما، وطغى على صوت الرياح والماء.

تطايرت دفعة من الغرانيت فوق رأس الرجل ذي الرداء الأسود؛ ودفعة ثانية إلى يسار ردائه؛ ودفعة ثالثة إلى يمين ردائه. لم يُصبه أبداً في المرات الثلاث.

ضحك الرجل ذو الرداء الأسود - ضحكة من صميم القلب بدت أنها تتحدّى الصدى المنحسِر للطلقات النارية. "هل ستقتل كل أجوبتك بهذه السهولة أيها المسلَّح؟".

"انزل"، قال المسلَّح. "افعل هذا أرجوك، وسنحصل كلنا على أجوبة".

تلك الضحكة الساخرة مرة أخرى. "لستُ خائفاً من رصاصاتك يا رولاند. بل من فكرتك عن الأجوبة".

"انزل".

"سنتكلَّم على الجهة الأخرى، أظن"، قال الرجل ذو الرداء الأسود. "على الجهة الأخرى سنعقد جلسات عديدة ونلغو كثيراً".

انتقلت عيناه إلى جايك وأضاف:

"نحن الاثنان فقط".

جفَل جايك وأشاح بنظره عنه مع نحيب خفيف، واستدار الرجل ذو الرداء الأسود، وتطاير رداؤه في الهواء الرمادي مثل جناحَي وطواط. واختفى في فلق الصخرة الذي تدفّق منه الماء بقوة كاملة. ضغط المسلَّح على نفسه ولم يرسل رصاصة وراءه – *هل ستقتل كل أحبتك بهذه السهولة أيها المسلَّح؟*

كان هناك صوت الريح والماء فقط، وهو صوت تواجد في هذا المكان المُقفر منذ ألف سنة. ومع ذلك، وقف الرجل ذو الرداء الأسود هناك. بعد اثنتي عشرة سنة من نظرته الخاطفة الأخيرة، رآه رولاند عن قُرب مرة أخرى، وتكلَّم معه. وقد ضحكَ الرجل ذو الرداء الأسود.

على الجهة الأخرى سنعقد جلسات عديدة ونلغو كثيراً.

رفع الفتى نظره إليه، وكان جسده يرتعش. للحظة رأى المسلَّح وجه آليْ، فتاة تَلّ، مركَّباً فوق وجه جايك، والندبة بارزة على جبهتها مثل اتهام صامت، وشَعَر باشمئزاز وحشي لكليهما (لن يخطر على باله إلا بعد وقت طويل أن الندبة على جبهة أليس والمسمار الذي رآه مغروزاً في جبهة جايك في أحلامه كانا في نفس المكان). ربما شعر جايك بما يفكّر؛ فقد خرج أنين من حنجرته. ثم فتَل شفتيه وأوقف الصوت. كان يملك صفات رجل جيد، ربما مسلَّح بحدّ ذاته إذا أُعطي الوقت الكافي.

نحن الاثنان فقط.

شَعَر المسلَّح بعطش كبير في حفرة عميقة مجهولة في جسده، واحدة لا يستطيع أي تيار ماء أو عصير عنب لمسها. ارتعَشت عوالم،

ضمن متناول أصابعه تقريباً، وسعى بطريقة غريزية ما إلى عدم ترك ذلك يُفسده، عالِماً في أعماق ذهنه أن هكذا صراع كان عقيماً وسيبقى هكذا دائماً. في النهاية، كان هناك القدر فقط.

كان الوقت ظهراً. رفع نظره وترك ضوء النهار الغائم يُشرِق للمرة الأخيرة على الشمس غير المحصّنة أبداً لصلاح نفسه. *لا أحد حقاً يدفع ثمن الخيانة فضةً*، فكّر في سرّه. *بل ثمن كل خيانة يُدفَع روحاً دائماً*.

"تعال معي أو ابق"، قال المسلَّح.

ردَّ الفتى على هذا بابتسامة قاسية وجدّية – ابتسامة والده، لو كان يعرف ذلك. "وسأكون بخير إذا بقيتُ"، قال. "بخير بمفردي، هنا في الجبال. سيأتي أحدهم وينقذني. ستكون معه حلوى وسندويشات. وقهوة في إبريق عازل للحرارة، أيضاً. هل تقول ذلك؟".

"تعال معي أو ابق"، كرَّر المسلَّح، وشَعَر بشيء يحصل في ذهنه. فك ارتباط. كانت تلك هي اللحظة التي توقَّف فيها الشكل الصغير الواقف أمامه عن أن يكون جايك وأصبح فقط الفتى، مجهول مطلوب نقله واستخدامه.

صَرَخ شيءٌ في السكون العاصف؛ وقد سمعه والفتى.

بدأ المسلَّح يتسلّق، ولحقه جايك بعد لحظات. صعدا سوية الصخرة المتقلِّبة الموجودة بجانب الشلال البارد جداً، ووَقَفا حيث كان الرجل ذو الرداء الأسود يقف قبلهما. ودخلاً سوية إلى حيث اختفى. وابتلعتهما العتمة.

الفصل 4

المتحوِّلون البطيئون

I

تكلَّم المسلَّح ببطء مع جايك في التبدّلات الصاعدة والهابطة لشخصٍ يتكلَّم في نومه:

"كنا ثلاثة في تلك الليلة: كَثبرت وآلان وأنا. لم يكن يُفترَض بنا أن نكون هناك، لأن لا أحد منا مرّ من وقت الأولاد. كنا لا نزال نحبو كالأطفال، مثلما يقول المثل. وإذا قُبض علينا، كان كورت ليضربنا حتى يسيل الدم منا. لكن لم يُقبض علينا. لا أظن أيضاً أن أحداً من الذين ذهبوا قبلنا قُبض عليه. يجب أن يرتدي الفتيان سراويل آبائهم في السر، ويتبخترون فيها أمام المرآة، ثم يعيدونها إلى الشمّاعات سراً؛ هكذا كانت الأوضاع. ويتظاهر الآباء بعدم ملاحظة الطريقة الجديدة لتعليق السراويل، أو آثار الشوارب المرسومة بدهان الأحذية التي لا تزال تحت أنوفهم. هل تفهم؟".

لم يقل الفتى شيئاً. لم يكن قد قال أي شيء منذ أن مرّا من ضوء النهار. أما المسلَّح، من جهة أخرى، فقد تكلَّم بصخب ونشاط، لكي يملأ الصمت. لم يكن قد نظر وراءه إلى الضوء بينما كانا يعبران الأرض تحت الجبال، لكن الفتى فعل ذلك. كان المسلَّح قد قرأ انقضاء اليوم في المرآة الناعمة لخد جايك: الآن وردي باهت، الآن زجاج لبني، الآن

فضي شاحب، الآن توهّج الغسق الأخير للمساء، الآن لا شيء. كان المسلَّح قد شاهد ضوءاً كاذباً وواصلا طريقهما.

خيَّما أخيراً. لم يصل إليهما أي صدى من الرجل ذي الرداء الأسود. ربما توقف ليستريح هو أيضاً. أو ربما أكمل سيره من دون أي أضواء، عبر الحجرات المعتِمة.

"كانت كوتيّون ليلة البَذْر - الكومالا، هكذا يسمّيها بعض الأقدمين، تيمّناً بالكلمة التي تعني أرزّ - تُقام مرة في السنة في القاعة الكبرى"، تابع المسلَّح يقول. "كان الإسم الصحيح هو قاعة الأجداد، لكن بالنسبة لنا كانت القاعة الكبرى فقط".

سمعا صوت ماء يدلف.

"كانت من طقوس المغازلة، مثل حقيقة كل الرقصات الربيعية الأخرى". وضحكَ المسلَّح باستنكار؛ وحوَّلت الجدران الصمّاء الصوت إلى ما يشبه أزيز الطائر آكل السمك. "في الأيام الخوالي، تقول الكتب، كانت الحفلة تُقام ترحيباً بالربيع، في ما كان يسمّى أحياناً الأرض الجديدة أو الكومالا النضرة. لكن الحضارة، كما تعرف...".

وأخفض صوته، غير قادر على وصف التغيير المتأصل في ذلك الإسم الرتيب، موت الرومانسية وتلكّؤ انبثاقها الشهواني العقيم، عالمٌ يعيش على التنفس القسري للبريق والمراسم؛ الخطوات الهندسية لوهم المغازلة خلال رقصة كوتيّون ليلة البَذْر التي استبدَلت الحبّ الأكثر صدقاً والأكثر جنوناً الذي يمكنه أن يستشعره بشكل خفيف فقط؛ عظمة مجوَّفة بدلاً من المشاعر الحقيقية التي ساهمت على الأرجح في يوم من الأيام في بناء ممالك ودعم بقائها. وجَد الحقيقة مع سوزان ديلغادو

في ميجيس، فقط ليخسرها مرة أخرى. *كان يا ما كان ملكٌ*، ربما كان قد أخبرَ الفتى؛ *إلد الذي لا يزال دمه يجري في عروقي، رغم أنه قد يكون ضعيفاً. لكن الملوك انتهوا أيها الفتى. في عالم الضوء، على أي حال.*

"حوّلوه إلى شيء منحطّ"، قال المسلَّح في النهاية. "لعبة. تسلية". كان صوته مليئاً بكل النفور غير الواعي للزاهد والناسك. وكان وجهه، لو كان هناك ضوء أقوى لينيره، سيُظهر قسوة وحزناً، أنقى أنواع الشجب. لم تضعف قوته الأساسية مع مرور السنوات. وكان انعدام الخيال الذي لا يزال بادياً على ذلك الوجه جديراً بالملاحظة.

"لكن الحفلة"، قال المسلَّح. "كوتيّون ليلة البَذْر...".

لم يتكلَّم الفتى، ولم يسأل.

"كانت هناك ثريّات بلّورية، زجاج ثقيل ذو مصابيح كهربائية. كانت تحوِّل المكان إلى جزيرة أضواء.

"تسلَّلنا إلى إحدى الشرفات القديمة، تلك التي كان يُفترَض أن تكون غير آمنة ومطوَّقة بحبال. لكننا كنا أولاداً، والأولاد يظلون أولاداً. كان كل شيء بالنسبة لنا خطيراً، لكن ما أهمية ذلك؟ ألن نعيش إلى الأبد؟ كنا نظنّ ذلك، حتى عندما كنا نكلِّم بعضنا البعض عن طريقة موتنا العظيمة.

"كنا فوق الجميع ويمكننا أن ننظر إلى كل شيء من أعلى. لا أتذكّر أن أي واحد منا قال شيئاً. كنا فقط نتجرّع الأحداث بعيوننا.

"كانت هناك طاولة حجرية كبيرة يجلس إليها المسلَّحون وزوجاتهم ليأكلوا اللحم ويشاهدوا الراقصين. رقص بعض المسلَّحين أيضاً، لكن قلّة فقط. كانوا اليافعين منهم. وأذكر أن المسلَّح الذي نصب الفخ

لهاكس كان أحد الراقصين. أما الأكبر سناً فبقوا جالسين، وبدا لي أنهم كانوا نصف مُحرَجين في كل تلك الأضواء، كل تلك الأضواء المتحضِّرة. كانوا أشخاصاً موقَّرين، الذين يخاف منهم الآخرون، الحُماة، لكنهم بدوا مثل ساسة في ذلك الحَشد من الفرسان مع زوجاتهم الناعمات...

"كانت هناك أربع طاولات دائرية مليئة بالطعام، وتدور طوال الوقت. ولم يتوقف فتيان الطبّاخين عن التنقّل ذهاباً وإياباً من الساعة السابعة حتى الساعة الثالثة في الصباح التالي. كانت الطاولات شبيهة بالساعات، وكان يمكننا أن نشمّ روائح اللحم والكركند والدجاج والتفاح المشوي. كانت الروائح تتغيَّر كلما دارت الطاولات. وكانت هناك مياه محمَّدة وحلوى. كما كانت هناك أسياخ لحم ملتهبة رائعة.

"كان مارتن يجلس بجانب أمي وأبي - عرفتهما حتى من ذلك المكان المرتفع - ورقصت مرةً مع مارتن، ببطء وبشكل دوّار، وأخلى الآخرون حلبة الرقص لهما وصفَّقوا لهما عندما انتهيا. لم يصفِّق المسلَّحون، لكن أبي وَقَف ببطء ومدَّ يديه لها. وذهَبت إليه، مبتسمةً، وهي تمدّ يديها إليه.

"كانت لحظة انجذاب هائلة، حتى نحن شعَرنا بها في مخبئنا المرتفع. كان أبي وقتها قد تمكَّن من السيطرة على شِلّته، يجب أن تفهم - شِلّة المسدسات - وكان على شفير أن يصبح قائد جلعاد، إن لم يكن قائد كل العالم الداخلي. كان البقية يعرفون ذلك. ومارتن يعرف ذلك بشكل أفضل من أي شخص آخر... ما عدا، ربما، غابرييل فيرّيس".

تكلَّم الفتى أخيراً، وبتقاعُس جليّ. "كانت أمك؟".

"أجل. غابرييل المياه، إبنة آلان، زوجة ستيفن، أم رولاند". بسطَ

المسلَّح يديه في إيماءة ساخرة بدا أنها تقول *ها أنا، وما أهمية ذلك؟* ثم أخفضهما إلى حُضنه مرة أخرى.

"كان أبي آخر ملوك النور".

نَظَر المسلَّح إلى يديه. لم يقل الفتى شيئاً آخر.

"أتذكّر كيف رقصا"، قال المسلَّح. "أمي ومارتن، مستشار المسلَّحين. أتذكّر كيف رقصا، وكيف كانا يدوران ببطء ويقتربان من بعضهما البعض ويبتعدان عن بعضهما البعض، في خطوات المغازلة القديمة".

نَظَر إلى الفتى، مبتسماً. "لكنه لم يكن يعني شيئاً. لأن الطاقة كانت قد مرَّت بطريقة لم يكن أحد منا يعرفها لكننا كلنا نفهمها، وكانت أمي متجذّرة في مالك تلك الطاقة والمسيطر عليها. أليس كذلك؟ ألم تذهب إليه عندما انتهت الرقصة؟ وشبَكَت يديه. هل صفَّقوا؟ هل ضجّت القاعة بذلك بينما كان أولئك الفتيان وسيداتهم الناعمات يصفّقوا ويُشيدون به؟ أليس كذلك؟ أليس كذلك؟".

سمعا ماءً مزعجاً يدلف من بعيد في العتمة. لم يقل الفتى شيئاً.

"أتذكر كيف رقصا"، قال المسلَّح بلطف. "أتذكر كيف رقصا". رفع نظره إلى السقف الحجري غير المرئي وشعر للحظة أنه قد يصرخ عليه، يوبّخه، يتحدّاه بتهوّر – أطنان الغرانيت العمياء والبكماء تلك التي تقبض على حياتهما الآن مثل ميكروبات في أمعائها الحجرية.

"أي يد استطاعت أن تحمل السكين التي قتلت أبي؟".

"أنا مُتعَب"، قال الفتى، ثم لم يقل أي شيء آخر مرة أخرى.

عاد المسلَّح إلى صمته، واستلقى الفتى واضعاً يداً بين خده والحجر. ارتعش اللهب الصغير أمامهما. ولفّ المسلَّح سيجارة. بدا أنه قادر على رؤية ضوء البلّور، في مخيلته؛ وسماع صيحات التكريم، الفارغة في أرض جرداء كانت تقف ميؤوس منها حتى وقتها أمام محيط رمادي من الزمن. كانت ذكرى جزيرة الأضواء تلك تُشعره بالمرارة، وتمنّى لو أنه لم يشهد ذلك أبداً، أو لو أنه لم يشهد تعرّض والده للزنا.

مرَّر الدخان بين فمه وأنفه، وهو ينظر إلى الفتى. *كيف نصنع دوائر كبيرة لأنفسنا في الأرض*، فكّر في سرّه. *نسير دائرياً، عائدين إلى البداية ونجد البداية هناك مرة أخرى: الإعادة، التي لطالما كانت لعنة ضوء النهار.*

كم من الوقت قبل أن نرى ضوء النهار مرة أخرى؟

نام.

بعد أن أصبح صوت تنفّسه طويلاً وهادئاً ومنتظماً، فتح الفتى عينيه ونَظَر إلى المسلَّح بتعبير ينمّ عن اشمئزاز وحبّ. علق آخر ضوء من النار في بؤبؤ إحدى عينيه وغرِق هناك. ثم غفا.

II

فقَدَ المسلَّح معظم إحساسه بالوقت في الصحراء، التي كانت غير متبدِّلة؛ وفقَدَ بقيته هنا في الممر تحت الجبال، الذي كان مُظلِماً. لم يكن لدى كليهما أي طريقة لمعرفة الوقت، وأصبح مفهوم الساعات بلا معنى. يمكن القول إنهما كانا يقفان خارج الزمن إلى حد ما. فاليوم يمكن أن يكون أسبوعاً، أو الأسبوع يوماً. كانا يسيران، وينامان،

ويأكلان القليل من الطعام بحيث لا يشبعان. وكان رفيقهما الوحيد تدفّقٌ هادئٌ مدوٌّ للماء يحفر مساره في الصخور. بقيا يتبعانه ويشربان من عمقه المعدني الضحل، آملَين ألا يكون هناك شيء فيه سيُمرضهما أو يقتلهما. وكان المسلَّح يظن أحياناً أنه يرى أضواءً هاربةً تحت سطح الماء، لكنه افترَض أنها مجرد تخيّلات من ذهنه الذي لم ينسَ الضوء. ومع ذلك، فقد حذَّر الفتى من وضع قدميه في الماء.

كان جهاز تقدير المدى في رأسه يُرشدهما بثبات.

كان المسار بجانب النهر (لأنه كان مساراً *فعلاً* - ناعم وغاطس في تقعُّر بسيط) يقودهما صعوداً دائماً نحو منبع النهر. وكانا يصلان عند فواصل منتظمة إلى أبراج حجرية منحنية ذات مسامير حَلَقية غاطسة؛ ربما كانوا يربطون الثيران أو أحصنة العربات بها فيما مضى. وكان في كل مسمار حَلَقي إبريق فولاذي يحتوي على مِشعل كهربائي، لكن كل تلك المشاعل كانت خالية من أي حياة وضوء.

خلال الفترة الثالثة من الراحة-قبل-النوم، تحوَّل الفتى قليلاً. كان باستطاعة المسلَّح سماع خشخَشة الحصى تحت قدمَي جايك وهو يسير بحذر.

"انتبه"، قال. "لا يمكنك أن ترى أين أنت".

"إنني أزحف. إنه...!".

"ما الأمر؟"، ربضَ المسلَّح جزئياً، ماسكاً مقبض أحد مسدسيه.

حدث صمت قصير. وراح المسلَّح يحدِّق دون جدوى.

"أعتقد أنها سكة حديدية"، قال الفتى بارتياب.

نهض المسلَّح وسار نحو صوت جايك، متلمّساً الطريق بإحدى قدميه لكي يتجنّب الحُفر.

"هنا". امتدّت يد ولمست وجه المسلَّح. كان الفتى بارعاً جداً في الظلام، أفضل من رولاند نفسه. بدت عيناه قد اتّسعتا حتى لم يعد هناك أي لون باقٍ فيهما: رأى المسلَّح هذا عندما قَدَح نوراً خفيفاً. لم يكن هناك وقود في هذا الرحم الصخري، وما أحضَراه معهما كان ينفد بسرعة. كان الإلحاح لقدْح نورٍ قوياً جداً أحياناً. وقد اكتشفا أن المرء يمكن أن يتوق للنور مثل توقه للطعام.

كان الفتى يقف بجانب جدارٍ صخريٍ منحنٍ معلَّقة عليه هراوات معدنية في صفوف متوازية تمتد إلى العتمة. كانت كل هراوة تتضمن عُقداً سوداء ربما كانت تُستخدَم فيما مضى لتوصيل الكهرباء. وبجانبها وتحتها، على ارتفاع سنتيمترات فقط عن الأرضية الحجرية، كانت هناك مسارات معدنية ساطعة. ما الذي يمكن أن يكون قد سار على تلك المسارات في يوم من الأيام؟ لم يكن بوسع المسلَّح سوى تخيّل رصاصات كهربائية ملساء، تنطلق في مساراتها عبر هذا الليل الذي لا ينتهي وفي مقدمتها نور كشّاف مرتعب. لم يسمع أبداً عن هكذا أشياء، لكن كانت هناك بقايا كثيرة من العالم الهالك، تماماً مثلما كانت هناك عفاريت. التقى المسلَّح مرةً بناسك اكتَسَب سلطة شبه مطلقة على سرب بائس من حرّاس المواشي عبر امتلاكه مضخّة بنزين قديمة. كان الناسك يربض بجانبها، وقد لفّ إحدى ذراعيه حولها بإحكام، ويُلقي مواعظ مسعورة عن الأخلاق. وكان من وقت لآخر يضع الفوهة الفولاذية التي لا تزال ساطعةً، والموصولة بخرطوم مطاطي متعفِّن، بين رجلَيه. على المضخّة، وبأحرف مقروءة تماماً (رغم أنها صدئة)، كان

هناك شعار مجهول المعنى: *أموكو. خالٍ من الرصاص.* أصبح أموكو رمزاً لملك الرعد، وكانوا يكرّمونه بذبح الخراف وصوت المحرّكات: *راممم! راممم! رام-رام-راممممم!*

هياكل قديمة، فكّر المسلَّح في سرّه. مجرد هياكل قديمة بلا جدوى ناتئة من رمال كانت بحاراً فيما مضى.

والآن سكة حديدية.

"سنتبع مسارها"، قال.

لم يقل الفتى شيئاً.

أطفأ المسلَّح الضوء وناما.

عندما استيقظ رولاند، وجد الفتى قد استيقظ قبله، وكان جالساً على إحدى السكّتين الحديديتين يراقبه في الظلام.

تبعا السكة الحديدة مثل العميان، رولاند في الطليعة، وجايك خلفه. وبقيا يتركان قدميهما تنزلقان على إحدى السكّتين دائماً، أيضاً كالعميان. كان الهدير الهادئ للنهر على يمينهما رفيقهما الوحيد. لم يتكلّما، واستمرّ هذا لثلاث فترات استيقاظ. لم يشعر المسلَّح بضرورة التفكير بشكل متماسك، أو التخطيط. فكان ينام بلا أحلام.

خلال فترة الاستيقاظ والسير الرابعة، تعثَّرا حرفياً بعربة يد.

اصطدم بها المسلَّح بصدره، والفتى، الذي كان يسير على الجهة الأخرى، بجبهته وسقط يصرخ.

قَدَح المسلَّح نوراً فوراً. "هل أنت بخير؟"، بدت الكلمات حادة، غاضبة، وجفَل منها.

"نعم". كان الفتى يُمسك رأسه بحذر شديد. هزّه مرةً ليتأكد أنه قال الحقيقة. استدارا لينظرا إلى ما اصطدما به.

كانت عبارة عن صفيحة مربعة مسطَّحة من المعدن تجلس بصمت على السكة الحديدية. وكان هناك مقبض تأرجح في وسط المربع، موصول بترس في الأسفل. لم يُدرك المسلَّح هدف هذا الشيء فوراً، لكن الفتى فهمه حالاً.

"إنه عربة يد".

"ماذا؟".

"عربة يد"، قال الفتى بتمهّل، "كما في الرسوم المتحركة القديمة. انظر".

نهض وذهَب إلى المقبض. تمكّن من دفعه إلى الأسفل، لكنه احتاج إلى وضع كل وزنه فوق المقبض ليحقّق ذلك. تحرّكت عربة اليد حوالي رُبع متر، بصمت، على السكة الحديدية.

"جيد!"، قال صوت ميكانيكي خافت. أجفلهما ذلك وجعلهما يقفزان. "جيد، اضغط مر...". ثم اختفى الصوت الميكانيكي.

"يحتاج إلى قوة أكبر"، قال الفتى، كما لو أنه يعتذر.

وقف المسلَّح بجانب جايك وضغط المقبض إلى الأسفل. أطاعته عربة اليد وتحرّكت إلى الأمام، ثم توقفت. "جيد، ادفع مرة أخرى!"، قال الصوت الميكانيكي مشجّعاً.

شَعَر بعمود إدارة يدور تحت قدميه. أعجبه ذلك، وكذلك الصوت الميكانيكي (رغم أنه لم يكن ينوي الاستماع *إليه* أكثر من

الضروري). باستثناء المضخّة في المحطة الوسطية، كانت هذه أول آلة يراها من سنوات لا تزال تعمل بشكل جيد. لكنها أقلقته أيضاً. فهي ستأخذهما إلى وجهتهما بشكل أسرع بكثير. ولم يكن لديه أي شك أيضاً أن الرجل ذا الرداء الأسود تقصَّد أن يجداها.

"جميل، أليس كذلك؟"، قال الفتى بصوت متردِّد. كان الصمت مُطبقاً، لدرجة أن رولاند كان يستطيع سماع أعضائه داخل جسده تعمل، وقطرات الماء، ولا شيء آخر.

"أنت تقف على جهة، وأنا أقف على الأخرى"، قال جايك. "عليك أن تضغط بنفسك إلى أن تتدحرج بسرعة كافية. ثم يمكنني مساعدتك. أنت تضغط أولاً، ثم أنا أضغط. سنتعاون. هل فهمت؟".

"أجل"، قال المسلَّح. كانت يداه مشدودتين في قبضتين عاجزتين يائستين.

"لكن سيكون عليك أن تضغط بنفسك إلى أن تتدحرج بسرعة كافية"، كرَّر الفتى وهو ينظر إليه.

تراءت للمسلَّح فجأة صورة واضحة للقاعة الكبرى قبل سنة تقريباً بعد كوتيّون ليلة البَذْر. كانت قد أصبحت وقتها مجرد حطام في أعقاب الثورة، والصراع المدني، والغزو. تلك الصورة تبعتها صورة آليْ، المرأة ذات الندوب في تَلّ، وهي تسقط من الرصاصات التي كانت تقتلها بلا أي سبب... إلا إذا كان رد الفعل اللاإرادي سبباً. ثم جاء وجه كَثبرت أولغُود، وهو يضحك بينما كان يسقط ميتاً، ولا يزال ينفخ في ذلك البوق اللعين... ثم رأى وجه سوزان، المفتول، وقد بشّعته الدموع. *كل أصدقائي القدامى*، فكّر المسلَّح في سرّه، وابتسم ببشاعة.

"سأضغط"، قال المسلَّح.

وبدأ يضغط، وعندما بدأ الصوت يتكلم ("جيد، ادفع مرة أخرى! جيد، ادفع مرة أخرى!")، أقحم يده تحت العمود الذي يتأرجح عليه المقبض. وعثر أخيراً على ما كان يبحث عنه بالتأكيد: زرّ. فضغطه.

"وداعاً يا صديقي!"، قال الصوت الميكانيكي بانشراح، ثم أنعَمَ عليهما بصمته لبضع ساعات.

III

تدحرجا في الظلمة، بشكل أسرع الآن، فلم يعودا مضطرين إلى تلمّس طريقهما. تكلَّم الصوت الميكانيكي مرةً، ليبثّ عليهما إعلاناً لصنف من رقائق البطاطا المقلية، ومرة أخرى ليبثّ عليهما إعلاناً لصنف من الشوكولا. ثم صمت ولم يعد يتكلَّم.

بعدما زال الإرباك من تشغيل عربة يد بقيت مدفونة لفترة طويلة، بدأت تسير بسلاسة. حاوَل الفتى القيام بدوره، وسمح له المسلَّح أن يضغط بين الحين والآخر، لكنه بقي يسيّرها بمفرده في الأغلب. كان النهر تحت الأرض رفيقهما، فيقترب منهما أحياناً إلى اليمين، ويبتعد عنهما أحياناً أخرى. واتّخذ مرةً صوت تجويف ضخم ومدوٍّ، وكاد الصوت يختفي كلياً مرةً أخرى.

بدت السرعة والرياح التي تلطم وجهيهما كأنهما أخذا مكان البصر وأوقعاهما في إطار زمني مرة أخرى. قدَّر المسلَّح أنهما يسيران بسرعة تتراوح بين خمسة عشر وخمسة وعشرين كيلومتراً في الساعة،

دائماً على طريق صاعد يكاد يبدو مستوياً أرهقه كلياً. عندما توقّفا، نام مثل الصخر نفسه. كان طعامهما قد نفد تقريباً مرة أخرى. لكنهما لم يقلقا بشأن ذلك.

بالنسبة للمسلَّح، كان التوتّر من ذروة حدث قادم يكاد لا يُذكَر لكنه حقيقي (ومتزايد) بنفس قدر تعبه من تسيير عربة اليد. كانا قريبين من نهاية البداية... أو على الأقل هو الذي كان قريباً. شعَر كأنه ممثل يقف وسط خشبة مسرح قبل دقائق من رفع الستارة؛ ويستذكر أول سطر من الحوار في ذهنه، ويسمع أفراد الجمهور غير المنظور يتصفّحون البرنامج ويستوون في مقاعدهم. عاش مع كتلة مشدودة ضخمة من التوقّع في بطنه ورحَّب بالتمرين الذي جعله ينام. وعندما نام *فعلاً*، كان كالميت.

أصبح الفتى يتكلَّم أقل وأقل، لكن عند توقفهما قبل فترة نوم واحدة من هجوم المتحوِّلين البطيئين عليهما، سأل المسلَّح بخجل تقريباً عن بلوغه سن الرشد.

"لأنني سأسمع المزيد عن ذلك"، قال.

كان المسلَّح مستلقياً مديراً ظهره للمقبض، وسيجارة من تبغه المتضائل بين شفتيه. كان على شفير نومه الغافل الاعتيادي عندما طرح عليه الفتى السؤال.

"لماذا تريد معرفة ذلك؟"، سأله باستمتاع.

كان صوت الفتى عنيداً بفضول، كما لو أنه يُخفي إحراجه. "أريد وفقط". ثم أضاف بعد صمت قصير: "لطالما تساءلتُ عن النضوج. أظن أن أغلبها أكاذيب".

"ما ستسمع عنه لم يكن نضوجي"، قال المسلَّح. "أظن أنني فعلتُ ذلك لأول مرة بعد فترة قصيرة مما ستسمع عنه-".

"عندما حاربتَ أستاذك"، قال جايك بذهن شارد. "هذا ما أريد سماعه".

أومأ رولاند برأسه. نعم، بالطبع، اليوم الذي جرَّب فيه الخط؛ كانت تلك قصة قد يريد أي فتى سماعها، حسناً. "لم يبدأ نضوجي الحقيقي إلا بعد أن أرسلني أبي بعيداً. انتهى بي المطاف أن أُنجزه في مكان وآخر على الطريق". ثم صمت لبرهة. "رأيتُ لا-رجلاً مشنوقاً في أحد الأيام".

"لا-رجلٌ؟ لم أفهم".

"يمكنك أن تشعر به لكن لا يمكنك رؤيته".

أومأ جايك برأسه دلالة على أنه بدأ يفهم. "كان غير مرئي".

رفع رولاند حاجبَي عينيه. لم يسمع هذه الكلمة أبداً من قبل. "هل تقول ذلك؟".

"نعم".

"فليكن هكذا إذاً. على أي حال، كان هناك أشخاص لم يريدوني أن أفعل ذلك - شَعَروا أن لعنة ستصيبهم إذا فعلتُ ذلك، لكن الأخ كان قد استساغ الاغتصاب. هل تعرف ما هو هذا؟".

"نعم"، قال جايك. "وأظن أن شخصاً غير مرئي سيكون بارعاً في ذلك أيضاً. كيف قبضتَ عليه؟".

"هذه قصة ليوم آخر". كان يعرف أنه لن تكون هناك أيام أخرى.

كان كلاهما يعرفان أنه لن تكون هناك أيام أخرى. "بعد ذلك بسنتين، تركتُ فتاةً في مكان يسمّى بلدة الملك، رغم أنني لم أكن أريد-".

"بالطبع كنت تريد"، قال الفتى بازدراء واضح في صوته. "عليك اللحاق بذلك البرج، هل أنا على حق؟ عليك مواصلة ركوب الخيل، تماماً مثل رعاة البقر في محطة تلفزيون أبي".

شَعَر رولاند بالحرارة تملأ وجهه في الظلام، لكن صوته كان هادئاً عندما تكلّم. "أظن أن ذلك كان آخر جزء. أقصد من نضوجي. لم أعرف أبداً الأجزاء لحظة حصولها. بل عرفتُها لاحقاً فقط".

أدرَك ببعض القلق أنه كان يتجنَّب ما أراد الفتى سماعه.

"أفترض أن بلوغ سن الرشد كان جزءاً منه"، قال على مضض. "كان رسمياً. منمَّقاً تقريباً؛ مثل رقصة". ضحك بشكل بغيض.

لم يقل الفتى شيئاً.

"كان من الضروري أن يُثبت المرء نفسه في المعركة"، بدأ المسلَّح.

IV

الصيف، والجو حار.

حلّ فصل «الأرض الكاملة» تلك السنة مثل حبيب مستبدّ، فقتل الأراضي ومحاصيل المُزارعين، وجعل حقول مدينة جلعاد بيضاء وقاحلة. في الغرب، على بُعد بعض الكيلومترات وبالقرب من الحدود التي كانت نهاية العالم المتحضِّر، كان القتال قد بدأ من قبل. كانت كل التقارير سيئة، وكلها لا ترقى إلى أهمية الحرارة التي استقرّت فوق

ذلك المكان. كانت الأبقار تقف بنظرات فارغة في الزرائب، والخراف تثغو بخمول، غير مكترثة للنعاج والسكاكين التي تُشحَذ للخريف القادم. وكان الناس يتذمّرون من الضرائب والسخرة، مثلما كانت حالهم دائماً؛ لكن كانت هناك لامبالاة تحت الشغف الفارغ بالسياسة. كان المكان مُنهكاً مثل سجادة بالية تم غسلها والسير عليها ونفضها وتعليقها وتجفيفها. والخيط الذي يُمسك آخر جوهرة على صدر العالم كان ينحلّ. لم تكن الأمور على ما يرام. كانت الأرض تختنق في صيف الكسوف القادم.

تكاسل الفتى في الرواق العلوي لهذا المكان الصخري الذي كان منزله، متحسّساً تلك الأشياء، دون أن يفهمها. كان خطيراً أيضاً وفارغاً، ينتظر أن تتم تعبئته.

مرَّت ثلاث سنوات على شنق الطبّاخ الذي كان قادراً دائماً على إيجاد وجبات خفيفة للفتيان الجائعين؛ وكان رولاند قد ازداد طولاً وتجسَّم عند الكتفين والورك. وأصبح الآن، وهو يرتدي فقط سراويل قطنية باهتة، ويبلغ من العمر أربع عشرة سنة، يشبه الرجل الذي سيصبح عليه لاحقاً: هزيل وضامر وسريع الخُطى. كان لا يزال مستلقياً في سريره، لكن اثنين من بائعات الهوى الأصغر سناً والتابعتين لتاجر من البلدة الغربية كانتا تستهويانه. كان قد شَعَر بردة فعل وشَعَر بها بقوة أكثر الآن. حتى في برودة الممر، شعَر بعرق على جسده.

إلى الأمام كانت شقق أمه، واقترب منها بلا مبالاة، فقد كان ينوي أن يعبرها فقط ويصعد إلى السطح حيث ينتظره نسيم عليل ومتعة يده.

كان قد عبَرَ الباب عندما ناداه صوتٌ: "أنت. يا فتى".

كان صوت مارتن، المستشار. كان يرتدي ملابس عادية مشبوهة ومزعجة - سروال أسود بنسيج مضلّع ملتصق الجسم، وقميص أبيض نصف مفتوح عند صدرٍ خالٍ من الشعر. كان شعره منكوشاً.

نَظَر إليه الفتى بصمت.

"ادخل، ادخل! لا تقف في القاعة! تريد أمك أن تتكلم معك". كان يبتسم، لكن خطوط وجهه تحمل حسّاً فكاهياً تهكمياً أعمق. تحت ذلك - وفي عينيه - كانت هناك برودة فقط.

في الحقيقة، لم يبدُ أن أمه تريد رؤيته. فقد كانت تجلس على الكرسي ذي الظهر المنخفض قرب النافذة الكبيرة في القاعة المركزية لشققها، تلك التي تُطلّ على الصخرة الجوفاء الساخنة في الفناء المركزي. وكانت ترتدي ثوباً فضفاضاً غير رسمي بقي ينزلق عن كتفها الأبيض ونَظَرت إلى الفتى لمرة واحدة فقط - ابتسامة سريعة متلألئة حزينة، مثل شمس الخريف على غدير ماء. خلال اللقاء الذي تلى ذلك، راحت تدرس يديها بدلاً من يدي إبنها.

نادراً ما أصبح يراها الآن، وأغاني شبح المَهد

(شوسّيت، شيسّيت، شاسّيت)

زالت تقريباً من ذهنه. لكنها كانت غريبةً محبوبةً. شعَر بنشوء خوف غير متبلورٍ، وبغض ناقص لمارتن، المستشار الأقرب إلى والده.

"هل أنت بخير يا رولاند؟"، سألته بلطف. كان مارتن يقف بجانبها، ويده الثقيلة المزعجة بالقرب من منعطف كتفها الأبيض وعنقها الأبيض، ويبتسم لهما. كانت عيناه البنيتان داكنتين إلى حدّ السواد بسبب الابتسام.

"نعم"، قال.

"هل تسير دراستك على ما يرام؟ هل فانّاي مسرور؟ وكورت؟"، زمَّت فمها عند هذا الإسم الثاني، كما لو أنها تذوَّقت شيئاً مرّاً.

"إنني أحاول"، قال. كان كلاهما يعرف أنه لم يكن ذكياً مثل كَثبرت، أو حتى سريعاً مثل جايمي. كان يبذل جهداً كبيراً ليتقدّم. حتى آلان كان أفضل منه في الدراسة.

"ودايفد؟"، كانت تعرف حبّه للصقر.

رفع الفتى نظره إلى مارتن، الذي كان لا يزال يبتسم بطيبة أبوية على كل ذلك. "تخطى صيده الأول".

بدا أن أمه جفلت؛ وبدا وجه مارتن مُظلماً للحظة، واشتدّت قبضته على كتفها. ثم نظرت إلى الشحوب الحار لليوم، وكان كل شيء مثلما كان دائماً.

إنها أحجية، فكّر في سرّه. *لعبة. مَن يلعب مع مَن؟*

"هناك جرح على جبهتك"، قال مارتن، الذي لا يزال يبتسم، وأشار بإصبعه إلى العلامة الناتجة عن

(شكراً لهذا اليوم المفيد)

أحدث ضربات كورت. "هل ستكون مقاتِلاً مثل أبيك أم أنت بطيء فحسب؟".

هذه المرة جفلت.

"الاثنان معاً"، قال الفتى. ونظر إلى مارتن بثبات ثم ابتسم بشكل مؤلم. حتى هنا، كان الجو حاراً جداً.

توقف مارتن عن الابتسام فجأة. "يمكنك الذهاب إلى السطح الآن يا فتى. أظن أن لديك عملاً هناك".

"لم تصرفني أمي بعد أيها الكفيل!".

اكفهرّ وجه مارتن كما لو أن الفتى ضربه بسوط. سمع الفتى شهقة أمه الرهيبة المثيرة للأسى. ونطقت إسمه.

لكن الابتسامة المؤلمة بقيت كما هي على وجه الفتى وخطا خطوة إلى الأمام. "هل ستعطيني دلالة ولاء أيها الكفيل؟ بإسم أبي الذي تخدمه؟".

حدَّق فيه مارتن، وبدا غير مصدِّق ما يسمعه.

"اذهب"، قال مارتن بلطف. "اذهب واعثر على يدك".

مبتسماً بشكل رهيب، ذهَب الفتى.

بينما كان يُغلق الباب ليعود أدراجه إلى حيث أتى، سمِع أمه تنتحب. كان صوت شؤم. ثم، وبشكل لا يُصدَّق، صوت رجل والده يضربها ويُخبرها أن تخرس.

أن تخرس!

ثم سمِع مارتن يضحك.

استمرّ الفتى يبتسم وهو ذاهب إلى امتحانه.

V

أتى جايمي من المتاجر، وعندما رأى الفتى يعبر فناء التمارين،

ركض ليُخبر رولاند آخر الأقاويل عن سفك الدماء والثورة في الغرب. لكنه تنحّى جانباً، ولم ينطق بأي كلمة. كانا يعرفان بعضهما منذ الطفولة، وقد تحدّا بعضهما في مرحلة الصبا، وكبّلا بعضهما، وقاما بألف استكشاف للجدران التي ترعرعا بينها.

تجاوزه الفتى بخطوات كبيرة، ناظراً إليه من دون أن يراه، مبتسماً ابتسامته المؤلمة. كان يسير نحو كوخ كورت، حيث كانت الستائر مغلقة لتفادي حرارة بعد الظهر الهمجية. كان كورت ينام بعد الظهر لكي يتمكن من الاستمتاع إلى أقصى حد ممكن بغزواته المسائية في أماكن السهر البذيئة في البلدة السفلية.

عرِف جايمي بحدسه ما كان سيحصل، واحتار في خوفه ونشوته بين اللحاق برولاند وبين اللحاق بالآخرين.

ثم انقطع حبل أحلامه وركض نحو الأبنية الرئيسية، صارخاً، "كَثبرت! آلان! توماس!". بدت صرخاته ضعيفة وواهنة في الحرارة. كانوا يعرفون، كلهم، بالطريقة البديهية الشائعة بين الفتيان، أن رولاند سيكون أول واحد منهم سيجرّب الخط. لكن هذا كان باكراً جداً.

الابتسامة البشعة على وجه رولاند استفزّته بخلاف كل أخبار الحروب والثورات والشعوذات.

كانت هذه أكثر من كلمات نطقها فمٌ خالٍ من الأسنان فوق رؤوس خس ملطّخة ببراز الذباب.

سار رولاند إلى كوخ أستاذه وركَلَ الباب فاتحاً إياه. فُتح الباب بقوة مرتطماً بالجصّ العادي الخشن للجدار، وارتدّ نحوه.

لم يدخل إلى هناك أبداً من قبل. كان المدخل يؤدي إلى مطبخ

بسيط جداً وبارد وبنيّ. طاولة. كرسيان مستقيمان. خزانتان. مشمَّع باهت للأرضية، ممدود في مسارات سوداء من وعاء التبريد الموضوع على الأرض إلى المنضدة حيث السكاكين مُعلَّقة، وإلى الطاولة.

هنا كان المكان الخصوصي لرجل عام. الملجأ المتلاشي لشخص ثمل عنيف في منتصف الليل أحبَّ فتيان ثلاثة أجيال تقريباً، وحوَّل بعضهم إلى مسلَّحين.

"كورت!".

ركَلَ الطاولة دافعاً بها نحو المنضدة. وتساقطت السكاكين عن الرفّ الجداري مُحدثة قرقعةً.

سمع صوت حركة ثقيلة في الغرفة الأخرى، تنحنُح شخصٍ نصف نائمٍ. لم يدخل الفتى، مُدركاً أنه كان تصنُّعاً، مُدركاً أن كورت استيقظ فوراً في الغرفة الأخرى للكوخ ووَقَف متأهّباً بعينٍ لامعةٍ بجانب الباب، منتظراً أن يكسر عنق المقتحم الغافل.

"كورت، أريدك أيها الكفيل!".

تكلَّم الآن باللغة الراقية، ففتح كورت الباب بعنف. كان يرتدي شورتاً داخلياً رقيقاً؛ رجلٌ قصيرٌ وبدينٌ ذو رجلين مقوَّستين وعضلات مفتولة، والندبات تملأ جسمه من رأسه إلى أخمص قدميه، وبطنه مستدير منتفخ. كان الفتى يعرف من الخبرة أن ذلك البطن من الفولاذ الصُلب. حملَقت فيه العين السليمة الوحيدة في الرأس المنبعِج والخالي من الشعر.

ألقى عليه الفتى تحية رسمية. "لن تعلّمني بعد اليوم، أيها الكفيل. اليوم أنا سأعلِّمك".

"أتيت باكراً أيها التافه"، قال كورت بنبرة عادية، لكنه تكلّم باللغة الراقية أيضاً. "باكراً بسنتين في أفضل الأحوال. سأسألك هذا لمرة واحدة فقط. هل ستعدِل عن قرارك؟".

اكتفى الفتى بأن ابتسم ابتسامته البشعة المؤلمة. بالنسبة لكورت الذي كان قد رأى الابتسامة مرات عديدة في ميادين الشرف والعار الدموية، كانت هذه ردّاً كافياً – ربما الردّ الوحيد الذي كان سيصدّقه.

"للأسف"، قال الأستاذ بذهول. "لقد كنتَ تلميذاً واعداً جداً – والحق يُقال، الأفضل منذ عشرين سنة. سيكون مُحزناً رؤيتك محطماً وتسلك مساراً أعمى. لكن العالم استمرّ. والأوقات العصيبة تعدو على صهوة حصان".

بقي الفتى صامتاً (وكان ليكون غير قادر على تقديم أي شرح متماسك، لو كان هكذا شرحٌ مطلوباً)، لكن لأول مرة تلطّفت الابتسامة المريعة قليلاً.

"ومع ذلك، هناك خط الدم"، قال كورت، "الثورة والشعوذة إلى الغرب أو لا. أنا كفيلك يا فتى. أسلِّم بأمرك وأنحني له الآن – هذه المرة فقط لا غير – من كل قلبي".

وكورت، الذي كان قد كبَّله، وركله، وأدماه، وشتمه، وسخَر منه، انحنى على ركبة واحدة وأحنى رأسه له.

تلمّس الفتى الجلد الضعيف لعنقه بتعجّب. "انهض أيها الكفيل".

وَقَف كورت ببطء، وربما كان هناك ألم وراء قناع ملامحه الفاقدة أي إحساس. "هذا مؤسف. اعدِل عن قرارك أيها الأحمق. سأنقض قَسَمي. اعدِل عن قرارك وانتظر".

لم يقل الفتى شيئاً.

"جيد جداً؛ إذا كنت تقول ذلك، فليكن هكذا إذاً". أصبح صوت كورت جافاً ومهنياً. "ساعة واحدة. والسلاح من اختيارك".

"هل ستُحضِر عصاك؟".

"أحملها معي دائماً".

"كم عدد العُصي التي أُخذت منك يا كورت؟". وهذا كان موازياً للسؤال: كم عدد الفتيان الذي دخلوا الفناء المربّع وراء القاعة الكبرى وعادوا كتلاميذ مسلَّحين؟

"لا أحد سيأخذ مني عصا اليوم"، قال كورت ببطء. "يؤسفني ذلك. هناك المرة الواحدة فقط يا فتى. عقاب الإفراط في اللهفة مماثل لعقاب عدم الجدارة. ألا يمكنك أن تنتظر؟".

تذكَّر الفتى وقوف مارتن فوقه. والابتسامة. وصوت الصفعة من خلف الباب المُغلق. "لا".

"جيد جداً. أي سلاح تختار؟".

لم يقل الفتى شيئاً.

بيَّنت ابتسامة كورت صفاً متعرجاً من الأسنان. "حكيم كفاية من البداية. بعد ساعة. أنت تُدرِك أنك لن ترى أبداً أباك أو أمك أو رفاق شلّتك مرة أخرى؟".

"أعرف معنى المنفى"، قال رولاند بلطف.

"اذهب الآن، وتأمَّل بوجه أبيك. هذا سيفيدك كثيراً".

ذهَب الفتى، دون أن ينظر وراءه.

VI

كان قبو الحظيرة بارداً وشديد الرطوبة ويعبق برائحة بيوت العناكب ومياه الأرض. كانت الشمس تُنيره بأشعة مليئة بالغبار من نوافذ ضيقة، لكن حرارة النهار بقيت في الخارج. ترك الفتى الصقر هنا وبدا الطير مرتاحاً جداً.

لم يعد دايفد يصطاد في الجو. لقد فقَدَ ريشه لمعانه منذ ثلاث سنوات، لكن عينيه كانتا لا تزالان ثاقبتين وساكنتين مثل الماضي. قالوا إن المرء لا يمكنه أن يصادق صقراً، إلا إذا كان نصف صقر بنفسه، ووحيداً ومجرد رحّال في الأرض، ليس لديه أصدقاء ولا يحتاج إليهم. لا يدفع الصقر ثمن الحب أو الأخلاقيات.

أصبح دايفد صقراً هرِماً الآن. وكان الفتى يأمل لو أنه هو نفسه كان يافعاً.

ناداه بلطف ومدَّ ذراعه ليجثم عليها.

ربضَ الصقر على ذراع الفتى ووَقَف ساكناً، بلا غطاء لعينيه. مدَّ الفتى يده الأخرى إلى جيبه وأخرَج بعض اللحم المقدَّد. نهشها الصقر بمهارة من بين أصابعه واختفت في حلقه.

بدأ الفتى يملّس دايفد بعناية شديدة. لن يصدِّق كورت ذلك على الأرجح لو رآه، لكن كورت لم يصدِّق أيضاً أن وقت الفتى قد حان.

"أعتقد أنك تموت اليوم"، قال وهو يواصل تمليسه. "أعتقد أنك ستصبح ضحية، مثل كل تلك الطيور الصغيرة التي درَّبناك عليها. هل تتذكر؟ لا؟ لا يهمّ. أنا الصقر من الآن وصاعداً، وفي مثل هذا اليوم

كل سنة سأطلق النار في الجو تخليداً لذكراك".

وَقَف دايفد على ذراعه، صامتاً وهادئاً، وغير مكترث لحياته أو موته.

"أنت هرِم"، قال الفتى بتفكير عميق. "وربما لستَ صديقي. حتى منذ سنة كنتَ لتلتهم عينيَّ بدلاً من قطعة اللحم الصغيرة هذه، أليس كذلك؟ كورت سيضحك. لكن إذا اقتربنا جداً... اقتربنا جداً من ذلك الرجل الحذِر... إذا لم يشكّ بشيء... ماذا ستختار يا دايفد؟ العمر أم الصداقة؟".

مكتبة

لم يُجب دايفد.

غطّى له الفتى عينيه وأمسك قيود رجلَيه، التي كانت ملفوفة حول طرف مجثَم دايفد. غادرا الحظيرة.

VII

لم يكن الفناء خلف القاعة الكبرى فناءً حقاً، بل مجرد رواق أخضر جدرانه عبارة عن سياجات نباتية كثيفة ومتشابكة. كان يُستخدَم لطقوس بلوغ سن الرشد منذ قديم الزمان، قبل فترة طويلة من ولادة كورت وسلفه، مارك، الذي توفى من طعنة يد متحمِّسة جداً في هذا المكان. لقد غادر العديد من الفتيان الرواقَ من الطرف الشرقي، حيث يدخل الأستاذ دائماً، رجالاً. كان الطرف الشرقي يطلّ على القاعة الكبرى وكل حضارات وروائع العالم المضاء. وخرج الكثيرون خفيةً، مهزومين وملطّخين بالدم، من الطرف الغربي، حيث يدخل الفتيان دائماً، فتياناً إلى الأبد. كان الطرف الغربي يطلّ على المزارع

وسكان الأكواخ الموجودة بعد المزارع؛ وأبعد من ذلك، الغابات البربرية المتشابكة؛ وأبعد من ذلك، غارلان؛ وأبعد من غارلان، صحراء موهاين. الفتى الذي يصبح رجلاً يتقدَّم من العتمة والجهل إلى النور والمسؤولية. والفتى الذي يُهزَم لا يستطيع سوى الانسحاب، إلى الأبد. كان الرواق ناعماً وأخضر مثل ميدان الألعاب. كان طوله خمسة وأربعين متراً بالضبط. وفي وسطه رقعة أرض مجزوزة كلياً. هذا كان الخط.

كان كل طرف يضيق عادة بالمتفرِّجين والأنسباء المتوتّرين، لأن الشعائر كانت عادة دلالةً ذات دقة كبيرة - ثمانية عشر كان السنّ الأكثر شيوعاً (والذين لا يخضعون للاختبار قبل سنّ الخامسة والعشرين يذوبون في غياهب النسيان عادة بصفتهم مالكين أحرار، غير قادرين على مواجهة حقيقة الميدان والاختبار الوحشية "كل شيء أو لا شيء"). لكن في ذلك اليوم لم يكن هناك سوى جايمي ديكاري وكَثبرت أولغُود وآلان جونز وتوماس ويتمان. تجمّعوا عند طرف الفتى، فاغري الأفواه ومرتعبين بصراحة.

"سلاحك أيها الغبي!"، هسهَس كَثبرت بانزعاج شديد. "نسيت سلاحك!".

"إنه معي"، قال الفتى. وتساءل بشكل خافت إن كان خبر هذا الجنون قد وصل إلى الأبنية المركزية، إلى أمه - وإلى مارتن. كان والده في رحلة صيد، ولن يعود قبل عدة أيام. شعَر ببعض الخجل من هذا، لأنه شعَر أنه كان سيجد بعض التفهّم لدى والده، إن لم يكن موافقة. "هل أتى كورت؟".

"كورت هنا". جاء الصوت من الطرف البعيد للرواق، وظهر

كورت مرتدياً قميصاً قصيراً بلا أكمام، وطوقاً جلدياً ثقيلاً حول جبهته لإبقاء العرق بعيداً عن عينيه. كان يرتدي حزاماً وسخاً لإبقاء ظهره مستقيماً، ويُمسك بأحدى يديه عصا من الخشب الحديدي، حادة عند أحد طرفيها، وكليلة بشدة وملوّقية الشكل عند الطرف الآخر. بدأ الابتهالات التي كانوا كلهم، المُختارون بسبب صلة الدم العمياء من آبائهم رجوعاً حتى إلد، يعرفونها منذ طفولتهم المُبكرة، والتي تعلَّموها لليوم الذي يصبحون فيه، ربما، رجالاً.

"هل أتيت إلى هنا لهدف جدّي يا فتى؟".

"لقد أتيتُ لهدف جدّي".

"هل أتيت كمنبوذ من منزل أبيك؟".

"لقد أتيتُ هكذا". وسيبقى منبوذاً إلى أن يتفوّق على كورت. وإذا تفوَّق كورت عليه، سيبقى منبوذاً إلى الأبد.

"هل أتيت مع السلاح الذي اخترته؟".

"أجل".

"ما هو سلاحك؟". كانت هذه أفضلية الأستاذ، فرصته ليعدِّل خطته للمعركة إلى المقلاع أو الرمح أو القوس والنشّاب.

"سلاحي هو دايفد".

صمت كورت لبرهة. كان متفاجئاً، ومرتبكاً على الأرجح. كان هذا جيداً.

قد يكون جيداً.

"إذاً تريد مواجهتي يا فتى؟".

"أجل".

"بإسم مَن؟".

"بإسم أبي".

"قل إسمه".

"ستيفن ديشاين، من سلالة إلد".

"كن سريعاً إذاً".

وتقدَّم كورت إلى الرواق، ناقلاً عصاه من يد إلى الأخرى. تنهَّد الفتيان بارتعاد، مثل طيور، بينما تقدَّم قائدهم الصغير ليواجهه.

سلاحي هو دايفد يا أستاذ.

هل فهم كورت؟ وفي تلك الحالة، هل فهم بالكامل؟ إذا كان قد فهم بالكامل، فمن المرجّح جداً أن يكون كل شيء قد ضاع. هل سيبقى الصقر جالساً، غير مبالٍ وغبي، على ذراع الفتى، بينما كورت يضربه بالعصا؟ أم هل سيهرب عالياً في السماء الحارة؟

عندما اقتربا من بعضهما، وكل واحد منهما لا يزال عند جهته من الخط في الوقت الحاضر، أرخى الفتى غطاء عيني الصقر بأصابع واهنة. سقط على العشب الأخضر، ووقف كورت في مكانه. رأى عيني المُحارب القديم تنخفضان إلى الطير وتتّسعان بالمفاجأة والفهم البطيء الجليّ. لقد فهِم *الآن*.

"آه، أيها المغفَّل الصغير"، كاد كورت يتذمّر، وشعر رولاند بالغضب فجأة أنه تكلَّم معه بهذه الطريقة.

"عليه!"، صرخ رافعاً ذراعه في الهواء.

وطار دايفد مثل رصاصة بنّية صامتة، مرفرفاً جناحيه القصيرين البدينين مرةً، مرتين، ثلاث مرات، قبل أن ينقضّ بمخالبه ومنقاره على وجه كورت. تطايرت قطرات حمراء في الهواء الحار.

"يا رولاند!"، صَرَخ كَثبرت بانفعال شديد. "الدم الأول! الدم الأول على صدري!". وضرب صدره بقوة كافية لترك رضّة هناك لن تزول قبل أسبوع.

ترنّح كورت إلى الوراء وكاد يفقد توازنه. ارتفعت العصا وراحت تضرب عبثاً في الهواء حول رأسه. كان الصقر حزمة متموّجة ضبابية من الريش.

في غضون ذلك، تقدَّم الفتى إلى الأمام، مادّاً يده على شكل وتد مستقيم، مثبّتاً مِرفقه في مكانه. كانت هذه فرصته، والوحيدة على الأرجح.

ومع ذلك فقد كان كورت سريعاً جداً بالنسبة له. كان الطير قد غطى تسعين بالمئة من بصره، لكن العصا ارتفعت في الهواء مرة أخرى، الطرف المِلوَقي الشكل في الأعلى، ونفَّذ كورت بدم بارد الحركة الوحيدة التي يمكنها قلب الأحداث في تلك النقطة. فقد ضرب وجهه بلا رحمة ثلاث مرات.

سقط دايفد أرضاً، محطماً ومفتولاً. وراح أحد جناحيه يرفرف بشكل مضطرب على الأرض. حدَّقت عينا المفترس الباردتان بشراسة بوجه الأستاذ المدمّى. كانت عين كورت المعطوبة ناتئة من محجرها.

سدَّد الفتى ضربة قوية على صدغ كورت. كان يجب أن تُنهي كل شيء، لكنها لم تفعل ذلك. ترنّح وجه كورت للحظة؛ ثم اندفع إلى

الأمام مُمسكاً قدم الفتى.

رجع الفتى إلى الوراء وتعثَّرت قدماه وسقط منبطحاً. سمِع، من بعيد، صوت جايمي يصرخ مرتعباً.

كان كورت جاهزاً لينقضّ عليه ويُنهي المسألة. لقد فقَدَ رولاند أفضليته وكان كلاهما يعرف ذلك. نظرا إلى بعضهما البعض للحظة، الأستاذ واقفاً فوق التلميذ والدم يسيل من الجهة اليسرى لوجهه، والعين المعطوبة مُغلقة الآن ما عدا من شق رفيع من البياض. لن يكون هناك سهر لكورت هذه الليلة.

شيء تمزَّق بقوة في يد الفتى. كان دايفد، بجناحيه المكسورين، يمزِّق أي شيء يمكنه أن يصل إليه. كان لا يُصدَّق أنه لا يزال حيّاً.

أمسَكه الفتى مثل حجرة، غير مكترث لطعنات المنقار الذي كان ينزع اللحم عن معصمه. بينما كان كورت ينقضّ عليه، بكامل قوته، رمى الفتى الصقر إلى أعلى.

"دايفد! اقتل!".

ثم حجبَ كورت الشمس عنه وسقط عليه.

VIII

سُحق الطير بينهما، وشَعَر الفتى بإبهام عليه مسامير لحم يبحث عن محجر عينه. أدار وجهه، رافعاً فخذه في الوقت نفسه ليصدّ ركبة كورت التي كانت تسعى لتضربه بين منفرج ساقيه. وضرب بيده عنق كورت ثلاث ضربات قوية. كان الأمر أشبه بضرب حجر مضلَّع.

ثم نخر كورت نخراً ثقيلاً. وارتجف جسده. رأى الفتى بشكل باهت يداً تبحث عن العصا المرمية، وبانحناءة مثل الاندفاعة للطعن بمُدية جيب، ركَلَها بعيداً. كان أحد مخالب دايفد قد علق بأذن كورت اليمنى. ومخلب آخر يهاجم خد الأستاذ بلا رحمة، محوّلاً إياه إلى أنقاض. ملأ دمٌ دافئٌ وجه الفتى، تشبه رائحته رائحة نحاس مجزوز.

ضرب كورت الطير بقبضته، كاسراً له ظهره. ثم ضربه مرة أخرى، مهشّماً العنق عند زاوية معقوفة. وبقي المخلب متشبّثاً بالأذن. لم تعد هناك أذن الآن؛ فقط فجوة حمراء تؤدي إلى نفق في جمجمة كورت. الضربة الثالثة رمت الطير بعيداً، فتحرَّر وجه كورت أخيراً.

في تلك اللحظة، وجَّه الفتى طرف يده نحو أنف أستاذه، مستخدماً كل قوته ومحطماً العظمة الرفيعة. تطاير الدم.

مدَّ كورت يده الضريرة إلى ردفَي الفتى، محاولاً أن يخلع له سرواله بقصد إعاقة حركته. تدحرَج رولاند بعيداً، وعثر على عصا كورت، ونهض على رُكبتيه.

سقط كورت على رُكبتيه، مكشِّراً. كانت وضعية لا تُصدَّق، فقد جعلتهما يتواجهان وجهاً لوجه على طرفَي الخط، رغم أنهما كانا قد تبادلا المواضع وكان كورت قد أصبح الآن على الجهة التي بدأ منها رولاند الصراع. كان وجه المُحارب القديم محجوباً بالدم. والعين الوحيدة التي ترى تدحرَجت بشراسة في محجرها. كان الأنف مسحوقاً عند زاوية مائلة بقوة. والخدّان متدلّيان.

أمسَك الفتى عصا الرجل مثل لاعب ينتظر أن يُقذَف نحوه الطير المصنوع من جلد غير مدبوغ.

موَّه كورت، ثم هجم عليه مباشرة.

كان رولاند مستعداً، ولم ينخدع بتاتاً بهذه الخدعة الأخيرة، التي كان كلاهما يعلم أنها خدعة سيئة. لوَّح العصا في قوس مسطَّح، وضرب جمجمة كورت مُحدثاً صوت لطمة مكتومة. سقط كورت على جنبه، ونظر إلى الفتى بتعبير ضرير كسول. سال بعض اللعاب من فمه.

"استسلم أو مُت"، قال الفتى بفم جاف.

وابتسم كورت. كان كل وعيه قد زال، وسيبقى بحاجة إلى رعاية في كوخه لمدة أسبوع بعد ذلك، غارقاً في ظلمة الغيبوبة، لكنه بقي صامداً الآن بكل قوة حياته العديمة الرحمة. رأى الحاجة إلى اللغو في عينَي الفتى، وحتى مع وجود ستارة من الدم بينهما، فهِم أنها كانت حاجة يائسة.

"أستسلم أيها المسلَّح. أستسلم مبتسماً. لقد تذكّرتَ وجه أبيك في هذا اليوم ووجوه كل الذين أتوا قبله. لقد صنعتَ عجباً!".

انغلقت عين كورت السليمة.

هزّه المسلَّح بلطف، لكن بإصرار. كان الآخرون حوله الآن، وأيديهم ترتعش وهم يربّتون على ظهره ويرفعونه إلى مستوى أكتافهم؛ لكنهم تراجعوا خائفين، بعد أن أحسّوا بهاوية جديدة. لكن هذه لم تكن غريبة مثلما كان يمكن أن تكون، لأنه لطالما كانت هناك هاوية بين هذا والباقين.

فُتحت عين كورت مرة أخرى.

"المفتاح"، قال المسلَّح. "حق بكوريتي أيها الأستاذ. أحتاج إليه".

كان حق البكورية هو مسدساته، وليس مسدسات والده الثقيلة - المُثقَلة بخشب الصندل - لكنها ومع ذلك كانت مسدسات. ممنوعة على الكل ما عدا قلّة. في القنطرة الضخمة تحت الثكنات التي يُلزمه القانون القديم أن يتقيّد بها الآن، بعيداً عن صدر أمه، علَّق أسلحته كمتدرِّب، مواسير مسدسات ثقيلة مُرهِقة من الفولاذ والنيكل. لكنهم رأوا والده من خلال تدرّبه، ووالده يحكم الآن - بالإسم على الأقل.

"هل حاجتك مخيفة إلى هذا الحد، إذاً؟"، تمتم كورت، كما لو أنه يغط في نومه. "ضاغطة إلى هذا الحد؟ آخ، أخشى ذلك. كان يجب على هكذا حاجة كبيرة أن تجعلك غبياً. ومع ذلك فقد فزتَ".

"المفتاح".

"كان الصقر حيلة ممتازة. سلاح ممتاز. كم من الوقت احتجتَ لكي تدرِّب هذا الوغد؟".

"لم أدرِّب دايفد أبداً. بل صادَقتُه. المفتاح".

"تحت حزامي أيها المسلَّح". وانغلقت العين مرة أخرى.

مدَّ المسلَّح يده تحت حزام كورت، وتلمّس الضغط الثقيل لبطن الرجل، والعضلات الضخمة الراكدة والنائمة الآن. كان المفتاح على حلقة نحاسية. أمسكه بيده، وضغط على نفسه لكي يكبح الرغبة الكبيرة برميه في الهواء تعبيراً عن فرحة انتصاره.

وقف على قدميه وبدأ أخيراً يستدير نحو الآخرين عندما تلمّست يد كورت قدمه. خشي المسلَّح للحظة من هجوم أخير وتشنّج، لكن كورت اكتفى برفع نظره إليه وأومأ له بإصبعٍ قاسٍ.

"سأنام الآن"، همَس كورت بهدوء. "سأسير المسار. ربما كامل مسافته حتى الفسحة الخالية في نهايته، لا أعرف. لن أعلّمك بعد اليوم أيها المسلَّح. لقد تفوَّقت عليَّ، وسنتين أصغر من أبيك، الذي كان الأصغر سناً. لكن دعني أقدِّم لك نصيحة".

"ما هي؟"، قال بفارغ الصبر.

"انزع هذه النظرة عن وجهك، أيها التافه".

لدهشته، فعلَ رولاند ما طلبه منه بالضبط (رغم أنه لم يتمكن من معرفة ذلك، بما أنه كان يربض مخفياً خلف وجهه مثلنا جميعاً).

أومأ كورت برأسه، ثم همَس كلمة واحدة. "انتظر".

"ماذا؟".

الجهد الذي احتاج إليه الرجل لينطق كلماته أعطتها أهمية كبيرة. "دع الخبر والأسطورة يسيران أمامك ويصلان قبلك. هناك مَن سيحمل الاثنين معاً". انتقلت عيناه إلى ما بعد كتف المسلَّح. "مغفَّلون، ربما. دع ظلّك يرخي الشعر على وجهه. دعه يصبح داكناً". وابتسم بطريقة منفِّرة. "إذا أُعطيت الوقت، فإن الأخبار قد تشعوذ حتى المشعوذ. هل تفهم قصدي أيها المسلَّح؟".

"نعم. أظن ذلك".

"هل ستأخذ نصيحتي الأخيرة كدرس لك؟".

ترنَّح المسلَّح على كعبَيه مقرفصاً أمام الرجل. نَظَر إلى السماء. كانت تُظلِم وتصبح أرجوانية. وحرارة اليوم تنخفض وطلائع الرعد في الغرب تبشِّر بالمطر. والبرق يطعن الخاصرة الهادئة للتلال السفحيّة

الصاعدة البعيدة عدة كيلومترات. وأبعد من ذلك، الجبال. وأبعد من ذلك، النوافير الصاعدة للدم والجهالة. كان مُتعَباً إلى أقصى الحدود.

اِلتفَت إلى الوراء نحو كورت. "سأدفن صقري هذه الليلة يا أستاذ. وسأذهب لاحقاً إلى البلدة السفلى لأُخبر مَن في أماكن السهر اللواتي قد يتساءلن عن غيابك. وربما سأواسي واحدة أو اثنتين منهن".

تباعدت شفتا كورت في ابتسامة متألمة. ثم نام.

وقف المسلَّح على قدميه واستدار نحو الآخرين. "اصنعوا حمّالة إسعاف وخذوه إلى منزله. ثم أحضِروا ممرضة. لا، ممرضتان. مفهوم؟".

استمرّوا يراقبونه، مسمّرين في حالة جمود لا أحد منهم يستطيع كسرها فوراً. كانوا لا يزالون ينتظرون هالةً من نار، أو تغييراً عجيباً في الملامح.

"ممرضتان"، كرَّر المسلَّح، ثم ابتسم. فابتسموا له بدورهم. بعصبية.

"يا لك من راعي أحصنة لعين!"، صاح كَثبرت فجأة، مكشِّراً. "لم تترك لنا ما يكفي من لحم لسلخ العظام!".

"لن يستمرّ العالم غداً"، قال المسلَّح، مقتبساً المثل القديم بابتسامة. "آلان، أيها المغرِّد! تحرّك".

فشرع آلان في صنع حمّالة الإسعاف؛ وذهَب توماس وجايمي معاً إلى القاعة الرئيسية والمشفى.

راح المسلَّح وكَثبرت ينظران إلى بعضهما البعض. كانا دائماً الأقرب – أو قريبَين قدر الإمكان تحت الطيف الخاص لشخصيتيهما. كان هناك ضوء مفتوح تخمينيّ في عينَي بيرت، وتمكَّن المسلَّح أن

يتحكَّم فقط وبصعوبة كبيرة بالحاجة لإخباره بعدم الدعوة إلى الاختبار قبل سنة أو حتى ثمانية عشر شهراً، مخافة أن يذهب غرباً. لكنهما كانا قد مرّا بمحنة كبيرة سويةً، ولم يشعر المسلَّح أنه يستطيع أن يخاطر بقوله شيئاً كهذا من دون أن يظهر تعبير على وجهه قد يُفسَّر كغطرسة. *لقد بدأتُ أخطط*، فكّر في سرّه، وكان مرتعِباً قليلاً. ثم تذكّر مارتن، وأمه، وابتسم ابتسامة مخادعٍ لصديقه.

سأكون الأول، فكّر في سرّه، مُدركاً ذلك لأول مرة، رغم أنه فكّر بالأمر مرات عديدة قبل الآن. *أنا الأول*.

"هيا نذهب"، قال.

"بكل سرور أيها المسلَّح".

خرجا من الطرف الشرقي للرواق الذي يحدّه السياج النباتي؛ وكان توماس وجايمي عائدين مع الممرضتين. بدتا كشبحين في ردائيهما الصيفيين الأبيضين والرقيقين كالشاش، المخطّط بالأحمر عند الصدر.

"هل أساعدك بالصقر؟"، سأل كَثبرت.

"نعم"، قال المسلَّح. "هذا سيكون جميلاً يا بيرت".

ولاحقاً، عندما حلّت العتمة ومعها الأمطار الرعدية المندفعة؛ بينما تدحرَجت غيوم ضخمة شبحية في السماء والبرق غسَل شوارع البلدة السفلية الملتوية بنار زرقاء؛ وبينما وقفت الأحصنة عند قضبان الربط حانيةً رؤوسها ومهدِّلة أذيالها، أخذ المسلَّح امرأةً وأقام علاقة حميمة معها.

كان الأمر سريعاً وجيداً. وعندما انتهيا وبقيا ممدَّدين جنباً إلى جنب من دون أن ينطقا بأي كلمة، بدأت تُمطر بضراوة. في الأسفل

ومن بعيد، كان هناك شخص يعزف لحن "مهلاً جُود". انغلق ذهن المسلَّح على نفسه. وكان في لحظة الصمت تلك المدوّية بالبَرَد، وقبل أن يغلبه النعاس، أدرك لأول مرة أنه قد يكون الأخير أيضاً.

IX

لم يُخبر المسلَّح الفتى بكل ذلك، لكن ربما معظمه توضَّح على أي حال. كان قد أدرك من قبل أن هذا الفتى فَطِن جداً، ولا يختلف كثيراً عن آلان، الذي كان قوياً في نصف التعاطف ونصف التخاطر الذي يسمّونه اللمسة.

"هل أنت نائم؟"، سأل المسلَّح.

"لا".

"هل فهمت ما أخبرتك إياه؟".

"هل فهمتُه؟"، سأل الفتى بازدراء مدهش. "هل فهمتُه؟ هل تمزح معي؟".

"لا". لكن المسلَّح شَعَر بالحاجة إلى اتخاذ موقف دفاعي. فهو لم يُخبر أي شخص أبداً عن بلوغه سن الرشد من قبل، لأن شعوره كان متناقضاً حول هذه المسألة. بالطبع أن الصقر كان سلاحاً مقبولاً تماماً، لكنه كان خدعةً أيضاً. وخيانةً. الأولى بين خيانات عديدة. *وأخبرني – هل أنا أتحضّر حقاً لرمي هذا الفتى إلى الرجل ذي الرداء الأسود؟*

"لقد فهمتُه، حسناً"، قال الفتى. "كانت لعبة، أليس كذلك؟ هل يجب على الرجال البالغين لعب ألعاب دائماً؟ هل يجب أن يكون كل

شيء عذراً لنوع آخر من الألعاب؟ هل ينضج الرجال أم فقط يبلغون سن الرشد؟".

"أنت لا تعرف كل شيء"، قال المسلَّح محاولاً كبح غضبه البطيء. "أنت مجرد فتى".

"بالتأكيد. لكنني أعرف ما أنا بالنسبة لك".

"وما هو؟"، سأل المسلَّح بحزم.

"ورقة لعب".

شَعَر المسلَّح برغبة بإيجاد صخرة وضرب الفتى بها. لكنه تكلَّم بهدوء بدلاً من ذلك.

"نَم. فالأولاد يحتاجون إلى النوم".

وسمِع صدى صوت مارتن في ذهنه: *اذهب واعثر على يدك*.

جلَس بتثاقل في العتمة، مذهولاً ومرتعباً (لأول مرة في حياته) من الاشمئزاز من الذات الذي قد يأتي بعد ذلك.

X

خلال فترة الاستيقاظ التالية، اقتربت السكة الحديدية أكثر إلى النهر تحت الأرض، والتقيا بالمتحوِّلين البطيئين.

رأى جايك أول واحد وصَرَخ بصوتٍ عالٍ.

استدار رأس المسلَّح، الذي كان مثبّتاً بشكل مستقيم إلى الأمام بينما يسيِّر عربة اليد، إلى اليمين. كانت هناك قرعة مضيئة عَفِنة

خضراء تحتهما، تنبض بشكل باهت. انتبه للرائحة لأول مرة – الخفيفة البغيضة الرطبة.

كان الأخضر وجهاً – ما يمكن تسميته وجهاً بأحد الانحناءات الخيرية. كانت هناك عينان فوق الأنف المسطَّح تشبهان عيني الحشرة، تحدّقان فيهما بشكلٍ خالٍ من أي تعبير. شَعَر المسلَّح بانقباض في أمعائه. فزاد إيقاع ذراعيه على مقبض عربة اليد قليلاً.

بَهُت الوجه المتوهج.

"ما كان ذلك *الشيء اللعين*؟"، سأل الفتى وهو يزحف نحوه. "ماذا–". وعلقت الكلمات في حلقه عندما مرّا بمجموعة من ثلاثة أشكال متوهجة بشكل خافت، تقف بين السكة الحديدية والنهر غير المرئي، تراقبهما بلا أي حركة.

"إنهم متحوِّلون بطيئون"، قال المسلَّح. "لا أظن أنهم سيزعجوننا. إنهم على الأرجح خائفون منا تماماً مثلما نحن خائفان منهم–".

تحرَّك أحد الأشكال ومشى متثاقلاً نحوهما. كان وجهه وجه أحمق يتضوَّر جوعاً. كان الجسد العاري الضعيف قد تحوَّل إلى خليط فوضوي من أطراف مجسيّة وأعضاء ماصّة.

صَرَخ الفتى مرة أخرى وحشر نفسه برِجل المسلَّح مثل كلب خائف.

امتدّت إحدى الأذرع المجسّة إلى المنصة المسطَّحة لعربة اليد. كانت تعبق برائحة الرطوبة والعتمة. أفلت المسلَّح المقبض وشهر مسدسه. أطلق رصاصة على جبهة الأحمق المتضوِّر جوعاً. فسقط، وتضاءل توهّجه الناري الباهت، مثل كسوف القمر. بقي وميض

المسدس يسطع على شبكية عينيهما الداكنة، وتضاءل على مضض. كانت رائحة البارود حارّة وهمجية وغريبة في هذا المكان المدفون.

كان هناك آخرون، المزيد منهم. لم يتحرّك أي واحد منهم نحوهما علانيةً، لكنهم كانوا يُطبقون على السكة الحديدية. مجموعة صامتة بشعة من المتسكّعين.

"قد تضطر إلى تسيير العربة بدلاً مني"، قال المسلَّح. "هل أنت قادر على ذلك".

"نعم".

"استعدّ إذاً".

وَقَف الفتى متأهباً قربه. راحت عيناه تركّزان على المتحوِّلين البطيئين الذين يمرّون بهما فقط، وليس على الذين يعبرون، فلا تريا أكثر مما عليهما أن تريا. أقام الفتى دفاعات نفسية ضد الرعب، كما لو أن هويته بذاتها ارتشَحت عبر مسامه بطريقة أو بأخرى لتشكِّل درعاً له.

واصل المسلَّح تسيير العربة لكنه لم يزد سرعتها. كان يعرف أنه باستطاعة المتحوِّلين البطيئين شمّ رائحة خوفهما، لكنه شكَّ إن كان الخوف لوحده سيكون كافياً ليحرِّضهم. ففي النهاية، كان والفتى من مخلوقات النور. *لا شك أنهم يكرهوننا كثيراً*، فكّر في سرّه، وتساءل إن كانوا قد كرهوا الرجل ذا الرداء الأسود بنفس الطريقة. لم يعتقد ذلك، أو ربما كان قد مرّ بينهم كظل جناح مُظلم في هذا الظلام الكبير.

أحدث الفتى حشرجة في حنجرته وأدار المسلَّح رأسه بشكل عفوي تقريباً. كان أربعة منهم يهاجمون عربة اليد باضطراب – وأحدهم يبحث عن شيء ليتمسّك به.

أفلت المسلَّح المقبض وشهر مسدسه مرة أخرى، بنفس الحركة المسترخية الاعتيادية. أطلق النار على رأس أقرب متحوِّل، فأصدر هذا الأخير شهقة تنهّد وبدأ يبتسم. كانت يداه مرتخيتين وتشبهان السمكة، ميتة؛ وأصابعه متشققة مثل أصابع قفاز بقي مغموراً في وحل جاف لمدة طويلة. وجدت إحدى تلك اليدين اللتين تشبهان يدَي الجثة قدم الفتى وبدأت تسحبها.

زعَق الفتى بصوتٍ عالٍ في ذلك الرحم الغرانيتيّ.

أطلق المسلَّح النار على صدر المتحوِّل. فبدأ لعابه يسيل عبر الابتسامة. كان جايك ينحرف عن طرف المنصة. فأمسك المسلَّح إحدى ذراعيه وكاد يفقد توازنه هو أيضاً. كان المتحوِّل قوياً بشكل مدهش. فوضع المسلَّح رصاصة أخرى في رأسه. انطفأت إحدى العينين مثل شمعة. لكنه بقي يسحَب. انخرطا في عملية شدّ صامتة لجسد جايك المرتعش المتلوّي. كان المتحوِّلون البطيئون يجذبونه بقوة كما لو أنه عظمة ترقوة. لا شك أن نيّتهم كانت أكله.

كانت عربة اليد تُبطئ. بدأ الآخرون يقتربون – الكسيح والأعرج والأعمى. ربما كانوا ينتظرون أعجوبة تشفيهم، تنتشلهم من الظلمات.

إنها النهاية بالنسبة للفتى، فكّر المسلَّح في سرّه ببرودة مثالية. *هذه هي النهاية التي تقصّدها. يُفلته ويسيِّر العربة أو يتمسّك به ويُدفَن. إنها النهاية بالنسبة للفتى.*

شدَّ ذراع الفتى بقوة كبيرة وأطلق النار على بطن المتحوِّل. اشتدّت قبضة المتحوِّل البطيء للحظة وبدأ جايك ينزلق عن الحافة مرة أخرى. ثم ارتخت قبضته وسقط على وجهه خلف عربة اليد المتباطئة، وكان لا

يزال يبتسم.

"ظننتُ أنك ستتركني"، كان الفتى يشهق. "ظننتُ... ظننتُ...".

"تمسّك بحزامي"، قال المسلَّح. "تمسّك به بكل قوتك".

امتدّت اليد إلى حزامه وتشبّثت هناك؛ كان الفتى يتنفس في لهاث متشنّج صامت.

بدأ المسلَّح يضغط مقبض عربة اليد بثبات مرة أخرى، وازدادت سرعتها. ابتعدا عن المتحوِّلين البطيئين الذين راحوا يراقبوهما بوجوه بالكاد بشرية (أو مثيرة للشفقة)، وجوه ولَّدت الفسفرة الضعيفة المشتركة بين تلك الأسماك الغريبة التي تعيش تحت ضغط أسود هائل في أعماق البحر، وجوه لا تُظهر غضباً أو كرهاً بل فقط ما بدا ندماً أحمق شبه فاقد الوعي.

"حجمهم يصغُر"، قال المسلَّح. استرخت عضلات بطنه السفلى المتوترة قليلاً. "حجمهم-".

كان المتحوِّلون البطيئون قد وضعوا صخوراً على السكة، فسدّوا الطريق. كان عملهم سريعاً وسيئاً، وربما يستلزم دقيقة واحدة فقط لفتح الطريق، لكن ذلك أوقف سيرهما. يجب على أحدهما النزول وإزالتها. راح الفتى يئنّ واقترب من المسلَّح مرتجفاً. أفلت المسلَّح المقبض وسارت عربة اليد بصمت إلى الصخور، حيث ارتطمت بها وتوقفت.

بدأ المتحوِّلون البطيئون يقتربون منهما مرة أخرى، كما لو أنهم يمرّون بشكل عفوي، تائهين في حلم مُظلم، ووجدوا شخصاً ليسألوه عن الاتجاهات.

"هل سيقبضون علينا؟"، سأل الفتى بهدوء.

"أبداً. إلزم الصمت قليلاً".

نَظَر إلى الصخور. كان المتحوِّلون ضعفاء، بالطبع، ولم يتمكنوا من جرّ أي صخرة كبيرة ليسدّوا عليهما طريقهما. فقط صخور صغيرة. ما يكفي فقط لإيقافهما، لكي يتمكّن أحدهم-

"انزل"، قال المسلَّح. "عليك إبعادها. سأغطيك".

"لا"، همَس الفتى. "رجاءً".

"لا يمكنني أن أعطيك مسدساً ولا يمكنني إبعاد الصخور وإطلاق النار في آن واحد. عليك النزول".

تدحرَجت عينا جايك بشكل رهيب؛ وارتجف جسده للحظة في تناغم مع أفكاره، ثم تلوَّى فوق حافة العربة وبدأ يرمي الصخور يميناً ويساراً، ويعمل بسرعة جنونية، دون أن يرفع نظره.

شهر المسلَّح مسدسيه وانتظَر.

أطبَقَ اثنان منهما، كانا يتمايلان بدلاً من أن يسيرا، على الفتى بأذرع مثل العجينة. وفعلَ المسدسان فعلتهما، فأضاءا العتمة برماح أضواء حمراء وبيضاء دفعت إبراً من الألم في عينَي المسلَّح. صَرَخ الفتى وتابَع يُبعد الصخور على الجهتين. وراح التوهّج يتراقص في عينيه. أصبحت الرؤية صعبة الآن، وهذا كان أسوأ شيء. كل شيء أصبح مُظلماً وتواصَلَ انطباع صورته في العينين.

أمسك أحدهما، وكان بالكاد يتوهج، الفتى فجأة بذراعين مطاطيتين. وتدحرَجت عيناه اللتان تحتلاّن نصف رأسه بشكل واهن.

صَرَخ جايك مرة أخرى واستدار ليقاومه.

أطلق المسلَّح النار من دون أن يسمح لنفسه بالتفكير قبل أن يتمكن بصره المرقَّط من خيانة يديه وجعلهما ترتجفان؛ كان الرأسان يبعدان عن بعضهما البعض بضع سنتيمترات فقط. المتحوِّل هو الذي سقط أرضاً.

رمى جايك الصخور بعنف. كان المتحوِّلون قد تجمهَروا خارج الخط غير المرئي لمحيطهما، ويقتربون رويداً رويداً، وأصبحوا قريبين جداً الآن. ولحق بهم آخرون، وراحت أعدادهم تتزايد.

"حسناً"، قال المسلَّح. "اصعد. بسرعة".

عندما تحرّك الفتى، انقضّ عليهما المتحوِّلون. كان جايك قد صعد إلى العربة ويحاول الوقوف على رجليه؛ وبدأ المسلَّح تسيير العربة مرة أخرى، بكل قوته. كان المسدسان قد عادا إلى قِرابيهما الآن. عليهما أن يهربا. كانت هذه فرصتهما الوحيدة.

ضربت يدان غريبتان السطح المعدني للعربة. كان الفتى يُمسك حزامه بيديه الاثنتين الآن، ووجهه مضغوطاً بقوة في الجزء الضيّق من ظهر المسلَّح.

ركَضت مجموعة منهم على السكة، وقد ارتسم على وجوههم ذلك التوقّع الغبي الاعتيادي. كان دم المسلَّح ممتلئاً بالأدرينالين؛ والعربة تطير على السكة في العتمة. صدموا الهياكل الأربعة أو الخمسة المثيرة للشفقة بقوة كاملة. فطارت مثل موز عَفِن ضُرب من الساق.

سارا بدون انقطاع، في الظُلمة الصامتة المشؤومة.

بعد مدة طويلة، رفع الفتى وجهه في الريح، مرعوباً لكن راغباً في أن يعرف. كان وميض المسدسين لا يزال منطبعاً على شبكيتَي عينيه.

لم يكن هناك شيء ليراه سوى العتمة ولا شيء يسمعه سوى لعلعة النهر.

"لقد اختفوا"، قال الفتى، وشعرَ فجأة بخوف من أن تنتهي السكة الحديدية في العتمة، ويسقطا عنها ويندفعا نحو ركام مفتول. كان قد ركب سيارات؛ وفي إحدى المرات قاد والده الجدّي بسرعة مئة وخمسين كيلومتراً في الساعة على طريق نيوجرسي وأوقفه شرطيٌ تجاهَل ورقة العشرين دولاراً التي قدَّمها له إلمر تشامبرز مع رخصة قيادته وسطَّر له مخالفة سير على أي حال. لكنه لم يركب هكذا أبداً في حياته، حيث الرياح والظُلمة والرعب خلفه وأمامه، وصوت النهر يشبه ضحكات خافتة – صوت الرجل ذي الرداء الأسود. كانت ذراعا المسلَّح أشبه بمكابس في مَصنع بشري مجنون.

"لقد اختفوا"، قال الفتى بخجل، ومزَّقت الريح الكلمات في فمه. "يمكنك الإبطاء الآن. لقد أصبحوا وراءنا".

لكن المسلَّح لم يسمعه. وتابعا طريقهما في الظُلمة الغريبة.

XI

بقيا على هذا المنوال لثلاثة "أيام" من دون أي حادث.

XII

خلال فترة الاستيقاظ الرابعة (في منتصف الطريق؟ ثلاثة أرباعه؟ لم يعرفا – كانا يعرفان فقط أنهما لم يكونا مُتعَبين كفاية بعد لكي

يتوقفا)، سمعا دوّياً حاداً تحتهما؛ تمايلت عربة اليد، وانحنى جسداهما فوراً إلى اليمين عكس الجاذبية بينما انعطفت السكة الحديدية إلى اليسار تدريجياً.

كان هناك ضوءٌ أمامهما - توهّجٌ باهتٌ وغريبٌ لدرجة أنه بدا عنصراً جديداً كلياً في الوهلة الأولى، ليس تربةً أو هواءً أو ناراً أو ماءً. كان عديم اللون ويمكن تمييزه فقط من حقيقة أنهما استعادا أيديهما ووجهيهما في بُعد أبعد من بُعد اللمس. وأصبحت عيناهما حسّاسة جداً للضوء لدرجة أنهما لاحظا التوهّج قبل أكثر من ثمانية كيلومترات من اقترابهما من مصدره.

"النهاية"، قال الفتى بحزم. "إنها النهاية".

"لا". تكلّم المسلَّح بثقة غريبة. "ليست النهاية".

ولم تكن النهاية. فقد وصلا إلى ضوء لكنه لم يكن ضوء النهار.

عندما اقتربا من مصدر التوهّج، رأيا لأول مرة أن الجدار الصخري إلى اليسار قد تهدّم والسكة الحديدية انضمت إلى سكك حديدية أخرى تتقاطع في شبكة عنكبوتية معقّدة. كان يوجد على بعضها عربات نقل داكنة، أو حافلات ركاب، أو منصة تم تكييفها للسكة الحديدية. كل ذلك جَعَل المسلَّح متوتراً، مثل سفن شبحية عالقة في طحالب تحت الأرض.

ازداد الضوء سطوعاً، مُبهراً عينيهما قليلاً، لكن ازدياد السطوع كان يتم ببطء للسماح لهما بالتكيّف. انتقلا من الظلمة إلى النور مثل غطّاسين يصعدان من عمق كبير على مراحل بطيئة.

أمامهما، وتقترب تدريجياً، كانت حظيرة ضخمة تتمدَّد في

الظلام، وتتفرّع إلى مربعات صفراء من الضوء كانت عبارة عن حوالي أربعة وعشرين مدخلاً، تتراوح أحجامها من نوافذ صغيرة إلى ارتفاع ستة أمتار عندما اقتربا منها أكثر. مرَّا عبر أحد المداخل الوسطية. كانت هناك سلسلة أحرف مكتوبة فوقه، بلغات مختلفة. تفاجأ المسلَّح أنه كان قادراً على قراءة اللغة الأخيرة؛ كانت إحدى الجذور القديمة للغة الراقية نفسها وتقول:

السكة 10 إلى السطح وتتوجّه غرباً

كان الضوء في الداخل أكثر إشراقاً؛ والسكك الحديدية تلتقي وتندمج عبر سلسلة من التحويلات. بعض فوانيس حركة المرور هناك لا تزال تعمل، فتومض بالأحمر والأخضر والأصفر.

سارا بين الأرصفة الحجرية الصاعدة الغارقة بالأسود بفعل مرور آلاف المركبات، ثم وجدا نفسيهما في محطة مركزية. ترك المسلَّح عربة اليد تتوقف ببطء، وراحا يتفحصّان محيطهما.

"إنه يشبه المترو"، قال الفتى.

"المترو؟".

"لا تهتمّ. لن تفهم عما أتكلم. حتى *أنا* لا أفهم عما أتكلم، ليس بعد الآن".

تسلَّق الفتى إلى الأسمنت المشقوق. نظرا إلى الأكشاك الصامتة المهجورة حيث كانت الصحف والكتب تُباع في يوم من الأيام أو تُقايَض؛ متجر أحذية؛ متجر أسلحة (رأى المسلَّح، المحموم فجأة من الإثارة، مسدَّسات وبنادق؛ وتبيَّن له بعد فحص دقيق أكثر أن فوهاتها مسدودة بمادة الرصاص؛ لكنه أخذ قوساً وعلَّقه فوق ظهره، وجعبة

أسهم عديمة الجدوى تقريباً ومُثقَلة بشكل سيئ)؛ متجر ملابس نسائية. في مكان ما كان هناك محوِّل يستبدل الهواء مراراً وتكراراً، مثلما لا يزال يفعل منذ آلاف السنوات - لكنه لن يستمر في فعل ذلك طويلاً على الأرجح. فقد كانت هناك ضجة مزعجة في مرحلة ما من دورته ساعدت في تذكير أن الحركة الدائمة، حتى في الظروف المتحكَّم بها بدقة، لا تزال من أحلام المغفَّلين. كان للهواء مذاق مُمكنَن. وحذاءا الفتى والمسلَّح يُصدران صدىً مسطَّحاً.

صاح الفتى: "مهلاً! مهلاً...".

استدار المسلَّح وذهَب إليه. كان الفتى يقف، مشلولاً، أمام كشك الكتب. في الداخل، كانت هناك مومياء ممدَّدة في الزاوية البعيدة، وترتدي زياً أزرق مع حاشية ذهبية - زيّ موظفي السكك الحديدية. كانت هناك صحيفة قديمة لا تزال بحالة ممتازة على حُضن الشيء الميت، وتفتَّتت إلى غبار عندما لمسها المسلَّح. كان وجه المومياء مثل تفاحة قديمة ذابلة. لمس المسلَّح خدها بحذر، فتطاير بعض الغبار. عندما حطَّ الغبار، كانا قادرين على الرؤية عبر اللحم إلى داخل فم المومياء. كان هناك سن ذهبي يلمع.

"الغاز"، همس المسلَّح. "كان القدامى يصنعون غازاً يفعل هذا. أو هكذا أخبرنا فانّاي".

"الذي كان يعلِّم من الكتب".

"نعم. هذا هو".

"أظن أن أولئك القدامى خاضوا حروباً به"، قال الفتى بحزن. "وقتلوا قدامى *آخرين* به".

"أنا متأكد أنك مُحق".

كانت هناك حوالي عشر مومياءات أخرى. وكلها ما عدا اثنتين أو ثلاثة ترتدي الزيّ الأزرق والذهبي. افترَض المسلَّح أن الغاز استُخدِم عندما كان المكان فارغاً من معظم الركاب. ربما كانت المحطة فيما مضى هدفاً عسكرياً لجيش وقضية زالا منذ مدة طويلة.

أحزنته الفكرة.

"من الأفضل أن نتابع سيرنا"، قال، وبدأ يتوجّه نحو السكة 10 وعربة اليد مرة أخرى. لكن الفتى وَقَف خلفه بتمرّد.

"لن أذهب".

استدار المسلَّح، متفاجئاً.

كان الفتى يرتعش. "لن تنال ما تريده إلى أن أموت. سأجازف بمفردي".

أومأ المسلَّح برأسه بشكل مُبهَم، وكرِه نفسه مما كان سيفعله. "حسناً يا جايك"، قال بلطف. "أيام طويلة وليالي لطيفة". استدار وسار إلى الأرصفة الحجرية، وقفز بسهولة إلى عربة اليد.

"لقد عقدتَ صفقةً مع شخص!"، صَرَخ الفتى من خلفه. "أعرف أنك فعلت ذلك!".

لم يردّ عليه المسلَّح، ووضع القوس بعناية أمام العمود التائيّ الصاعد من أرضية عربة اليد، بعيداً عن الخطر.

كانت قبضتا الفتى مشدودتين، وملامحه متوترة بانزعاج شديد.

يا لسهولة خداعي هذا الفتى الصغير، قال المسلَّح لنفسه. *مراراً*

وتكراراً قاده حدسه المدهش - لمسته - إلى هذه النقطة، ومراراً وتكراراً راوغته حولها. وما مدى صعوبة ذلك - ففي النهاية، ليس لديه أصدقاء سواك.

في فكرة مفاجئة بسيطة (تقريباً رؤيا)، انتبه إلى أن كل ما عليه فعله هو الكفّ عن مسعاه، والاستدارة، وأخذ الفتى معه، وجعله محور قوة جديدة. ليس ضرورياً الحصول على البرج بهذه الطريقة المذلّة، أليس كذلك؟ وليستأنف مسعاه بعد أن يكبر الفتى، ويصبحان قادرَين على تجاهل الرجل ذي الرداء الأسود مثل لعبة رخيصة.

بالتأكيد، فكّر في سرّه بسخرية. *بالتأكيد*.

عرِف ببرودة مفاجئة أن التراجع سيعني الموت لكليهما - الموت أو أسوأ منه: الدفن مع وجود المتحوِّلين البطيئين خلفهما. إضمحلال كل القدرات. مع بقاء، ربما، مسدسات والده بعدهما بفترة طويلة، محفوظة في أبّهة عَفِنة كطواطم بشكل لا يختلف عن مضخّة البنزين غير المنسية.

أظهِر بعض الشجاعة، قال لنفسه بشكل كاذب.

مدَّ يده إلى المقبض وبدأ يضغطه. تحرّكت عربة اليد مبتعدةً عن الأرصفة الحجرية.

صَرَخ الفتى: *"انتظر!"* . وبدأ يركض على الخط القطري، نحو أقرب مكان ستخرج منه عربة اليد من العتمة التي أمامها. شعر المسلَّح بحافز بأن يُسرِع، بأن يترك الفتى وحيداً.

لكنه أمسكه عندما قفز نحوه. وتسارعت نبضات قلبه تحت القميص الرقيق عندما تشبَّث به جايك.

كانت النهاية قريبة جداً الآن.

XIII

أصبح صوت النهر صاخباً جداً، مالئاً حتى أحلامهما بهديره. وترك المسلَّح، كنزوةٍ أكثر من أي شيء آخر، الفتى يسيِّر العربة بينما كان يُطلق عدداً من الأسهم السيئة، المربوطة بخيوط بيضاء رفيعة، في الظلام.

القوس أيضاً كان سيئاً جداً، فرغم حالته الممتازة إلا أن تصويبه كان كارثياً، ولم يعرف المسلَّح أي شيء يمكنه أن يحسِّن وضعه. حتى تغيير الوتر لن يساعد الخشب المُتعَب. لم تكن الأسهم تطير بعيداً في الظلام، لكن آخر واحد أطلقه عاد رطباً وزلقاً. اكتفى المسلَّح بهزّ كتفيه عندما سأله الفتى عن المسافة التي قطعها في الماء، لكنه شخصياً لا يعتقد أن بإمكان السهم أن يقطع أكثر من خمسين متراً من القوس المتعفِّن – وحتى قطعه تلك المسافة سيُعتبر من ضروب الحظ.

ازداد هدير النهر أكثر فأكثر.

خلال فترة الاستيقاظ الثالثة بعد المحطة، بدأ توهّج طيفي يتزايد مرة أخرى. كانا قد دخلا نفقاً طويلاً من بعض الصخور الفوسفورية الغريبة، وكانت الجدران الرطبة تلمع وتتلألأ بآلاف النجميات الدقيقة. رأيا الأشياء كنوع مُوحِش ومُرعِب من السريالية.

كان الصوت الوحشي للنهر يصل إليهما مضخَّماً بطبيعة الصخور المحصورة. لكن الصوت بقي ثابتاً بشكل غريب، حتى عندما اقتربا من نقطة العبور التي كان المسلَّح متأكداً من وجودها أمامهما، لأن الجدران كانت تزداد عرضاً وتتراجع إلى الخلف. أصبحت زاوية صعودهما حادة أكثر.

تقدَّمت السكة بشكل مستقيم عبر الضوء الجديد. بالنسبة للمسلَّح، كانت كتل النحميات تبدو مثل أنابيب غاز المستنقع الأسيرة التي تُباع أحياناً في مهرجان تيار الحصاد؛ وكانت تبدو بالنسبة للفتى مثل أشرطة ملوَّنة لانهائية من أنابيب النيون. لكن كان يمكن لكليهما أن يريا في توهّجها أن الصخرة التي طوّقتهما منذ فترة طويلة انتهت أمامهما في شبه جزيرتين توأم متعرّجتين تشيران نحو خليج من الظلمة – الهوّة فوق النهر.

استمرت السكة فوق تلك الهاوية المجهولة، مدعومة بحاملة عمرها من عمر الدهر. وأبعد من ذلك، ما بدا مسافة لا تُصدَّق، كان هناك ضوء خافت جداً، ليس ناتجاً عن فسفرة أو فَلوَرة، بل ضوء النهار الحقيقي. كان صغيراً جداً مثل وخزة إبرة في ثوب داكن، ومع ذلك كان مُثقَلاً بمعنى مخيف.

"توقف"، قال الفتى. "توقف لدقيقة. رجاءً".

لم يتردد المسلَّح في ترك عربة اليد تتوقف تدريجياً. كان هدير النهر مدوّياً بشكل متواصل، وقادماً من تحتهما وأمامهما. وأصبح التوهّج الاصطناعي للصخرة الرطبة بغيضاً فجأة. شعَر لأول مرة بيد خانقة تلمسه، وكانت الرغبة بالخروج، بالتحرّر من هذا القبر الحيّ، قوية ولا يمكن إنكارها تقريباً.

"سنواصل طريقنا"، قال الفتى. "هل هذا ما يريده؟ أن نقود عربة اليد فوق... *هذه*... ونسقط؟".

كان المسلَّح يعرف أنه لم يكن كذلك لكنه قال: "لا أعرف ما الذي يريده".

نزلا واقتربا من حافة الهاوية بحذر. استمر الحجر تحت قدميهما يرتفع إلى أن سقطت الأرضية، بانحدار حاد مفاجئ، بعيداً عن السكة واستمرت السكة لوحدها، عبر الظلمة.

ركَع المسلَّح وراح يحدِّق إلى الأسفل. كان قادراً على رؤية شبكة معقّدة من العوارض والدعامات الفولاذية بشكل خافت، تختفي نزولاً نحو هدير النهر، وكل ذلك دعماً لقوس السكة الرشيق عبر الفراغ.

كان يمكنه تخيّل التأثير المميت للزمن والماء على الفولاذ. كم بقي من قوة الدعم؟ الكثير؟ القليل؟ لا دعم على الإطلاق؟ رأى فجأة وجه المومياء مرة أخرى، وطريقة تفتُّت اللحم، الذي بدا صلباً، إلى غبار بمجرد لمسه بإصبعه.

"سنسير الآن"، قال المسلَّح.

توقَّع أن يتردَّد الفتى مرة أخرى، لكنه سبَقه على السكة الحديدية، ماشياً على الألواح الفولاذية الملحَّمة بهدوء وثقة. لحقه المسلَّح فوق الهوّة، متأهّباً ليلتقط جايك في حال زلّت قدمه.

شَعَر المسلَّح بطبقة رقيقة من العرق تغطي بشرته. كانت الحاملة عَفِنة جداً، وراحت تدندِن تحت قدميه مع الحركة المتعنِّتة للنهر البعيد تحتهما، وتتمايل قليلاً على أسلاك غير منظورة. *نحن بهلوانان*، فكّر في سرّه. *انظري يا أمي، لا توجد شبكة. إنني أطير.*

ركَع مرةً وفحص عارضات التثبيت التي كانا يسيران عليها. كانت غارقة ومليئة بالصدأ (كان يمكنه الشعور بالسبب على وجهه – الهواء الطلق، صديق التحلّل؛ لا شك أنهما قريبان جداً من السطح الآن)، وضربة قوية من القبضة جَعَلت المعدن يهتزّ بعنف. سمِع في إحدى

المرات أنيناً تحذيرياً تحت قدميه وشَعَر بالفولاذ يستوي استعداداً للانهيار، لكنه كان قد تابع طريقه من قبل.

الفتى، بالطبع، كان أخفّ وزناً منه بأكثر من خمسين كيلوغراماً وآمن كفاية، إلا إذا أصبح الطريق أسوأ تدريجياً.

خلفهما، كانت عربة اليد قد ذابت في الظُلمة العامة. والرصيف الحجري على اليسار ممتدّ لحوالي عشرين متراً. كان ناتئاً أكثر من الرصيف الذي على اليمين، لكن هذا كان متروكاً في الخلف أيضاً، ثم أصبحا لوحدهما فوق الهاوية.

بدا لهما في البدء أن ضوء النهار الخفيف جداً لا يزال ثابتاً في مكانه بشكل يدعو إلى السخرية (وربما حتى يبتعد عنهما بنفس سرعة اقترابهما منه)، لكن المسلَّح أدرك تدريجياً أنه كان يتّسع، ويتوضّح أكثر. كانا لا يزالان تحته، لكن السكة كانت تصعد لملاقاته.

نخر الفتى بشكل مفاجئ، وتطوَّح فجأة، وراحت ذراعاه تدوران في دورات بطيئة وعريضة. بدا أنه كان يترنَّح فوق الهاوية منذ بعض الوقت قبل أن يتقدَّم إلى الأمام مرة أخرى.

"كادت تؤثّر عليَّ"، قال بهدوء. "هناك فجوة. انتبه منها إذا كنت لا تريد أن تقوم برحلة سريعة إلى القعر. يقول سايمون اخطُ خطوة عملاقة".

كانت هذه لعبة يعرفها المسلَّح بصيغة "تقول أمي"، ويتذكّرها جيداً بين ألعاب الطفولة مع كَثبرت وجايمي وآلان، لكنه لم يقل شيئاً، واكتفى بالعبور فوقها.

"ارجع إلى الوراء"، قال جايك دون أن يبتسم. "لقد نسيتَ أن

تقول 'هل يمكنني؟'".

"عفواً! لا أظن ذلك".

عارضة التثبيت التي داس عليها الفتى انهارت كلياً تقريباً، وتخبَّطت نزولاً بكسل، وراحت تلوح على برشام صدِئ.

صعوداً، استمرّا صعوداً. كان السير كابوساً وبدا أن السكة أطول بكثير مما هي فعلياً؛ الهواء نفسه بدا أنه تكثَّف وأصبح مثل الحلوى، وشَعَر المسلَّح كما لو أنه يسبح بدلاً من أن يسير. حاوَل ذهنه مراراً وتكراراً أن يعيد نفسه إلى التفكير العميق بالفراغ المريع بين هذه الحاملة والنهر تحتهما. كان دماغه ينظر إلى المسألة بتفاصيل مذهلة، وكيف ستكون: زعيق المعدن المنفتل والمنهار، وتطوُّح جسده في الهواء، وإمساكه بمقابض غير موجودة، والخشخشة السريعة لكعب حذائه على الفولاذ الصدئ الغدّار – ثم السقوط، والشقلبة المتواصلة، والسائل الدافئ على فخذيه بسبب تفريغ مثانته لنفسها تلقائياً، ولفح الهواء على وجهه، وتموّج شعره في رسم كاريكاتوري من الرعب، ورجوع جفنيه إلى الوراء، واندفاع الماء الداكن لملاقاته، أسرع، متفوّقاً حتى على صراخه–

زعقَ المعدن تحته وتجاوزه على غير عجل، ناقلاً وزنه بهدوء، دون أن يفكّر في تلك اللحظة الحاسمة بالهاوية، أو بالمسافة الطويلة التي قطعاها حتى الآن، أو بالمسافة التي لا يزال عليهما قطعها. دون أن يفكّر أن الفتى قابل للاستغناء عنه وأن التفاوض على بيع شرفه كاد ينتهي الآن، أخيراً. كم سيكون الوضع مريحاً عندما تتم الصفقة!

"بعد ثلاث عارضات تثبيت"، قال الفتى ببرادة. "سأقفز. هنا!

هنا بالضبط! *جيرونيمو!*".

رآه المسلَّح كخيال للحظة في ضوء النهار، باسطاً ذراعيه ورجليه مثل نسر، كما لو أن احتمال الطيران كان وارداً في حال فشل كل شيء آخر. حطَّ أرضاً وتمايل الصَرح بأكمله تحت ثقل وزنه. احتجّ المعدن تحتهما وسقط شيء بعيد تحتهما، مُحدثاً قرقعة في البدء، ثم صوت طرطشة ماء.

"هل وصلتَ؟"، سأل المسلَّح.

"أجل"، قال الفتى، "لكنها عَفِنة جداً. مثل أفكار بعض الأشخاص، على الأرجح. لا أظن أنها ستتحمّل وزنك أكثر من المكان الذي أنت فيه الآن. أنا، لكن ليس أنت. عد أدراجك. عد أدراجك الآن واتركني وشأني".

كان صوته بارداً، لكنه يخفي هستيريا، وينبض مثلما نبضَ قلبه عندما قفز عائداً إلى عربة اليد وأمسكه رولاند.

عَبَر المسلَّح فوق الفجوة. استلزم منه ذلك خطوة كبيرة واحدة فقط. خطوة عملاقة. *أمي، هل يمكنني؟ نعم يمكنك.* كان الفتى يرتجف بعجز. "عد أدراجك. لا أريدك أن تقتلني".

"بالله عليك، سِر"، قال المسلَّح بفظاظة. "ستنهار السكة بالتأكيد إذا وقفنا هنا نلغو".

سار الفتى بترنّح الآن، مادّاً يديه المرتجفتين أمامه، ومُباعِداً بين أصابعه.

صعدا.

نعم، كانت عارضات التثبيت عَفِنة أكثر بكثير الآن. كانت هناك فجوات متكررة بعرض عارضة واحدة، عارضتين، وحتى ثلاث عارضات، وبقي المسلَّح يتوقع أن يجدا الفراغ الطويل على السكة الحديدية الذي سيُجبرهما إما على الرجوع أو السير على القضبان الحديدية نفسها، متوازنين بشكل مسبِّب للدوار فوق الهوّة.

ثبَّت نظره على ضوء النهار.

أصبح التوهّج ملوَّناً - أزرق - وأصبح أنعم كلما اقترَبا منه أكثر، جاعلاً لمعان النجميات باهتاً. لا يزال عليهما قطع خمسين متراً أو مئة متر؟ لا يمكن الجزم.

سارا، وراح ينظر إلى قدميه وهما تنتقلان من عارضة إلى أخرى. عندما رفع نظره مرة أخرى، كان التوهّج أمامهما قد كبُر إلى فجوة، ولم يعد مجرد ضوء بل مخرجاً. لقد أوشكا على الوصول.

ثلاثون متراً الآن. ليس أكثر من ذلك. تسعون خطوة قصيرة. يمكن تحقيق ذلك. ربما سيُمسكان الرجل ذا الرداء الأسود. ربما، في ضوء الشمس الساطع ستذبل الزهور الشريرة التي في ذهنه وأي شيء سيكون ممكناً.

حُجب ضوء الشمس.

رفع نظره جافلاً، ومحدِّقاً مثل خُلد من حفرته، ورأى صورة ظليّة تملأ الضوء، تأكله، تسمح فقط بصدوع لونٍ أزرق ساخرٍ حول مخطط الأكتاف والساقين.

"مرحبا يا شباب!".

تردَّد صدى صوت الرجل ذي الرداء الأسود إليهما، مضخَّماً في

هذه الحنجرة الحجرية الطبيعية، وأخذت سخرية ابتهاجه نغمات توافقية عظيمة. بحث المسلَّح عن عظمة الفكّ دون أن يُخفض نظره، لكنها كانت قد اختفت، فُقدَت في مكان ما، استُهلكَت.

ضحك فوقهما وتحطّم الصوت حولهما، وراح يتردَّد مثل أمواج في كهف يمتلئ. صَرَخ الفتى وترنَّح، طاحونة هوائية مرة أخرى، والذراعان تلوحان في الهواء الرقيق.

تمزَّق المعدن وانهار تحتهما؛ ومالت السكة الحديدية بحركة بطيئة وحالِمة. سقط الفتى، ولوَّحت إحدى يديه مثل نورس في العتمة، صعوداً، صعوداً، ثم تدلّى فوق الحفرة؛ تدلّى هناك، وعيناه الداكنتان تحدّقان إلى الأعلى نحو المسلَّح في إدراك مفقود أعمى أخير.

"ساعدني".

مدوّياً، صارخاً: "لا مزيد من الألعاب. هيا أيها المسلَّح. أو لا تُمسكني أبداً".

أصبحت كل الأوراق مكشوفة على الطاولة. كل الأوراق ما عدا واحدة. كان الفتى متدلّياً، ورقة تارو حيّة، الرجل المشنوق، البحّار الفينيقي، مفقود بريء وبالكاد فوق أمواج بحر جحيميّ.

انتظر إذاً، انتظر لبرهة.

"هل أذهب؟".

صوته صاخب جداً، يصعّب عليه التفكير.

"ساعدني. ساعدني يا رولاند".

بدأت الحاملة تنفتل أكثر فأكثر، تصرخ، تتحرَّر من نفسها–

"سأتركك إذاً".

"لا! لن تتركني!".

رِجلا المسلَّح نقلته في وثبة مفاجئة، مُنهيةً الشلل الذي حلّ به؛ خطا خطوة عملاقة حقيقية فوق الفتى المتدلّي وحطَّ في اندفاعة زلقة نحو الضوء الذي قدَّم البرج مجمَّداً في تصوُّره في لوحة زيتية سوداء...

في صمت مفاجئ.

كانت الصورة الظليّة قد اختفت، حتى نبضات قلبه اختفت عندما مالت الحاملة أكثر بادئةً غطستها البطيئة الأخيرة نحو الأعماق، ويداه تبحثان عن الحافة الصخرية المضاءة للجحيم؛ وخلفه، في صمت رهيب، تكلَّم الفتى من مكان بعيد جداً تحته.

"اذهب إذاً. هناك عوالم أخرى غير هذه".

ثم انهارت الحاملة، بوزنها الكامل؛ وبينما كان المسلَّح ينهض ويتوجَّه نحو الضوء والنسيم وواقع مصير جديد، أدار رأسه إلى الخلف، للحظة في كفاحه المرير ليكون يانوس - لكن لم يكن هناك شيء، فقط صمت هابط، لأن الفتى لم يصرخ وهو يقع.

ثم كان رولاند يسحب نفسه صعوداً إلى الجرف الصخري الذي يطلّ على سهل عشبي، على المكان الذي وقف فيه الرجل ذو الرداء الأسود منفرج الذراعين والساقين.

وَقَف المسلَّح مترنّحاً، شاحباً كشبح، وعيناه متّسعتان وتسبحان تحت جبهته، وقميصه ملطَّخ بالغبار الأبيض من زحفه المندفع الأخير. انتبه إلى أنه سيكون أمامه المزيد من تدهورات الروح التي قد تجعل هذا التدهور يبدو طفيفاً جداً، ومع ذلك سيظل يهرب منها، عبر الأروقة

والمدن، من سرير إلى سرير؛ سيهرب من وجه الفتى ويحاول أن يطمره في العلاقات الحميمة والقتل، فقط ليدخل غرفةً أخيرةً ويجده ينظر إليه على ضوء شمعة. لقد أصبح الفتى؛ والفتى أصبح هو. لقد أصبح مستذئباً من صنع يديه. في أحلامه العميقة، سيصبح الفتى ويتكلّم لغة مدينته الغريبة.

هذا هو الموت. هل هو؟ هل هو؟

سار ببطء وترنّح على التلة الصخرية نحو المكان الذي كان الرجل ذو الرداء الأسود ينتظره فيه. هنا كانت السكة الحديدية متآكلة، بسبب الشمس، وكان كما لو أنها لم تكن أبداً.

دفعَ الرجل ذو الرداء الأسود ردائه بعيداً عنه بظهر يديه، ضاحكاً.

"إذاً!"، صاح. "ليست النهاية، بل نهاية البداية، أليس كذلك؟ أنت تتقدَّم أيها المسلَّح! تتقدَّم! آه، كم أنا مُعجب بك!".

شهر المسلَّح مسدسيه بسرعة فائقة وأطلق اثنتي عشرة طلقة. أدى وميض المسدسين إلى جعل نور الشمس نفسها خافتاً، وارتدّ دويّ الانفجارات عن الجروف الصخرية التي خلفه.

"مهلاً مهلاً"، قال الرجل ذو الرداء الأسود، ضاحكاً. "آه، مهلاً مهلاً *مهلاً*. نحن نشكّل فريقاً رائعاً، أنت وأنا. لن تقتلني أكثر مما تقتل نفسك".

انسحب، وهو يسير بالمقلوب، مواجهاً المسلَّح، مبتسماً ومومئاً برأسه. "هيا. هيا. هيا. أمي، هل يمكنني؟ نعم يمكنك".

لحقه المسلَّح في حذاء ممزَّق إلى مكان المشورة.

الفصل 5

المسلَّح
والرجل ذو الرداء الأسود

I

أرشده الرجل ذو الرداء الأسود إلى أرض قتل قديمة لكي يلغوَا. وقد عرفها المسلَّح فوراً: جلجثة، موقع الجمجمة. وكانت هناك جماجم بيضاء تحدِّق بهما برقّة - مواشي، ذئاب قيّوط، غزلان، أرانب. هنا زيلوفون من المرمر لأنثى طير تُدْرُج قُتلت وهي تأكل؛ وهناك العظام الصغيرة والحساسة جداً لخُلد، ربما قُتل للتسلية عبر كلب بريّ.

كانت الجلجثة وعاءً مسنَّناً في منحدر الجبل، وتحتها، في ارتفاعات أقل حدّة، استطاع المسلَّح رؤية أشجار جوشوا وأشجار شوح. كانت السماء أكثر ازرقاقاً مما رآه خلال اثني عشر شهراً، وكان هناك شيء غير قابل للتعريف يتكلَّم عن البحر في مسافة ليست بعيدة جداً.

أنا في الغرب يا كثبرت، فكّر في سرّه بتعجّب. *إذا لم يكن هذا هو العالم الوسطي، فهو قربه.*

جلس الرجل ذو الرداء الأسود على جذع شجرة حديدية قديمة. كانت جزمته بيضاء من الغبار وطحين العظام غير المستقرّ في هذا المكان. كان قد ارتدى رداءه من جديد، لكن كان باستطاعة المسلَّح

رؤية الشكل المربع لذقنه بوضوح، وظلّ فكه.

ارتعَشت الشفتان المظلّلتان في ابتسامة. "جمِّع بعض الحطب أيها المسلَّح. هذه الجهة من الجبال لطيفة، لكن البرد عند هذا الارتفاع لا يزال قادراً على وضع سكين في بطن المرء. وهذا مكانٌ للموت، إيه؟".

"سأقتلك"، قال المسلَّح.

"لا لن تقتلني. لا يمكنك. لكن يمكنك تجميع بعض الحطب لتتذكّر إسحق".

لم يفهم المسلَّح قصده. فذهب من دون أن ينطق ببنت شفة وجمَّع بعض الحطب مثل مساعد طبّاخ مطيع. لم يتوفّق كثيراً. فلم يكن هناك عشب شيطاني على هذه الجهة والخشب الحديدي لن يحترق. فقد أصبح صلباً كالصخر. عاد أخيراً ومعه كمية كبيرة من العُصي الواعدة، مطحونة ومليئة بغبار العظام المتحلّلة، كما لو أنها مغمّسة بالطحين. كانت الشمس قد غربت وراء أعلى أشجار جوشوا واتّخذت توهّجاً ضارباً إلى الحُمرة. كانت تحدِّق فيهما بلا مبالاة مُهلِكة.

"ممتاز"، قال الرجل ذو الرداء الأسود. "كم أنت رائع! كم أنت منهجيّ! كم أنت واسع الحيلة! أحيّيك!". ثم قهقه، ورمى المسلَّح الحطب أمام قدميه مُحدثاً خبطةً جعلت غبار العظام يتطاير.

لم يجفل الرجل ذو الرداء الأسود أو يقفز من مكانه؛ بل بدأ يجهّز النار بكل بساطة. راح المسلَّح يراقب، مفتوناً، بينما كان الرسم الفكري (الناضر، هذه المرة) يتّخذ شكله. عندما اكتمل، بدا مثل مدخنة مزدوجة صغيرة ومعقّدة ارتفاعها حوالي نصف متر. رفع الرجل ذو الرداء الأسود يده نحو السماء، وهزّ الكُمّ الضخم عن يد جميلة مستدَقة

الطرف، وأنزلها بسرعة، راسماً بسبّابته وخُنصره العلامة التقليدية للعين الشريرة. حصل وميض أزرق من اللهب، واشتعلت النار.

"معي عيدان ثقاب"، قال الرجل ذو الرداء الأسود بمرح، "لكنني ارتأيتُ أن هذه الحركة ستُعجبك. الآن اطبخ لنا عشاءنا".

اهتزّت أطراف ردائه، وسقطت جثة أرنب منتوف ومنزوعة أحشاؤه على التراب.

شوى المسلَّح الأرنب من دون أن ينطق ببنت شفة. وفاحت رائحته الزكية بينما كانت الشمس تغرب كلياً. لاحت ظلال أرجوانية جائعة فوق الوعاء حيث اختار الرجل ذو الرداء الأسود أن يواجهه أخيراً. شَعَر المسلَّح بالجوع بدأ يلعلع بقوة في بطنه بينما كان الأرنب يحمرّ؛ لكن عندما انتهى طبخ اللحم محتفظاً بكل عصائره في داخله، سلَّم السيخ بأكمله إلى الرجل ذي الرداء الأسود من دون أن ينطق ببنت شفة، وفتَّش في حقيبة ظهره المسطَّحة تقريباً، وسحَب آخر قطعة لحم مقدَّد كانت معه. كانت مالحة، ومؤلمة في فمه، ومذاقها كالدموع.

"هذه حركة عديمة القيمة"، قال الرجل ذو الرداء الأسود، محاولاً أن يبدو غاضباً ومستمتعاً في آن واحد.

"ومع ذلك"، قال المسلَّح. كانت هناك تقرّحات صغيرة جداً في فمه، بسبب نقص الفيتامين في جسمه، وجَعَله الملح يبتسم بمرارة.

"هل أنت خائف من اللحم المشعوَذ؟".

"نعم".

أرجَع الرجل ذو الرداء الأسود رداءه إلى الخلف.

نَظَر إليه المسلَّح بصمت. بطريقة ما، كان الوجه الذي أخفاه الرداء خيبةَ أمل كبيرة. فقد كان وسيماً وعادياً، من دون أي من العلامات التي تشير إلى أن الرجل اختبر أوقاتاً رائعةً وكان مطلّعاً على أسرار كبيرة. كان شعره أسود وبطول متعرّج متلبّد. كانت جبهته عالية، وعيناه داكنتين ولامعتين. وأنفه غير متميِّز. وشفتاه مكتنزتان وشهوانيتان. وبشرته شاحبة، مثل بشرة المسلَّح.

قال المسلَّح أخيراً، "توقَّعتُ رجلاً أكبر في السنّ".

"لماذا؟ أنا لا أموت تقريباً، مثلك يا رولاند – في الوقت الحاضر، على الأقل. كان يمكنني اتّخاذ وجه سيكون مألوفاً لك أكثر، لكنني اخترتُ أن أُريك الوجه الذي – آه – وُلدت به. انظر إلى الغروب أيها المسلَّح".

كانت الشمس قد اختفت كلها، وامتلأت السماء الغربية بضوء فرن متجهِّم.

"لن ترى شروقاً آخر لما قد يبدو وقتاً طويلاً جداً"، قال الرجل ذو الرداء الأسود.

تذكّر المسلَّح الحفرة تحت الجبال ثم نَظَر إلى السماء، حيث كانت الكوكبات ممدَّدة في وفرة نابض الساعة.

"لا يهم"، قال بلطف، "الآن".

II

خلَط الرجل ذو الرداء الأسود الأوراق بيدين سريعتين. كانت

مجموعة أوراق اللعب ضخمة، والتصاميم المرسومة عليها معقّدة. "هذه هي أوراق التارو أيها المسلَّح - نوعاً ما. مزيجٌ من الأوراق القياسية أُضيفت إليها مجموعة من تطويري الشخصي. الآن راقب جيداً".

"ماذا سأراقب؟".

"سأُخبرك عما أتوقّعه لمستقبلك. يجب قَلب سبع أوراق، الواحدة تلو الأخرى، ويجب وضعها إلى جانب البقية. لقد فعلتُ هذا منذ أيام جلعاد عندما كانت السيدات يلعبن لعبة «النقاط» على المَرجة الغربية. وأظن أنني لم اقرأ *أبداً* قصة مثل قصتك". تسلَّلت السخرية إلى صوته مرة أخرى. "أنت آخر مُغامِر في العالم. آخر مُحارب. لا شك أن هذا يروق لك كثيراً يا رولاند! ومع ذلك ليست لديك أي فكرة كم أنت قريب من البرج الآن، عندما تستأنف مسعاك. العوالم تدور حول رأسك".

مكتبة

"ماذا تقصد، أستأنف؟ أنا لم أتخلَّ عن مسعاي أبداً".

ضحك الرجل ذو الرداء الأسود من كل قلبه على هذا، لكنه لم يقل ما الذي وجَده مضحكاً جداً. "توقَّع لي إذاً"، قال رولاند بقسوة.

قلَبَ الورقة الأولى.

"الرجل المشنوق"، قال الرجل ذو الرداء الأسود. كانت العتمة قد أرخت ظلالها عليه من جديد. "ومع ذلك فهي هنا، بعدم تزامنها مع أي شيء آخر، تعني القوة وليس الموت. أنت، أيها المسلَّح، أنت الرجل المشنوق، تسير متثاقلاً دائماً نحو هدفك فوق حُفر الجحيم. لقد أوقعتَ شريك سفر واحد من قبل في تلك الحفرة، أليس كذلك؟".

لم يقل المسلَّح شيئاً، وقُلبَت الورقة الثانية.

"البحّار! لاحظ الحاجب الصافي، والخدّين الخاليين من الشعر، والعينين المجروحتين. إنه يغرق أيها المسلَّح، ولا أحد يرمي له الحبل. الفتى جايك".

جفَل المسلَّح، ولم يقل شيئاً.

قُلبَت الورقة الثالثة. كانت تُظهر ربّاحاً يقف مكشّراً ومنفرجِ الساقين على كتف شابٍ. كان رأس الشاب مرفوعاً إلى أعلى، وعلى وجهه ابتسامة رعب منمَّقة. عندما نظر إلى الورقة عن كثب، رأى المسلَّح أن الربّاح يُمسك سوطاً.

"السجين"، قال الرجل ذو الرداء الأسود. وكانت النار تلقي ظلالاً مضطربة على وجه الرجل المسافر، فتجعله يبدو أنه يتحرّك ويتلوّى في رعب صامت. أشاح المسلَّح بنظره.

"مزعج قليلاً، أليس كذلك؟"، قال الرجل ذو الرداء الأسود، وبدا على شفير الضحك بفتور.

قلَبَ الورقة الرابعة. امرأة تضع شالاً فوق رأسها وتجلس أمام عجلة تدوّرها. بالنسبة لعيني المسلَّح المذهولتين، بدت أنها تبتسم بمكر وتشهق في الوقت نفسه.

"سيدة الظلال"، علَّق الرجل ذو الرداء الأسود. "هل تبدو بوجهين لك أيها المسلَّح؟. إنها كذلك. وجهان على الأقل. لقد كسرت الطبق الأزرق!".

"ماذا تقصد؟".

"لا أعرف". و - في هذه الحالة، على الأقل - شعر المسلَّح أن خصمه يقول الحقيقة.

"لماذا تُريني هذه الأوراق؟".

"لا تسأل!"، قال الرجل ذو الرداء الأسود بحدّة، لكنه ابتسم. "لا تسأل. راقب فقط. فكّر بهذه الشعائر العديمة الفائدة فقط إذا كانت تهدّئ لك أعصابك لتحقيق ذلك. مثل المعبد".

ضحك بفتور وقلَبَ الورقة الخامسة.

حصّادة مكشّرة تُمسك منجلاً بأصابع نحيلة. "الموت"، قال الرجل ذو الرداء الأسود ببساطة. "ليس لك بعد".

الورقة السادسة.

نَظَر إليها المسلَّح وشَعَر بتوقّع غريب يزحف في معدته. كان شعوره خليطاً من الرعب والفرح، وبالتالي كان الإحساس بأكمله لا يمكن تسميته. جَعَله يشعر أنه يتقيأ ويرقص في الوقت نفسه.

"البرج"، قال الرجل ذو الرداء الأسود بلطف. "ها هو البرج".

احتلّت ورقة المسلَّح وسط النمط؛ وكانت كل ورقة من الأوراق الأربعة التالية تقف عند إحدى زواياه، مثل أقمار اصطناعية تدور حول نجمٍ.

"أين مكان هذه؟"، سأل المسلَّح.

وضع الرجل ذو الرداء الأسود ورقة البرج فوق ورقة الرجل المشنوق، فغطّتها بالكامل.

"ما معنى هذا؟"، سأل المسلَّح.

لم يُجبه الرجل ذو الرداء الأسود.

"ما معنى هذا؟"، سأله باحتدام.

لم يُجبه الرجل ذو الرداء الأسود.

"اللعنة عليك!".

لا جواب.

"اللعنة عليك مرة أخرى. ما هي الورقة السابعة؟".

قلَبَ الرجل ذو الرداء الأسود الورقة السابعة. شمس تُشرق في سماء زرقاء، وحولها سهام حب وأشباح. كان هناك حقل أحمر عظيم تحت الشمس تُشرق عليه. ورود أم دماء؟ لم يستطع المسلَّح أن يحدِّد. *ربما*، فكّر في سرّه، *الاثنان معاً*.

"الورقة السابعة هي الحياة"، قال الرجل ذو الرداء الأسود بلطف. "لكن ليس لك".

"أين مكانها في النمط؟".

"ليس لك أن تعرف الآن"، قال الرجل ذو الرداء الأسود. "أو لي أن أعرفه. لستُ الرجل العظيم الذي تبحث عنه يا رولاند. أنا مجرد مبعوث له". ورمى الورقة بلا مبالاة في النار المُحتضَرة. تفحَّمت، وتموَّجت، وهبَّت فيها النيران. شَعَر المسلَّح بقلبه يذوي ويتحوَّل إلى قطعة جليد في صدره.

"نَم الآن"، قال الرجل ذو الرداء الأسود بلا مبالاة. "ربما ستحلم وما شابه".

"ما لن تفعله رصاصاتي، ربما ستفعله يداي"، قال المسلَّح. تغلّفت رجلاه بفجائية همجية كبيرة، وطار فوق النار نحو الآخر، مادّاً ذراعيه. تورَّم الرجل ذو الرداء الأسود، مبتسماً، في بصره ثم انسحَب في رواق

طويل يتردَّد فيه الصدى. امتلأ العالم بصوت ضحك تهكميّ، وكان يقع، يُحتضَر، يغفو.

وراح يحلم.

III

كان الكون خالياً. لا شيء يتحرّك. لا شيء موجود.

انجرف المسلَّح، مرتبكاً.

"دعنا نُشعل نوراً خفيفاً"، قال الرجل ذو الرداء الأسود بلا مبالاة، وأصبح هناك نور. شعَرَ المسلَّح بطريقة غير متحيّزة أن النور فكرةٌ جيدةٌ.

"النجوم الآن في السماء فوقنا. والمياه تحتنا".

لاحَظَ ذلك. وانجرَف في بحار لانهائية. كانت النجوم تتلألأ إلى ما لا نهاية في الأعلى، ومع ذلك لم ير أياً من الكوكبات التي أرشدته في حياته الطويلة.

"اليابسة"، أشار الرجل ذو الرداء الأسود؛ رآها هناك ناتئة من المياه في تشنّجات جلفانية لانهائية. كانت حمراء، قاحلة، مصدَّعة ومكسوة بالجَدْب. وكانت البراكين تلفظ صُهارة لانهائية مثل بثور عملاقة على رأس مراهِق بشع.

"حسناً"، كان الرجل ذو الرداء الأسود يقول. "هذه بداية. انظر الآن إلى النباتات. والأشجار. والأعشاب والحقول".

فنظر. كانت الدينوصورات تتنزَّه هنا وهناك، تهدر وتزأر وتأكل

بعضها البعض وتعلق في حُفر قطران فوّارة فائحة الرائحة. وهناك غابات مطرية استوائية ضخمة في كل مكان. وسراخس عملاقة تلوح في السماء بأوراق مسنَّنة. وخنافس ذات رأسين تزحف على بعضها. رأى المسلَّح كل هذه الأمور. ومع ذلك شعَر أنه عظيم.

"الآن يأتي الرجل"، قال الرجل ذو الرداء الأسود بلطف، لكن المسلَّح كان يسقط... يسقط. بدأ أفق هذه الأرض الشاسعة والخصبة ينحني. نعم، الكل قالوا إنها منحنية، وأستاذه فانّاي ادّعى أنه تمت برهنة ذلك قبل فترة طويلة من الحقبة التي استمرّت فيها الحياة. لكن هذا-

أبعد وأبعد، أعلى وأعلى. بدأت القارات تظهر أمام عينيه المندهشتين، محجوبةً بأسراب من السُحُب. كان الغلاف الجوي للعالم يُبقيها داخل غشاء مشيميّ. والشمس، المُشرقة وراء كتف الأرض-

صرَخ ورمى ذراعاً أمام عينيه.

"انظر إلى النور!".

لم يعد الصوت صوتَ الرجل ذي الرداء الأسود. كان صوتاً عظيماً، يتردَّد صداه. ملأ الفضاء، والفضاءات بين الفضاء.

"النور!".

يسقط، يسقط.

انكمَشت الشمس. كوكبٌ أحمر مدموغٌ بقنوات تجاوزَه محلِّقاً في دوّامة، ويدور قمران حوله بشراسة. وأبعد من ذلك كان هناك حزام صخور يدور في دوّامة، وكوكب هائل يغلي بالغازات، ضخمٌ جداً لكي يدعم نفسه بنفسه، وبالتالي مفلطَحٌ. وأبعد من ذلك، كان هناك عالم مطوَّق يتألق مثل جوهرة نفيسة ضمن حزام شُعَيلاته الجليدية.

"النور! انظر إلى-".

عوالم أخرى، عالم واحد، عالمان، ثلاثة عوالم. أبعد بكثير من العالم الأخير، عالم وحيد من جليد وصخور يدور في عتمة ميتة حول شمس ليست أكثر إشراقاً من سنتٍ فقَدَ بريقه.

أبعد من هذا، العتمة.

"لا"، قال المسلَّح، وكانت كلمته مسطَّحة وعديمة الصدى في السواد. كانت أكثر ظلمة من الظلام، أكثر سواداً من السواد. بجانب هذا، كانت أحلك ليلة في روح الرجل مثل الظهر، العتمة تحت الجبال مجرد لطخة على وجه النور. "يكفي. رجاءً، يكفي الآن. يكفي-".

"النور!".

"يكفي. يكفي، رجاءً-".

النجوم نفسها بدأت تنكمش. وانجذبت سُدُم بأكملها نحو بعضها البعض وأصبحت لطخات متوهجة. بدا الكون بأكمله ينجذب حوله.

"رجاءً يكفي يكفي يكفي-".

همَس صوت الرجل ذي الرداء الأسود كالحرير في أذنه: "تراجع إذاً. اطرح كل أفكارك عن البرج. امضِ في سبيلك أيها المسلَّح، وابدأ المسيرة الطويلة لإنقاذ نفسك".

استجمَع أنفاسه. مصدوماً ووحيداً، ومغلَّفاً بالعتمة، ومرتعباً من معنى مُطلَق مندفع نحوه، استجمَع أنفاسه ونطَق الجواب الأخير على ذلك الموضوع:

"أبداً!".

"انظر إذاً إلى النور!".

وغمره النور من كل حدب وصوب، نور رائع وغامر. لا يملك الوعي أي فرصة ليصمد في ذلك الوهج العظيم، لكن قبل أن يهلَك، رأى المسلَّح شيئاً بوضوح، شيئاً عرف أنه بأهمية كونية. تمسَّك به بجهد كبير ثم ذهَب عميقاً يبحث عن ملجأ في نفسه قبل أن يتمكن ذلك النور من أن يُعمي عينيه ويدمّر سلامة عقله.

فرّ من النور ومن المعرفة التي يوفّرها، وبالتالي عاد إلى نفسه. حتى بقيتنا يفعل ذلك؛ حتى أفضلنا.

IV

كان لا يزال الوقت ليلاً - وما إن كانت نفس الليلة أو ليلة أخرى، لم تكن لديه أي طريقة مباشرة ليعرف ذلك. رفَع نفسه من المكان الذي نقلته إليه قفزته العفريتية نحو الرجل ذي الرداء الأسود، ونَظَر إلى الخشب الحديدي حيث كان والتر أودم (مثلما يسمّيه رولاند) يجلس. كان قد اختفى.

غمره إحساس كبير باليأس - عليه أن يعيد تنفيذ كل شيء مرة أخرى - ثم قال الرجل ذو الرداء الأسود من خلفه: "هنا أيها المسلَّح. لا أحبّك أن تكون قريباً جداً. أنت تتكلم في نومك". وضحك بفتور.

ركع المسلَّح على رُكبتيه بشكل مهزوز واستدار. كانت النار قد خمدت إلى جمرات حمراء ورماد رمادي، تاركةً النمط المضمحلّ المألوف

للوقود المستنفد. كان الرجل ذو الرداء الأسود يجلس بجانبه، ويمطِّق شفتيه بحماسة بغيضة فوق البقايا الدهنية للأرنب.

"لقد أحسنتَ صنعاً نوعاً ما"، قال الرجل ذو الرداء الأسود. "فلم أكن لأتمكن من إرسال تلك الرؤيا إلى والدك أبداً. كان ليعود ولعابه يسيل".

"ما كان ذلك؟"، سأل المسلَّح. كانت كلماته ضبابية ومتزعزعة. شعَر أنه إذا حاوَل أن يقف، ستخونه رجلاه.

"الكون"، قال الرجل ذو الرداء الأسود بلا مبالاة. تجشّأ ورمى العظام في النار حيث تلألأت أولاً ثم اسودَّت. راحت الرياح فوق كوب الجلجثة تعوي وتئنّ.

"الكون؟"، قال المسلَّح بشكل خالٍ من أي تعبير. كانت كلمة غير مألوفة له. كانت أول فكرة خطرت على باله هي أن الآخر يتكلَّم الشِعر.

"تريد البرج"، قال الرجل ذو الرداء الأسود. بدا كلامه سؤالاً.

"نعم".

"حسناً، لن تحصل عليه"، قال الرجل ذو الرداء الأسود، وابتسم بقسوة ساطعة. "لا أحد يهتم في مجلس مشورة العظماء إن كنتَ قد رهنتَ نفسك أو بعتها بشكل صريح يا رولاند. لديَّ فكرة عن مدى القُرب من الحافة الذي وضعتْكَ عنده تلك الدفعة الأخيرة. سيقتلك البرج على الطرف الآخر للعالم".

"أنت لا تعرف أي شيء عني"، قال المسلَّح بهدوء، وخفتت الابتسامة على شفتَي الآخر.

"لقد صنعتُ والدك وحطّمتُه"، قال الرجل ذو الرداء الأسود بتجهّم. "لقد أتيتُ إلى والدتك بصفتي مارتن - هذه حقيقة لطالما شككتَ بها، أليس كذلك؟ - وأخذتُها. لقد انحنت تحتي مثل شجرة صفصاف... رغم أنها (وهذا قد يربحك) لم تنكسر أبداً. على أية حال، كان هذا مقدَّراً. أنا أبعد تابعٍ لمَن يحكم «برج الظلام» الآن، وقد سُلِّمَ كوكب الأرض إلى يد ذلك الملك الحمراء".

"الحمراء؟ لماذا قلتَ الحمراء؟".

"لا تهتمّ. لن نتكلّم عنه، رغم أنك ستكتشف أكثر مما يهمّك إذا أصرّيتَ. ما يؤذيك مرةً سيؤذيك مرتين. هذه ليست البداية بل نهاية البداية. من الأفضل أن تتذكّر هذا... لكنك لن تتذكّره أبداً".

"لا أفهم".

"لا. أنتَ لا تفهم. لم تفهم أبداً. ولن تفهم أبداً. ليس لديك أي خيال. أنت أعمى بهذه الطريقة".

"ماذا رأيتُ؟"، سأل المسلَّح. "ماذا رأيتُ في النهاية؟ ماذا كان ذلك؟".

"ماذا بدا لك؟".

بقي المسلَّح صامتاً يفكّر بعمق. مدَّ يده بحثاً عن كيس تبغه، لكنه لم يجده. لم يعرض الرجل ذو الرداء الأسود أن يعيد ملء كيس تبغه إما بشعوذة سوداء أو بيضاء. قد يجد المزيد لاحقاً في كيس إنباته، لكن لاحقاً بدا بعيداً جداً الآن.

"كان هناك نور"، قال المسلَّح أخيراً. "نور أبيض رائع. ثم-". صمتَ وحدَّق في الرجل ذي الرداء الأسود. كان مائلاً إلى الأمام،

وإحساسٌ غريبٌ مدموغٌ على وجهه، أمرٌ قضائيٌ كبير جداً للأكاذيب أو الإنكار. كان ناتجاً عن الرهبة أو التساؤل. ربما كانا الشيء نفسه.

"لا تعرف"، قال، وبدأ يبتسم. "يا لك من مشعوذ عظيم يتواصل مع الموتى. لا تعرف. أنت دجّال!".

"أنا أعرف"، قال الرجل ذو الرداء الأسود. "لكنني لا أعرف... ماذا".

"النور الأبيض"، كرَّر المسلَّح. "ثم - ورقة عشب واحدة. ورقة عشب واحدة ملأت كل شيء. وكنتُ صغيراً جداً. متناهي الصغر".

"عشب". أغمض الرجل ذو الرداء الأسود عينيه. بدا وجهه متوتراً ومُنهَكاً. "ورقة عشب واحدة. هل أنت متأكد؟"،

"نعم". عبَس المسلَّح. "لكنها كانت أرجوانية".

"اسمعني الآن يا رولاند، يا إبن ستيفن. هل ستسمعني؟".

"نعم".

وبدأ الرجل ذو الرداء الأسود يتكلَّم.

V

الكون (قال) عظيم في كل النواحي، ويقدِّم تناقضاً كبيراً جداً لكي يستوعبه الذهن المحدود. بما أن الدماغ الحيّ لا يستطيع أن يفهم الدماغ غير الحيّ - رغم أنه قد يظن أنه يفهمه - فإن العقل المتناهي لا يستطيع استيعاب اللا متناهي.

الحقيقة الركيكة لتواجد الكون لوحده تهزم البرغماتيّ والعاطفيّ في

آن. وقد مرّت حقبة، مئة جيل قبل أن يستمرّ العالم، حقّقت فيها البشرية براعة تقنية وعلمية كافية لتأخذ بضع شظايا من الدعامة الحجرية العظيمة للواقع. رغم ذلك، أشرَقَ النور الكاذب للعلم (المعرفة، إن شئت) في بضع دول متقدمة فقط. وتزعَّمت شركة (أو عُصبة سرية) واحدة هذا الميدان؛ تسمّي نفسها نورث سنترال بوزيترونكس. ومع ذلك، ورغم زيادة هائلة في الحقائق المتوفرة، كان عدد البصائر أقل بكثير بشكل ملحوظ.

"أيها المسلَّح، تمكَّن أجدادنا الكبار بعدة أجيال إلى الوراء من قهر المرض الذي ينخر الجسم، الذي سمّوه السرطان، ومن قهر الشيخوخة تقريباً، وساروا على سطح القمر-".

"لا أصدِّق هذا"، قال المسلَّح بشكل قاطع.

فاكتفى الرجل ذو الرداء الأسود بالابتسام وأجابه، "ليس ضرورياً أن تصدِّق. لكنها أمور حصلت. وقد صنعوا أو اكتشفوا مئة حلية مدهشة أخرى. لكن كنز المعلومات هذا أنتَج بصيرة قليلة أو لا بصيرة على الإطلاق. لم تُكتَب أناشيد رائعة لعجائب التخصيب الاصطناعي - إنجاب أطفال من سائل مَنَوي مجمَّد - أو للسيارات التي تسير على الطاقة الشمسية. وبدا أن قلّة، إن وُجدوا، استوعبوا أصدق مبدأ للواقع: المعرفة الجديدة تؤدي دائماً إلى أسرار رائعة أكثر. والمعرفة الفيزيولوجية الأكبر للدماغ تجعل وجود النفْس أقل إمكانية لكن أكثر احتمالاً بطبيعة البحث. هل ترى؟ بالطبع لا. لقد وصلتَ إلى حدود قدرتك على الفهم. لكن لا تهتمّ - هذا خارج عن الموضوع".

"ما هو الموضوع إذاً؟".

"أكبر سر يقدِّمه الكون ليس الحياة بل الحجم. فالحجم يشمل الحياة، والبرج يشمل الحجم. الطفل، الذي يتساءل في المنزل، يقول: أبي، ماذا يوجد فوق السماء؟ فيقول الأب: ظُلمة الفضاء. الطفل: وماذا يوجد بعد الفضاء؟ الأب: المجرّة. الطفل: وبعد المجرّة؟ الأب: مجرّة أخرى. الطفل: وبعد المجرّات الأخرى؟ الأب: لا أحد يعرف.

"هل ترى؟ الحجم يهزمنا. فبالنسبة للسمكة، البحيرة التي تعيش فيها هي الكون. وبماذا تفكِّر السمكة عندما تُرفَع بفمها عبر الحدود الفضية للتواجد إلى كون جديد يُغرقها فيه الهواء ولون النور أزرق جنونيّ؟ حيث يضعها مخلوق ذو قدمين ومن دون خياشيم في صندوق خانق ويغطيها بقطعة قماش رطبة لكي تموت؟

"أو قد يأخذ أحدهم رأس قلمٍ ويكبِّره. ويصل المرء إلى نقطة يصيب فيها إدراكٌ مذهِلٌ هدفه: رأس القلم ليس صلباً؛ فهو يتألف من ذرّات تدور في دوّامة مثل تريليون كوكب جهنميّ. وما يبدو صلباً لنا هو في الواقع مجرد شبكة فضفاضة جعلتها الجاذبية تتماسك. وإذا نظرنا إليها بحجمها الفعلي، سنرى أن المسافات بين تلك الذرّات هائلة. والذرّات نفسها تتألف من نوى وبروتونات وإلكترونات تدور. يمكننا الغوص أكثر من ذلك إلى الجُسَيمات دون الذريّة. ثم إلى ماذا؟ التاكيونات؟ لا شيء؟ بالطبع لا. كل شيء في الكون لا يلغي شيئاً؛ ومن السخافة اقتراح وجود حدود.

"إذا وقفتَ على أطراف الكون، هل ستجد سوراً ولافتةً مكتوب عليها *طريق مسدود*؟ لا. قد تجد شيئاً صلباً ومستديراً، مثلما يرى الصوص البيضة من الداخل. وإذا نقرتَ تلك القشرة (أو وجدتَ باباً)، أي نور رائع وغزير قد يُشرِق عبر تلك الفتحة في نهاية الفضاء؟ قد

تنظر وتكتشف كوننا بأكمله، لكنه جزء من ذرّة واحدة على ورقة عشب واحدة؟ قد تضطر إلى الاعتقاد أنه بحرق غُصَينٍ سترمِّد الكون كله؟ أن الوجود لا يرتقي إلى لا متناهي واحد بل إلى لا متناهيات؟

"ربما رأيتَ الدور الذي يلعبه كوننا في نظام الأشياء – ما لا يزيد عن ذرّة في ورقة عشب واحدة. هل يُعقَل أن كل شيء يمكننا لَحْظه، من الفيروس المِجهري إلى سديم رأس الحصان البعيد، موجود في ورقة عشب واحدة تواجدت فقط لفصل سنة واحد في تدفق زمني فضائي؟ ماذا لو قطع منجلٌ ورقة العشب تلك؟ عندما تبدأ تموت، هل سيتسرَّب العفن إلى كوننا وحياتنا، جاعلاً كل شيء أصفر وبنياً وجافاً؟ ربما بدأ هذا يحصل من قبل. نقول إن العالم استمرّ؛ ربما ما نعنيه حقاً هو أنه بدأ يجفّ.

"فكِّر أيها المسلَّح كم أن مفهوماً كهذا للأشياء يجعلنا نبدو صغاراً! هل ستُجازى سلالةٌ من البعوض على أعمالها ضمن كمية لامتناهية من سلالات البعوض؟ هل سيؤثّر سقوط عصفور دُوري على مجرى الكون عندما يكون ذلك الدُوري أصغر من نقطة هيدروجين عائمة في عمق الفضاء؟ وإذا كان سيؤثر... فما هي طبيعة ذلك التأثير؟ وأين سيتم؟ هل من الممكن أنه سيتم ما وراء اللانهاية؟

"تخيَّل رمال صحراء موهاين، التي اجتزتها لكي تجدني، وتخيَّل تريليوناً من الأكوان – ليس عوالم بل *أكواناً* – متواجداً في كل حبة رمل من تلك الرمال؛ وضمن كل كون هناك عدد لامتناهٍ من الأكوان الأخرى. نحن نُطِلّ على تلك الأكوان من موقعنا المتميِّز العشبيّ المثير للشفقة؛ وبإمكان ركلة واحدة من حذائك أن تجعل مليار مليار عالم يطير في الظلمة، في سلسلة لن تنتهي أبداً.

"الحجم أيها المسلَّح... الحجم...

"لنفترض أكثر. لنفترض أن كل العوالم، كل الأكوان، تلتقي عند وصلةٍ واحدةٍ، عمودٍ واحدٍ، برجٍ. وضمنه سُلّمٌ ربما يُصعدك إلى مكان الحقيقة المطلقة نفسها. هل ستجرؤ على تسلّقه أيها المسلَّح؟ هل يُعقَل أن يحتوي مكانٌ ما فوق كل ذلك الواقع اللانهائي على غرفة؟...

"لن تجرؤ".

وتردَّد صدى هاتين الكلمتين في ذهن المسلَّح: *لن تجرؤ*.

VI

"لقد تجرّأ أحدهم"، قال المسلَّح.

"مَن هو؟".

"الملك الذي تكلَّمتَ عنه..."، قال المسلَّح بلطف. ولمعت عيناه. "أو... هل الغرفة فارغة أيها العرّاف؟".

"لا أعرف". وظهر الخوف على وجه الرجل ذي الرداء الأسود الرقيق، ناعماً وداكناً مثل جناح صقر حوّام. "و، بالإضافة إلى ذلك، أنا لا أسأل. قد يكون طرح الأسئلة أمراً غير حكيم".

"هل تخاف من أن تتلقى ضربة قاتلة؟".

"ربما أخاف من... المحاسبة".

بقي الرجل ذو الرداء الأسود صامتاً لبعض الوقت. كان الليل طويلاً جداً. ودرب اللبّانة منبسطة فوقهما في أبّهة رائعة، رغم أنها مروِّعة في الفراغ الموجود بين مصابيحها المشتعلة. تساءل المسلَّح ماذا

سيشعر إذا انشقّت تلك السماء الحالِكة وسطعَ نورٌ جارفٌ.

"النار"، قال. "أشعر بالبرد".

"أشعلها بنفسك"، قال الرجل ذو الرداء الأسود. "إنها إجازة الخادم هذه الليلة".

VII

غفا المسلَّح لبرهة واستيقظ ليرى الرجل ذا الرداء الأسود ينظر إليه نظرة شوق، نظرة غير صحية.

"بماذا تحدِّق؟". تذكّر قولاً قديماً لكورت. "هل ترى مؤخرة أختك؟".

"إنني أحدِّق فيك، بالطبع".

"حسناً، لا تفعل هذا". نكزَ النار، فأتلفَ دقة الرسم الفكري. "لا يعجبني هذا". نظرَ إلى الشرق ليرى إن كانت خيوط النور الأولى قد بدأت تظهر، لكن هذا الليل لا يزال مستمراً.

"إنك تطلب النور باكراً جداً".

"لقد خُلقت للنور".

"آه، هكذا إذاً! يا لوقاحتي أن أنسى هذه الحقيقة! لكن لدينا الكثير لنناقشه، أنت وأنا. لأنه هكذا قال لي ملكي وسيدي".

"مَن هو هذا الملك؟".

ابتسم الرجل ذو الرداء الأسود. "هل سنقول الحقيقة إذاً، أنت وأنا؟ لا مزيد من الأكاذيب؟".

"اعتقَدتُ أننا كنا نقول الحقيقة".

لكن الرجل ذا الرداء الأسود أصرّ على رأيه كما لو أن رولاند لم يتكلم. "هل ستكون الحقيقة بيننا، كرجلين؟ ليس كصديقين، بل كندَّين؟ هناك عرضٌ نادراً ما ستحصل عليه يا رولاند. فقط الأنداد يقولون الحقيقة، هذا رأيي. أما الأصدقاء والأحباب فيكذبون إلى ما لا نهاية، يقعون في فخ المجاملات. كم هذا مضجر!".

"حسناً، لن أريد أن أُضجرك، لذا دعنا نقول الحقيقة". لم يتكلّم أبداً أقل في هذه الليلة. "ابدأ بإخباري ما الذي تقصده بالضبط بالافتنان".

"إنه الشعوذة أيها المسلَّح! فشعوذة ملكي أطالت هذه الليلة وستُطيلها إلى أن ينتهي لغونا".

"وكم من الوقت سيستغرق ذلك؟".

"فترة طويلة. هذا أفضل ما يمكنني أن أقوله لك. فأنا لا أعرف شخصياً". وَقَف الرجل ذو الرداء الأسود فوق النار، ورسمت الجمرات المتوهجة نقوشاً على وجهه. "اسأل. سأخبرك بما أعرفه. لقد قبضتَ عليَّ. ومن العدل أن أُجيبك؛ لم أعتقد أنك ستتمكن من فعل ذلك. لكن مسعاك قد بدأ فقط. اسأل. سيقودنا هذا إلى أمور جدّية قريباً جداً".

"مَن هو ملكك؟".

"لم أره أبداً، لكن يجب أن تراه. لكن قبل أن تلتقيه، عليك أولاً أن تلتقي «الغريب الدائم الشباب»". ابتسم الرجل ذو الرداء الأسود بلا ضغينة. "يجب أن تقتله أيها المسلَّح. لكنني أظن أن هذا ليس ما

كنت تريد أن تسأله".

"إذا كنتَ لم تر ملكك وسيدك أبداً، فكيف تعرفه؟".

"يظهر لي في الأحلام. وقد أتى إليَّ بصورة مراهق، عندما كنتُ أعيش، فقيراً ومجهولاً، في أرض بعيدة. منذ عدة قرون، شرّبني واجبي ووعدني بمكافأة، رغم أنه كان هناك الكثير من المأموريات في شبابي وأيام رجولتي، قبل تبجيلي. أنت ذلك التبجيل أيها المسلَّح. أنت ذروتي". وضحك بفتور. "كما ترى، فقد أخذك أحدهم على محمل الجدّ".

"وهذا الغريب، هل له إسم؟".

"ليجيون"، قال الرجل ذو الرداء الأسود بلطف، وفي مكان ما في العتمة الشرقية حيث تمتد الجبال، قاطَعَ انزلاقٌ صخريٌ كلماته وصاح نمرٌ مثل امرأة. ارتعش المسلَّح وجفَل الرجل ذو الرداء الأسود. "لكنني لا أظن أن هذا ما كنت تريد أن تسأله أيضاً. ليس من طبيعتك أن تفكِّر بعيداً جداً في المستقبل".

كان المسلَّح يعرف السؤال؛ فقد قضَّ مضجعه طوال هذه الليلة، وفكَّر فيه لسنوات عديدة. كان على طرف لسانه لكنه لم يطرحه... ليس بعد.

"هذا الغريب هو تابع للبرج؟ مثلك؟".

"أجل. إنه *يتلاشى في الظلام*. إنه *يتلوَّن*. موجود في كل الأوقات. لكن هناك واحد أكبر منه".

"مَن؟".

"يكفي أسئلة!"، صاح الرجل ذو الرداء الأسود. أصبح صوته

صارماً وتدهور إلى نبرة تضرّع. "لا أعرف! لا أريد أن أعرف. التكلم عن الأشياء في العالم النهائي هو التكلم عن خراب النفس".

"وما بعد الغريب الدائم الشباب هناك البرج وأي شيء يحتوي عليه البرج؟".

"نعم"، همَس الرجل ذو الرداء الأسود. "لكن كل هذه الأشياء ليست ما تريد أن تسأله".

صحيح.

"حسناً"، قال المسلَّح، ثم سأل أقدم سؤال في العالم. "هل سأنجح؟ هل سأحقِّق هدفي؟".

"إذا أجبتُك على هذا السؤال أيها المسلَّح، ستقتلني".

"واجب عليَّ أن أقتلك. أنت تحتاج إلى أن تُقتَل". ونزلت يداه إلى العقبين الرثّين لمسدسيه.

"هذه لا تفتح أبواباً أيها المسلَّح؛ هذه فقط تغلقها إلى الأبد".

"إلى أين يجب أن أذهب؟".

"ابدأ غرباً. اذهب إلى البحر. حيث ينتهي العالم هو المكان الذي يجب أن تبدأ منه. كان هناك رجل أعطاك نصيحة... الرجل الذي تفوَّقتَ عليه منذ فترة طويلة-".

"نعم، كورت"، قاطعه المسلَّح بنبرة تشير إلى نفاد صبره.

"كانت النصيحة أن تنتظر. كانت نصيحة سيئة. لأنه حتى وقتها كانت خططي ضد والدك قد بدأت. لقد أرسَلك بعيداً وعندما عدتَ-".

"لم أسمعك تتكلّم عن هذا"، قال المسلَّح، وسمع غناء أمه في ذهنه: *طفلي العزيز، طفلي الحبيب، أحضِر سلّتك المليئة بالطيب.*

"اسمع هذا إذاً: عندما عدتَ، كان مارتن قد ذهب غرباً، لكي ينضم إلى المتمرّدين. لذا كل شيء قيل، على أي حال، وأنتَ صدَّقت. لكنه نصب لك فخاً مع مشعوذ محدَّد ووَقَعت فيه. أحسنتَ! ورغم أن مارتن كان قد اختفى قبل ذلك بوقت طويل، إلا أنه كان هناك رجل جَعَلك تفكّر فيه أحياناً، أليس كذلك؟ رجلٌ أثَّر على ملابس ناسكٍ والرأس الحليق لتائبٍ-".

"والتر"، همس المسلَّح. ورغم أنه ذهب بعيداً جداً في تأملاته، إلا أن الحقيقة المجرَّدة أدهشته. "*أنت*. مارتن لم يغادر أبداً".

ضحك الرجل ذو الرداء الأسود بفتور. "في خدمتك".

"واجب عليَّ أن أقتلك الآن".

"بالكاد هذا يمكن أن يكون عادلاً. كما أن كل ذلك حصل منذ فترة طويلة. الآن يأتي وقت المشاركة".

"أنت لم تغادر أبداً"، كرَّر المسلَّح مذهولاً. "أنت تغيَّرت فقط".

"اجلس"، دعاه الرجل ذو الرداء الأسود. "سأروي لك قصصاً، قدر ما تشاء منها. وأظن أن قصصك ستكون أطول بكثير".

"أنا لا أتكلم عن نفسي"، تمتم المسلَّح.

"لكن عليك فعل ذلك هذه الليلة. لكي نتمكن من أن نفهم".

"نفهم ماذا؟ هدفي؟ أنت تعرفه. هدفي أن أجد البرج. لقد أقسمتُ على ذلك".

"ليس هدفك أيها المسلَّح. عقلك. عقلك البطيء، الحاثّ، العنيد. لم يظهر أي عقل مثله أبداً في كل تاريخ العالم.

"هذا هو وقت الكلام. هذا هو وقت التاريخ".

"تكلَّم إذاً".

هزّ الرجل ذو الرداء الأسود الذراع الضخمة لردائه. فسقطت حزمة مغلَّفة بورقة معدنية عكست ضوء الجمرات المُحتضَرة على ثناياها العديدة.

"تبغ أيها المسلَّح. هل تريد أن تدخِّن؟".

كان قادراً على مقاومة الأرنب، لكنه لا يستطيع مقاومة هذا. ففتَح الورقة المعدنية بأصابع متلهّفة. كان هناك تبغ مفروم فرماً ناعماً داخلها، ووريقات خضراء للفّه فيها، رطبة بشكل مدهش. لم ير هكذا تبغ منذ عشر سنوات.

لفَّ سيجارتين وقضَمَ طرفَي كل واحدة ليُطلق النكهة. قدَّم واحدة للرجل ذي الرداء الأسود، فأخذها. أمسك كل واحد منهما غُصَيناً محترقاً من النار.

أشعل المسلَّح سيجارته وأخذ مجّة عميقة ليملأ رئتيه بالدخان العطري، وأغلق عينيه ليركِّز حواسه. زفرَ زفرة استمتاع طويلة بطيئة.

"هل هي جيدة؟"، سأله الرجل ذو الرداء الأسود مستفسِراً.

"نعم. جيدة جداً".

"استمتع بها. قد تكون آخر سيجارة لك لمدة طويلة جداً".

لم يُعر المسلَّح هذا التعليق أي أهمية.

"حسناً"، قال الرجل ذو الرداء الأسود. "لنبدأ إذاً:

"يجب أن تفهم أن البرج لطالما كان موجوداً، ولطالما كان هناك فتيان يعرفون عنه ويتوقون إليه، أكثر من السلطة أو الثروة أو النساء... فتيان يبحثون عن الأبواب التي تؤدي إليه...".

VIII

استمرّ الكلام، طوال الليل، والله وحده يعلم كم أكثر (أو كم كانت كمية الحقيقة فيه)، لكن المسلَّح تذكّر قليلاً منه لاحقاً... وبالنسبة لعقله العمليّ بشكل غريب، كمية قليلة منه بدت مهمة. أخبره الرجل ذو الرداء الأسود مرة أخرى أن عليه أن يذهب إلى البحر، الذي لا يبعد أكثر من ثلاثين كيلومتراً غرباً، حيث سينال قوة *الرسم*.

"لكن هذا ليس صحيحاً تماماً أيضاً"، قال الرجل ذو الرداء الأسود، ورمى سيجارته في بقايا نار المخيَّم. "لا أحد يريد إعطاءك أي قوة من أي نوع أيها المسلَّح؛ إنها *داخلك* بكل بساطة، وأنا مُجبر أن أُخبرك، جزئياً بسبب تضحية الفتى، وجزئياً لأنه القانون؛ القانون الطبيعي للأشياء. يجب أن يتدفّق الماء نزولاً، ويجب أن يُقال لك هذا. سترسم ثلاثة أبواب، على حدّ علمي... لكن لا يهمّني حقاً، ولا أريد أن أعرف حقاً".

"الثلاثة"، همس المسلَّح وهو يفكّر في العرّافة.

"ثم تبدأ المتعة! لكنني سأكون قد اختفيتُ وقتها. وداعاً أيها المسلَّح. لقد انتهى دوري الآن. لا تزال السلسلة في يديك. انتبه ألا تلفّ نفسها حول عنقك".

مُجبر بشيء خارج عن إرادته، قال رولاند، "لديك شيء آخر لتقوله، أليس كذلك؟".

"نعم"، قال الرجل ذو الرداء الأسود، وابتسم للمسلَّح بعينيه الضحلتين ومدَّ إحدى يديه نحوه. "انظر إلى النور".

وكان هناك نور، وكان النور جيداً هذه المرة.

IX

استيقظ رولاند بجانب بقايا نار المخيَّم ليجد نفسه أكبر بعشر سنوات. خفّ شعره الأسود على صدغيه، واختفت بيوت العناكب في نهاية الخريف. كانت الخطوط على وجهه أعمق، وبشرته أكثر خشونة.

كانت بقايا الحطب التي أحضرها قد تحوّلت إلى شيء كالحجر، وكان الرجل ذو الرداء الأسود هيكلاً عظمياً ضاحكاً في رداء أسود متعفِّن، عظام إضافية في مكان العظام هذا، جمجمة إضافية في هذه الجلجثة.

أو هل هذا أنت حقاً؟ فكّر في سرّه. *لديَّ شكوكي يا والتر أودم... لديَّ شكوكي يا أيها الذي كنتَ مارتن.*

وَقَف ونظر حوله. ثم، بإيماءة سريعة مفاجئة، مدَّ يده إلى بقايا رفيق ليلته الماضية (إذا كانت بقايا والتر بالفعل)، ليلة دامت بطريقة أو بأخرى عشر سنوات. كسر عظمة الفكّ الضاحك ووضعها بإهمال في جيب الورك الأيسر لسرواله الجينز - بديلٌ مناسبٌ كفاية لعظمة الفكّ التي فقدها تحت الجبال.

"كم عدد الأكاذيب التي قلتها لي؟"، سأله. الكثير، كان متأكداً من ذلك، لكن ما جَعَلها أكاذيب جيدة هو أنها كانت ممزوجة بالحقيقة.

البرج. في مكان ما إلى الأمام، ينتظره – وصلة الوقت، وصلة الحجم.

بدأ يسير غرباً مرة أخرى، مُديراً ظهره لشروق الشمس، ومتوجهاً نحو المحيط، مُدركاً أن جزءاً عظيماً من حياته أتى وزال. "لقد أحبَبتُك يا جايك"، قال بصوتٍ عالٍ.

زال التصلّب من جسده وبدأ يسير بسرعة أكبر. وصل إلى نهاية الأرض في ذلك المساء. جلَس على شاطئ يمتدّ إلى ما لا نهاية يميناً ويساراً، مهجوراً. وكانت الأمواج تلطم الساحل بدويّ لا يتوقف. ورسمت شمس الغروب شريطاً ذهبياً عريضاً على الماء.

جلس المسلَّح هناك، ووجهه مرفوعاً إلى أعلى في النور المتلاشي. حلَم أحلامه وراقَب النجوم تظهر؛ لم يضعُف هدفه، ولم يترنّح قلبه؛ كان شعره، الناعم الآن والرمادي عند صدغيه، يتطاير حول رأسه، ومسدسا والده المرصّعان بخشب الصندل بجلسان ناعمَين وقاتلَين عند وركَيه، وكان وحيداً لكنه لم يشعر أن الوحدة سيئة أو خسيسة بأي طريقة من الطرق. هبطت الظلمة والعالم استمرّ. انتظَر المسلَّح وقت *الرسم* وحلَم أحلامه الطويلة عن «برج الظلام»، الذي سيصل إليه يوماً ما عند الغسق ويقترب منه، وهو ينفخ بوقه، ليخوض معركة أخيرة لا يمكن تخيّلها.

مكتبة جديد الكتب والروايات تابعنا اضغط اللينك
t.me/ktabpdf
t.me/ktabrwaya
facebook.com/newpdf

الجزء الأول من سلسلة برج الظلام الملحمية يعرِّف القراء على أحد أقوى أبطال ستيفن كينغ الغامضين: رولاند من جلعاد: آخر الرجال المسلَّحين.

منذ ثلاثة عقود، عرَّف ستيفن كينغ القراء على رولاند ديشاين المسيطر والغامض. رولاند شخصية لا تُنسى بسهولة، منعزل في رحلة ساحرة إلى عالم الخير والشر. في عالمه المُقفر الخالي من أي لطف، يلاحق رولاند الرجل ذا الرداء الأسود، ويلتقي امرأة جذابة تدعى أليس، وتنشأ صداقة بينه وبين فتى من نيويورك يدعى جايك. هذه الرواية التي تجمع بين الواقع والخيال بشكل مخيف هي أول كتاب في ما يمكن اعتباره أكبر ملحمة ألَّفها ستيفن كينغ في حياته.

تتألف سلسلة برج الظلام من ثمانية أجزاء، وانتهى من تأليفها في العام 2009.

«عمل مؤثِّر ذو أهمية أسطورية... قد يتبيَّن أنه أعظم إنجازات ستيفن كينغ الأدبية».

– صحيفة أطلنطا جورنال-كونستيتيوشن

«رواية قوية تجذب القارئ إلى عالمها فيقع في براثنها كلياً».

– صحيفة ميلووكي جورنال سنتينل

«كينغ سيد الرواية هذه الأيام، وقد توصَّل إلى رواية جديرة بمواهبه».

– صحيفة لوس أنجلوس دايلي نيوز

«رائعة، منعشة، وقوية... ستتركك تائقاً إلى المزيد». – بُوكليست

ألَّف **ستيفن كينغ** أكثر من خمسين كتاباً، نالت كلها مرتبة الأكثر مبيعاً في جميع أنحاء العالم. وأعماله الأخيرة تتضمن مجموعة القصص القصيرة The Bazaar of Bad Dreams وFinders Keepers وRevival وMr. Mercedes (نالت جائزة إدغار لأفضل رواية) وDoctor Sleep وUnder the Dome. صُنِّفت روايته 11/22/63 – وهي الآن مسلسل تلفزيوني على محطة هولو – من بين أفضل عشرة كتب للعام 2011 على قائمة New York Times Book Review، وفازت بجائزة كتاب لوس أنجلوس في فئة كتب التشويق والإثارة. نال ستيفن كينغ ميدالية الفن الوطني للعام 2014 وميدالية مؤسسة الكتاب الوطنية للعام 2003 على مساهمته المتميِّزة في الأدب الأميركي. يعيش في بانغور، ماين مع زوجته الكاتبة تابيثا كينغ.

ISBN: 978-614-01-2384-7

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

نيل وفرات.كوم
جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com